لجنة التأليف والترجمة والنشر

إبراهيم باشا

تأليف

پيير كربتيس

ترجمه إلى العربية

محمد بدران

ناظر مدرسة بنباقادن الابتدائية

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٧

لجنة التأليف والترجمة والنشر

إبراهيم باشا

تأليف

بيير كربتيس

ترجمه إلى العربية

محمد بدران

ناظر مدرسة بناقادن الابتدائية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٧

الفهرس

مقدمة الترجمة

بقلم الأستاذ محمد فريد أبي حديد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد ، فان العظماء فى التاريخ كالأحياء فى هـذه الدنيا يختلف بعضهم عن بعض فى الحظوظ ؛ فالأحياء يختلفون فيما يصيب كل منهم من المال أو الجاه أو الشهرة ، وعظماء التاريخ يختلفون فيما تصيب ذكرياتهم من التقدير والتمجيد والتخليد . ولكن ذلك الاختلاف لا يمكن أن يجعل مقياساً للحقيقة ، فإنما مرجع ذلك كله إلى حكم الناس وإلى أنواع الموازين التى يزنون بها قيمة الأشخاص . وقد اختلفت تلك الموازين منذ القدم فهى تتباين فى بعض العصور المتباينة بحسب اتجاه الميول فى تلك العصور .

لهذا لا يصح أن يعد تقدير التاريخ لبطل من الأبطال فى حقبة من الدهر دليلاً على حقيقة مقدار ذلك البطل . فقد يتغير ذلك التقدير فى حقبة أخرى ، ولو طال الأمد على ذلك ؛ فإن الشاعر الإنجليزى الكبير شيكسپير مثلاً لم يكن له خطر عظيم فى بلاده فى أثناء حياته ولا بعد موته ؛ حتى مضى أكثر من قرن بعد ذلك ، ثم بدأت الأعين تتفتح إلى عظمته فى بلاد غير بلاده وشعب غير شعبه ، وعند ذلك عاد إليه تقديره الحقيقى .

ولسنا فى حاجة إلى الإطالة فى هذا المعنى ولا إلى التدليل على صحته ، وإنما نقصد من قولنا أن نبين أن تاريخ البطل المصرى الكبير إبراهيم باشا لم يلق إلى الآن ما هو جدير به من العناية ، ولم ترتفع ذكراه إلى المحل الذى كان يجب أن تسمو إليه . وكان لهذا سبب واحد ، وهو أن العصر الذى عاش فيه إبراهيم والعصر الذى تلا ذلك كان متجهاً بأنظاره واهتمامه إلى شخصية أخرى شغلت كل الأذهان واستولت على كل الألباب وهى شخصية الرجل العظيم محمد على باشا .

وكان إبراهيم باشا ممتازا بصفة غلبت عليه وهى إيثاره لأبيه وإكباره له ؛ فكان لا يحب أن يذكر اسمه إلا مقترناً باسم مولاه ، ولا يرضى عن أن ينسب إليه فضل بل أن ينسب كل الفضل إلى والده الذى يلهمه ويوجهه ويقوده . وبذلك انمحت شخصيته فأصبح فى الدولة والجيش والتاريخ أحد الأشخاص الذين ساعدوا واشتركوا وعملوا فى إقامة الصرح الذى اعتلاه الرجل الفذ محمد على باشا .

ولا يسعنا إلا أن نعجب بهذا الإيثار الكريم وهذا الخلق النبيل ، ولكنا مع ذلك نرى أن الأيام لو تقدمت بإبراهيم قليلا أو تأخرت فلم يعاصر أباه الكبير ، لكانت صورته أكثر وضوحا وشخصيته أكثر بروزا .

وإنه ليسرنا أن تتفتح العيون بعد مضى قرن على وفاة ذلك البطل إلى ذكراه مرة أخرى ، ويبدأ البحث متجهاً إليه خاصة ليجلو سيرته للناس رغم النور الباهر الخاطف الذى ينبعث من أبيه ، لكى يظهر لهم حوادث حياته ووصفها وتحليلها .

وإنه لمن المعجب فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا أنه يصور قائد جيوش مصر صورة جديدة لم يحاول فيها مجاملة ولا تجميلا ؛ فأبرز مثلا ما كان متصفاً به من القسوة فى مبدإ حياته ثم بين كيف زالت منه تلك القسوة عندما أصبح قائد الجيوش المصرية الأعلى ؛ وكيف صار زميل الجندى المصرى وصديقه بعد أن

جمعت بينهما أواصر المجد و بعد أن قابلا معاً ما واجههما من الأخطار والمشقات ، كما أبرز ما كان بين إبراهيم وأبيه من خلاف أساسي فى وجهات النظر ، وكيف كان إبراهيم مصريا فى عاطفته وعقله ، فى حين كان أبوه إسلاميا فى هاتين الناحيتين .

ولسنا نستطيع أن نأتى هنا على سائر مميزات الصورة الجديدة ، فإنما نمثل بهذين المثلين لما يشيع فى الكتاب من نواحى البحث المستفيض .

و إنا نرى أن هذا الكتاب هو خير كتاب لمؤلفه ، لأنه لم يحاول فيه أن يكون محامياً ، بل كان كل همه فى البحث والتصوير والتحليل .

وقد قام بترجمة هذا الكتاب عن الإنجليزية الأستاذ الجليل محمد بدران ، وهو حجة فى اللغتين العربية والإنجليزية ، فأضاف بذلك ثروة جليلة إلى تاريخ مصر و إلى لغة العروبة ، كما أضاف من قبل إليها بما ألف وما نقل من اللغة الإنجليزية من نفيس الكتب .

ومما يدعو إلى الإعجاب أن قارئ هذه الترجمة لا يكاد يتنبه إلى أنه يقرأ ترجمة لكتاب إنجليزى إلا حيث يعثر بتشبيه إنجليزى المنبت أو تعبير أجنبى الأرومة . فالأسلوب العربى المتين الذى يجمع بين السلاسة والقوة يكاد ينسى القارئ أنه يقرأ كتابا منقولا إلى العربية غير أصيل فيها . وهذه الترجمة شاهد عدل بما بذل الأستاذ المعرب فيها من جهد ، فإنه قد رد النصوص العربية الأصل إلى أصولها ، وصحح الأعلام وكانت فى كثير من الأحيان محتاجة إلى التصحيح ، وأكمل المتن بالشرح والتعليق والتعقيب .

وقد ضمت لجنة التأليف والترجمة والنشر بطبع هذا الكتاب القيم حلقة ذهبية فى سلسلتها المجيدة التى لاتزال تميها وتزيد فيها زيادة مباركة فى خدمة العلم والثقافة العامة .

يوليه سنة ١٩٣٧

مقدمة

محمد على غنى بشهرته عن التعريف ؛ فقد بهرت شخصيته الرائعة كثيراً من الـكتاب فعنوا عناية كبيرة بوصفها وإبرازها للناس . وسمح بعضهم لإبراهيم ابن محمد على أن يظهر على مسرح السياسة ، ولـكنهم اختصوه بدور غامض بعض الغموض أو كله ، فجعلوه السيف البتار فى يد أبيه الفطن الأريب ، وصوروه بصورة الرجل الذى لا علم له بالشؤون السياسية ، وكأنه لم يكن إلا جنديا صخابا ، اتفق أن كانت مواهبه العسكرية أرقى من مواهب من كان يحاربهم من القواد .

لذلك كتبت هذا الـكتاب لـكى أحق الحق وأظهر ما فى هذا الاعتقاد من خطأ . ولست أقصد به إلى الحط من قدر محمد على ، بل أقصد توكيد الدور الذى اضطلع به إبراهيم فى الشؤون العامة .

وقد جعلت مصر موضع بحثى ؛ ولـكننى اضطررت إلى أن أخوض غمار السياسة الأوربية العليا فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٢٠ — ١٨٤١ .

وهذا الـكتاب يشهد بفضل الملك فؤاد ملك مصر الحاضر وبعـد نظره وواسع علمه ؛ فهو الذى جمع الوثائق التى تتكون منها الآن محفوظات سراى عابدين الخاصة بحكم محمد على ، والتى وجدت فيها تلك المادة الوافية التى اقتبست منها ما اقتبست فى هـذا الـكتاب . وإنى أتقدم بوافر الشكر وعظيم الاحترام

إلى جلالته ، إذ أجاز لى أن أستعين بهذه السجلات كلما شئت من غير قيد ولا شرط .

وقد أشرت فى مواضع متعددة من هذا الكتاب إلى ما نشر حديثاً من صور التقارير الرسمية الموجودة فى وزارة الخارجية الفرنسية والقنصليات اليونانية والروسية والفرنسية ، فضلاً عن التقارير التى كانت تحويها محفوظات الدول التى تتكون منها الآن مملكة إيطاليا . وقد أنفق جلالة الملك فؤاد مبالغ طائلة من ماله الخاص فى جمع هذه المراجع ونشرها ، بعد أن كانت متفرقة مبعثرة فى كثير من البلاد ، وبعد أن كان الوصول إليها فى بعض الأحيان متعذراً أو فى حكم المستحيل . ففى كل صفحة من صفحات هذا الكتاب إذن شاهد على تفكير الملك فؤاد وابتكاره ؛ وإنى لمدين له بالشكر الجزيل .



إبراهيم باشا

الفصل الأول

مولده

لما صدر الأمر من الآستانة بتعيين محمد على والياً على مصر فى يوليه سنة ١٨٠٥ ، شعر هذا الجندى الفطن أن مركزه فى مصر قد توطد ، فأرسل فى طلب ابنيه إبراهيم وطوسن ، ولم يكونا قد جاوزا بعد العقد الثانى من عمرهما ، ولم يكن أكبرهما قد أتم السنة السابعة عشرة . وقد أمضى الغلامان السنين الأولى من حياتهما مع أمهما فى مسقط رأسهما قولة ، وهى ثغر صغير على حدود مقدونية وترقيا ، بينما كان أبوهما يغالب الأقدار ويقاتل ويخاتل للظفر بالقوة والسلطان . وبعد يوم واحد من وصولهما إلى القاهرة أخذهما الباشا إلى القلعة ، وعين ثانيهما حاكما لهذا المعقل[١] .

وإذا قلنا إن إبراهيم قد عين حاكما على قلعة القاهرة ، فلسنا نقصد أن هذا التعيين كان أمراً محققا لا شك فيه . ولكنا نقول هذا استناداً إلى ما قاله الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، وهو أن محمداً عليا قد اختص بهذا الشرف أكبر ولديه . وكان الجبرتى يقيم فى مصر فى الوقت الذى يتكلم عليه ويسجل الحوادث التى يشهدها بعينيه يوماً فيوماً ؛ ولذلك لا يشك معظم دارسى عصر محمد على فى صدق روايته . ولكن الكتاب المتأخرين أمثال موريه Mouriez[٢] وبانكس

(١) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار : تأليف الشيخ عبد الرحمن الجبرتى .
(٢) تاريخ محمد على والى مصر : تأليف پول موريه .

Bankes [١]، الذين لم يكونوا فى مصر فى عام ١٨٠٥ ، يقولون إن محمداً عليا قد حبا ابنه طوسن بهذا المنصب . وقد تكون هذه الحادثة غير مهمة فى ذاتها ؛ ولكننا اهتممنا بذكرها هنا لأسباب ستتضح للقارئ فيما بعد .

ولم يكد يمضى إلا قليل من الزمن على استدعاء محمد على ولديه من قولة حتى عاد أعداؤه إلى الضغط عليه . ومع أن الحظ كان لا يزال يخدمه فإنه اضطر إلى أن يستعين بشىء غير قليل من الدهاء وحسن السياسة ، ليحتفظ بسيادته وسلطانه . فرأى من المصلحة أن يعد بإرسال أربعة آلاف كيس من النقود هدية إلى الآستانة ؛ ولكن المال لم يكن حاضراً لديه ، وكان القبطان باشا رجلاً عنيداً صلب الرأى ؛ فلما اشتدت حاجته إلى المال أخذ يهدد باستخدام نفوذه لمساعدة أحد أعداء محمد على إذا لم يصله المال . وبعد أخذ ورد اتفق على أن يرسل إبراهيم بن محمد على رهينة إلى الآستانة ومعه الهدايا الثمينة ، وأن يبقى بها حتى يدفع المال كله . وعلى ذلك أبحر إبراهيم إلى البسفور فى شهر أكتوبر من عام ١٨٠٦ [٢] .

ويقول سفير النمسا لدى الباب العالى فى تقرير له لم ينشر بعد ، مرسل إلى وزارة خارجيته ، ومؤرخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٠٦ ، إن الأسطول التركى الذى رجع من المياه المصرية قبل ذلك بقليل ، كان يحمل على ظهره أكبر أبناء محمد على ، أرسله إلى الآستانة لتوكيد إخلاصه [٣] .

(١) سيرة چيوڤنى فناتى ومخاطراته : تأليف وليم چون بانكس الجزء الأول ص ٨٥ طبعة چون مرى .

(٢) تاريخ مصر فى عهد محمد على : تأليف فلكس منجن طبعة برتران ١٨٢٣ الجزء الأول ص ٢٤٧ ، وكتاب موريه السالف الذكر الجزء الأول ص ٢٥٩ ، وتاريخ الجبرتى .

(٣) دار محفوظات الدولة النمساوية القسم التركى ١٨٠٦ ملف ٦٦ — ١ .

وقد أعيد إبراهيم إلى أبيه فى ٢٦ سبتمبر من عام ١٨٠٧ . وليس ثمة دليل قاطع على أن محمداً عليا دفع الأربعة الآلاف من الأكياس ، ولكنه كان قد أدى إلى الباب العالى خدمات قيمة رأى معها أن يعيد الشاب إلى والده . وكانت الهزيمة التى منيت بها الحملة البريطانية المشئومة فى تلك السنة قد رفعت من شأن محمد على ، كما أن الصعاب التى حلت بالآستانة قللت من نفوذ السلطان إلى درجة جعلت الآستانة لا تدخر جهداً فى إزالة ما بينها و بين تابعها المظفر من أسباب الشقاق والبغضاء[١] .

ومع أن الباب العالى قد اعترف بعمله هذا بقوة محمد على المتزايدة ، فإن الثرثارين فى مصر كانوا يسعون للقضاء على نفوذ ذلك القائد العظيم الذى بدد منذ عهد قريب شمل جيش إنجليزى ، ورفع رؤوس القتلى من الإنجليز على أطراف القنا فى عاصمة ملكه . لكن هذا النصر المبين لم يمنع جماعة المماليك الذين بدد شملهم بقوته و بطشه ، وأعداءه الذين قضى عليهم بمكره ودهائه ، والزعماء الذين حل فى قلوب الشعب محلهم ، لم يمنع هؤلاء من أن يعتقدوا أن السلطان أقوى من الوالى ، ولم يكد إبراهيم يغادر الإسكندرية ليقيم فى الآستانة رهينة إلى أن يوفى بالأربعة الآلاف من الأكياس ، حتى تألب عليه كل أولئك الذين بدد شملهم بقوته ، وفاقهم بدهائه وقوة حيلته ، وأخذوا يكيدون له و يؤكدون أنه لن يستطيع أداء الجزية التى تعهد بأدائها . وقد دفعهم الحقد والخيبة إلى الادعاء بأن كل ما يهتم به محمد على هو الاحتفاظ بملكه ولو ضحى فى سبيل ذلك برهينته السياسية . ولم يسلم الباشا من قوارص لسان هؤلاء الحاقدين ، فقالوا إن الرهين لم يكن ابن الألبانى الباسل بل كان متبناه .

(١) موريه فى كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٢٩٧ .

وذلك ادعاء باطل لا يؤيده دليل ولا شبه دليل . ولو أن الجبرتى المعروف ببغضه لمحمد على و إبراهيم قد سمع بهذه الإشاعة لما غفل عن ذكرها . ثم إن السفير النمساوى ڤون استروس Von Strumer يذكر فى تقرير له رسمى كتبه فى عام ١٨٠٦ أن إبراهيم هو الابن الأكبر لمحمد على . وكان مركز هذا السفير يمكنه من معرفة الحقائق والتثبت من صحتها لأن روزتى Rosetti ممثله فى مصر كان يعرف هذا البلد أكثر مما يعرفه أى أجنبى آخر . ولا شك فى أن ڤون استروس قد بنى قوله السابق على ما نقله إليه روزتى من المعلومات .

وأخذ بعضهم هذه الفرية التى نسجت بردها الدسائس السياسية ففصلوا فيها القول تفصيلا . قالوا : — ولسنا نشك فى صدق قولهم هـــذا — إن محمداً عليا كان قد تزوج من مطلقة رجل آخر ، وإن زوجها الأول كان لا يزال على قيد الحياة وقت أن ولد إبراهيم . ولكنهم كتموا حقيقتين : إحداهما أن هذه الزوجة قد طلقت طلاقاً شرعيا قبل أن يتزوج منها الباشا ، والأخرى أن الباشا قد رزق من هذه الزوجة الجديدة بإبراهيم وطوسن وأخت لهما أكبر منهما سنا . ولكن ذلك لم يمنع السفهاء من ترديد هذه القصة .

وسمع هذه المثالب ودونها[١] چيوڤنى فناتى Giovanni Finati ، وهو رجل من أهل فرارا Ferrara تسمى باسم محمد وانضم إلى قوة الجيش المصرى ؛ كما سمعها

(١) فناتى فى كتابه السالف الذكر المجلد الأول ص ٨٥ ، وتاريخ أحياء مصر تأليف چول پلانا طبعه ج . بربرات بباريس سنة ١٨٣٠ ص ٣٤ ، سنتان فى الآستانة والمورة ١٨٢٥ — ١٨٢٦ تأليف ش . د طبعة ر . ج . چونز بلندن فى أول يناير سنة ١٨٢٨ ص ١٩٩ ، ويذكر بدكر فى ص ٩٩ من الطبعة الخامسة الإنجليزية فى كتابه عن مصر أن إبراهيم متبنى محمد على ؛ ولم نطلع على الطبعتين السادسة والسابعة من هذا الكتاب ، ولكن الطبعة الثامنة منه التى صدرت فى عام ١٩٢٩ بعنوان « مصر والسودان » قد عدلت من هذا الحكم ، فقالت عنه : « ابن محمد على أو متبناه إبراهيم باشا ولد فى سنة ١٧٨٩ » .

رجلان من الفرنسيين أحدهما خدم فى الجيش المصرى وثانيهما مؤلف كان يكتب بإمضاء ش . د C. D. ، ويظن أنه شارل ديڤال Charles Deval ؛ وقد نشرت كتبهم بعد عشرين سنة من الوقت الذى قدم فيه السفير النمساوى تقريره إلى وزارة خارجيته . ثم ردد صداها غير هؤلاء من الكتاب ، ومنهم سادلير Sadlier(١) وهو ضابط بريطانى خدم فى جيش إبراهيم ، ووليم جفرد پلجريڤ William Gifford Palgrave وهو رحالة إنجليزى زار بلاد العرب فى عام ١٨٦١ — ١٨٦٢(٢) ، وسيبين مارن Scipion Marin وهو كاتب فرنسى نشر فى عام ١٨٤٠ كتاباً بعنوان « حوادث ومجازفات فى مصر فى عام ١٨٣٩ »(٣) "Evenements et Aventures en Egypte en 1839"

ويلوح أن أحداً من هؤلاء لم يهتم أى اهتمام باستقصاء أصل هذه القصة . ويرى آخر هؤلاء الكتاب وهو سيبين مارن أن إبراهيم هو ابن محمد على حقيقة ، ولكنه ولد قبل أن تطلق أمه من زوجها الأول . ويقيننا أن أكبر ما كان يهتم به هذا الكاتب هو أن يتسقط كل ما يقال من بذىء الأقوال فى أحط أحياء القاهرة . وسنمر بفرية سيبين مارن مرّ الكرام باللغو لأنها غير جديرة حتى بالاحتقار ؛ ولأنها تدل على عقل سقيم يجهل كل الجهل ما كان يحدث داخل جدران بيوت المسلمين فى قولة فى عام ١٧٨٩ .

أما بانكس فيستند فى دعواه على ما كان يظهره محمد على من ميل إلى طوسن وتفضيله عن إبراهيم . ومما قاله فى هذا المعنى إنه « لما جاء الأميران إلى مصر أول مرة فى عام ١٨٠٥ عين طوسن حاكما للقلعة ، ومنح رتبة الباشوية

(١) قصة حروب إبراهيم باشا ضد الوهابيين ترجمها عن الإنجليزية ن . برن N. Perrin
(٢) قصة جولة لمدة عام فى وسط جزيرة العرب وشرقها طبعة مكملان سنة ١٨٦٦ .
(٣) الجزء الأول ص ٢٣ .

ذات الذنبين[1] ، وعقد له لواء الحملة على مكة قبل أن ينال إبراهيم شيئاً من هذا الشرف بزمن طويل » .

لـكننا قد نقلنا من قبل عن الجبرتى ما يثبت أن إبراهيم لا طوسن هو الذى عين حاكما للقلعة فى عام ١٨٠٥ ؛ ولم يخلفه أخوه الأصغر فى هذا المنصب إلا بعد أن أرسل هو رهينة إلى الآستانة فى عام ١٨٠٦ . ولما وصل فناتى Finati إلى القاهرة بعد شهرين من عودة إبراهيم ، كان طوسن قد سمح له بالبقاء فى منصبه هذا ، لأن أخاه بعد أن عاد من مرتهنه وكل إليـه عمل جديد أعظم وأجل قدرا من عمله القديم ؛ ذلك أنه عين دفتردارا لوالده أى مفتشاً عاما لحساباته . ويقول الكاتبن سادلير إن إبراهيم أدى هذه الأمانة بجدارة خليقة بالإعجاب[2] .

كذلك يخطئ بانـكس Bankes حين يؤكد أن طوسن منح رتبة الباشوية ، وعين قائدا عاما للحملة على مكة « قبل أن ينال إبراهيم هذا الشرف بزمن طويل » . حقيقة إننا لا نعلم علم اليقين متى منح إبراهيم وطوسن رتبة الباشوية ذات الذنبين ، وذلك لأن النار التى شبت فى قلعة القاهرة عام ١٨٢٠ التهمت كل السجلات المصرية السابقة على سنة ١٨١٧ ، ولم تبق منها إلا القليل . لـكن الذى يخطئ فيه بانـكس خطأ واضحاً هو قوله إن قيادة الحملة على مكة كانت أعظم أهمية من المنصب الذى كان يشغله إبراهيم وقتئذ . ويلوح أن منشأ هذا الخطأ هو أن بانـكس نفسه كان من رجال هذه الحملة ، فخيل إليه أن لقيادتها هذا الشأن العظيم . لـكننا يجب علينا أن ننظر إلى المسألة بعين محمد على لا بعين

---

(١) الباشوية ذات الذنبين هى التى تخول صاحبها حمل خصلتين من شعر الخيل ، والباشوية ذات الثلاثة الأذناب هى التى تخول صاحبها حمل ثلاثة خصلات من شعر الخيل لا خصلتين . (المعرب)

(٢) برن فى كتابه السالف الذكر ص ٧ .

بانكس . وإذا فعلنا ذلك تبين لنا أن سلامة مصر وتصريف أمورها المالية في عام ١٨١١ وفي الأعوام التي سبقته وأعقبته مباشرة ، كانا أعظم شأناً وأجل خطراً في نظر الباشا من فتح بلاد العرب ، كما تدل على ذلك صور التقارير الرسمية التي أرسلها محمد على إلى الباب العالي في ذلك الوقت ؛ وقد كان السجل الذي يحتوي هذه التقارير هو كل ما لم تلتهمه النيران في سنة ١٨٢٠ . وهذه التقارير واضحة الدلالة على أن الباب العالي كان يعلق أهمية عظيمة على إخماد نار الفتنة الوهابية ، التي اتقدت وقتئذ في جزيرة العرب كلها . ولكن الوالي آثر التريث حتى يثبت في مصر حكم القانون ويستتب فيها النظام ؛ وذلك لأن محمداً علياً كان سياسيا حازماً وجنديا قديراً ، عرف بثاقب رأيه أن الخطر كل الخطر في أن ترسل حملة إلى خارج مصر قبل أن يرتج باب الفتنة في داخلها .

وكان إبراهيم يضطلع في مصر بواجب هام هو جمع المال اللازم للحملة على مكة ، وكان إلى ذلك من أكبر أعوان أبيه في قراع أعدائه في الداخل . وفي استطاعتنا أن نؤيد دعوانا بأقوال كثير من الثقاة ، ولكننا سنقتصر بحثنا على تقرير الكبتن سادلير الذي يقول فيه :

« وبعد أن مكث إبراهيم مدة يشرف على جمع الضرائب في الوجه القبلي ، عين قائداً للحملة التي وجهت لقتال المماليك ، فهاجمهم وطردهم إلى بلاد النوبة ... ثم عين في عام ١٨٠٩ حاكما على الصعيد علاوة على منصبه الأول ، « منصب الدفتردار » ؛ ولم يلبث عمله في تدبير شؤون الإيرادات أن اتسع وتشعب ، فلم يقتصر على جمع المال ، بل شمل أيضاً إصلاح أحوال الزراعة ، التي خصها بمبالغ طائلة عملاً بأوامر أبيه »[1]

(١) يرن في كتابه السالف الذكر ص ٨ .

وبينما كان إبراهيم يجد فى جمع المال ومطاردة شراذم المماليك لإخراجهم من مصر ، كان أبوه تارة على رأس جنده فى ميدان القتال ، وطوراً فى مصر يبعث الرسائل إلى السلطان ليظهر له عجزه عن إرسال الحملة إلى مكة قبل أن يضرب المماليك الضربة القاضية . وقد كتب كثير من المؤرخين يصف الطريقة التى اتبعها محمد على فى القضاء على المماليك ، وكيف دعا المقيمين منهم فى القاهرة وما جاورها إلى الاحتفال بسفر طوسن إلى بلاد العرب ، وكيف لاقى هؤلاء جميعاً حتفهم . ولكننا الآن نستطيع أن نعرف الحقيقة مما كتبه الباشا نفسه ، فإن فى مصر صوراً لم تنشر بعد لتقارير بعث بها الباشا إلى السلطان ، مؤرخة ١١ ربيع الأول من عام ١٢٢٥ ، ٧ جمادى الآخر من عام ١٢٢٥ و ٩ من شهر صفر سنة ١٢٢٦(١) . وقد جاء فى التقرير الثالث منها ما يأتى :

« لقد كان همى فى الأربع أو الخمس السنين الماضية أن أعد العدة للحملة الحجازية . وقد أفرغت مجهودى فى سبيل ما تعذر من أمرها ؛ ولكن المماليك وهم مستثار الفتنة ومرسى دعائمها ظلوا عدة سنين عقبة كأداء تحول بينى وبين أغراضى . . . . فقربتهم منى لكى أشعرهم بعطفى عليهم وإكرامى لهم ، ولم آل جهداً فى العمل على كسب مودتهم وإخلاصهم إلى ؛ ولكنهم طبعوا على الخيانة ففر بضع مئين منهم منذ عهد قريب من معسكرهم إلى جنوب مصر ؛ فبعثت وراءهم حملة اقتفت آثارهم وبددت شملهم ؛ ولما عرف الباقون ما حل بإخوانهم جاءنى من بقى منهم فى القاهرة وطلبوا إلى أن أبقيهم فى خدمتى ؛ فأجبت طلبهم ، ولكنهم أظهروا أنهم غير أهل للثقة التى وضعتها فيهم . . . فتذرعت بسفر ابنى طوسن واستقدمت إلى القاهرة الأربعة والعشرين أميراً لعنهم الله ،

(١) المحفوظات الملكية المصرية (القسم التركى) ملف رقم ١ وثيقة رقم ٨١ .

لأنهم كانوا مداجين يعملون معى فى الظاهر ويكيدون لى فى الخفاء ، فدعوتهم هم وأعوانهم وأشياعهم المعروفين باتج أوغلان[1] وصنائعهم وأتباعهم . ولما دخلوا بأجمعهم فى القلعة أمرت بالأبواب فأحكم إغلاقها ، ثم أوردت أولئك اللصوص حياض الردى عن آخرهم » .

ليس هذا هو موضع البحث فى هـذه المذبحة العامة وما فيها من خير وشر ؛ وكل ما نريد أن نستنتجه منها هو دلالتها على ما كان يعلقه محمد على من الأهمية العظمى على إبادة المماليك . فقد سفكت فى هذه المذبحة دماء أربعة وعشرين من أمرائهم ، وعدد كبير من أتباعهم ، عدا من قتل منهم قبل هذا فى صعيد مصر كما يشير إلى ذلك التقرير . إن قوة المماليك كانت قد تضعضعت من غير شك قبل أن يسافر طوسن إلى الحجاز ، ولـكنهم كانوا لا يزالون قوة خطيرة تتطلب كثيراً من اليقظة .

وقد اختير طوسن لقيادة الحملة على مكة ، وهى الحملة التى كان لها من المظهر أكبر مما لها من الأهمية . وهـذا المظهر الخلاب هو الذى بنى عليه بانكس قوله الخاطئ إن أصغر الأخوين كان مفضلا عن أكبرهما .

وقد علمنا أنه ليس فى بلدة قولة من السجلات ما يكشف عن شىء من تاريخ زواج محمد على أو مولد إبراهيم ؛ ولـكن فى القسم التركى من المحفوظات الملـكية المصرية وثائق يدعو فيها محمد على إبراهيم ابنه . وأقوى من هـذه الأدلة الجافة وأقطع منها فى الدلالة على صحة دعوانا ، خطاب كتبه الباشا إلى الباب العالى يدفع فيه عن نفسه تهمة وجهها له السلطان ، وهى توانيـه فى القيام ببعض واجباته ؛ وقد جاء فى هذا الدفاع ما يأتى :

(١) كلمة تركية معناها « الغلمان الداخليون » أى المكلفون بالخدمة داخل القصور . (المعرب)

سأبين لمولاى وولى نعمتى بإيجاز مبلغ إخلاصى له . لقد رزقنى الله ثلاثة أبناء هم أحب إلى من ناظرى بل من حياتى . . . . ومع ذلك فقد عينت أكبر هؤلاء الأبناء دفترداراً ووجهته إلى السودان ولم تره عيناى منذ ستة أشهر . وقد أرسلته إلى هـذه البلاد لأن المماليك كانوا يعيثون فيها فساداً ، فكان إنقاذها من شرهم واجباً لا مندوحة عنـه ، ولذلك عهدت بهذه المهمة إلى ابنى وقرة عينى . ثم أرسلت ابنى الثانى طوسن أحمد باشا على رأس حملة الحجاز . ومع أن فراق ابنى يقطع نياط قلبى فقد علت النفس بأنى أضحى بولدى من أجل مولاى ، ولا أبغى من وراء ذلك إلا رضاءه عن خادمه »[1] .

وتلك اللهجة التى كتب بها خطاب ١٦ يناير سـنة ١٨١٢ لا تترك مجالاً للظن فى أن إبراهيم هو ربيب محمد على . ففيه يقول إن طوسن هو ابنه الثانى ، وأن الأخ الأكبر كان يطارد المماليك فى الجنوب حينما كان طوسن لا يزال فى القاهرة يعد عدة السفر للقيام بواجب أصغر من الواجب الأول شأناً وأقل منـه كلفة ، وهو إخضاع الوهابيين .

وهناك فى هذه السجلات خطاب ثان ينطق بما ينطق به الخطاب الأول . وتاريخ هـذا الخطاب هو ٤ ربيع الأول من عام ١٢٣٧ ، وهو يوافق بالتاريخ الميلادى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٨٢١ . وكان طوسن فى ذلك الوقت قد توفى إلى رحمة الله ، أما إبراهيم فقـد أصبح بطلا من أبطال مصر ، وأتم مالم يتمه أخوه الأصغر ، وهو إخضاع الوهابيين . وكان محمد على قد أرسله فى ذلك الوقت إلى السودان فى مهمة خطيرة عهد بها إليه ؛ وكتب على الخطاب إلى « ولدى إبراهيم » وتكلم فيه على أعمال رسمية ، ثم ذيله بحاشية تؤكد هذا الحنو الأبوى ، هذا نصها :

(١) المحفوظات الملكية المصرية (القسم التركى) ملف رقم ١ الوثيقة رقم ٨١ .

« ولدى : إنى أحبك أنت وأخاك إسماعيل حبا لا يقل عن حبى لعينى ولروحى ؛ فإذا ما عرضتك إلى هذه المتاعب الجمة وأقصيتك عن وطنك ، فذلك لكى نستطيع أن ننال جميعاً من المزايا ما يرفع شأننا ويعلى قدرنا ، وأنت الذى تقدر ذلك لا أنا (١) » .

وقد كتب هنرى ددول Henry Dodwell مؤلف كتاب « منشئ مصر الحديثة The Founder of Modern Egypt » فى هامش إحدى صحائف هذا الكتاب ما يلى :

« زعموا أنه (إبراهيم) ابن زوجة محمد على الأولى من زوجها السابق ، وهذا زعم باطل — كامبل فى ٣٠ يوليه سنة ١٨٣٩ ، وزارة الخارجية ٧٨ — ٣٧٥ » .

وقد وجدنا فى هذه الإشارة مفتاح هذا اللغز . فكتبنا إلى روى أترتون Roy Atherton مستشار السفارة الأمريكية فى لندن ، وهو رجل قدير مفضال ؛ نرجوه أن يبعث إلينا بصورة كاملة من هذا التقرير الذى نقلنا عنه هذه العبارة ؛ فقبل رجاءنا وبعث إلينا بنصه الكامل الذى نورده هنا :

رقم ٦٣

الإسكندرية

٣١ من يوليه سنة ١٨٣٦

مولاى اللورد :

لما رأيت بعض المندوبين الفرنسيين يذكرون فى خطبهم أن إبراهيم

(١) المحفوظات الملكية المصرية (القسم التركى) ، والملف لا رقم له ورقم الوثيقة ٩٨ .

لم يكن إلا ربيب محمد على ، ذكرت ذلك أمامه وسألته هل إبراهيم باشا ابنه حقا أو ابن زوجته رزقته من زوج لها قبله ؟

« فأجابنى الباشا بأن زوجته لم يكن لهـا قط بعل سواه ، وأنها رزقت منه بخمسة أبناء ولدوا كلهم فى قولة من أعمال بلاد الروميلى موطنه الأول وموطن زوجته ، وأن أكبر أبنائه أنثى توفيت منذ بضع سنين بعد أن تزوجت من محرم بك (الموجود هنا الآن) ، وأن إبراهيم باشا ثانى هؤلاء الأبناء ، وأما الآخرون فهم طوسن باشا وإسماعيل باشا (وقد توفيا) ، ثم نازلى هانم أرملة المرحوم الدفتردار .

« وقال الباشا بعـد ذلك إن إبراهيم باشا هو الوحيد من بين أبنائه الذى قامت أمه على تربيته ؛ وذلك لأن الطاعون كان متفشياً فى قولة وقت مولده ، فلم تشأ أمه لخوفها عليه أن تأتى له بالمراضع ؛ إلى أن قال إن كل أبنائه الآخرين قد ولدوا له من زوجات مختلفات .

« وإنى أتشرف بأن أكون لفخامتكم يامولاى .

الخادم المطيع الخاضع

الإمضاء « بات . كامبل Pat. Cambell »

الفيكونت بلمرستون ، الحائز للطبقة الأولى من نيشان الحمام الخ الخ الخ .

وهذه الوثيقة الرسمية لا تترك مجالا للشك فى أبوة إبراهيم .

وقد يعترض البعض بأننا قلنا إن محمدا عليًّا تزوج من مطلقة رجل آخر ، فى حين أن هذا التقرير يقول : « إن زوجته لم يكن لها قط بعل سواه » ؛ وجوابنا عن هذا نأخذه من كتاب من أحدث الـكتب ، وهو كتاب « بلادى . تجديد مصر — محمد على Mon Pays, La Renovation de L. Egypte, Mohammed Ali

تأليف الأميرة شويكار المصرية ، وهى من سلالة محمد على . وقد جاء فى هـذا الكتاب أن حاكم برفستا أراد أن يظهر اعترافه بفضل محمد على لما أدى له من الخدمات « فمنحه رتبة بلوك باشى وزوجه من قريبة له ثرية كان يكفلها ، وقد رزق محمد على من زوجته خمسـة أبناء ، ثلاثة ذكور وبنتين ، وهم إبراهيم وطوسن وإسماعيل ونازلى وتوحيدة »(١) .

وفى وسعنا أن نعرض على القارئ لهذا التناقض الظاهرى تفسيرين : أولهما أن محمداً عليًّا أجاب القنصل العام عن سؤاله الخاص بمولد إبراهيم الجواب السابق ، لأن السؤال فى ذاته كان سؤالاً موفقاً ، من شأنه أن يقضى على الإشاعات الخاصة بأبوة إبراهيم ، وهى إشاعات إن راجت قد يكون لها أسوأ الأثر فى الأسرة الحاكمة التى كان الباشا قد اعتزم وقتئذ إقامتها . ولم يكن يهمه من هـذه الناحية أكانت أم إبراهيم مطلقة أم غير مطلقة حينما تزوج منهـا ؛ ولذلك فقد يكون الجواب الذى سجله القنصل البريطانى العام فى تقريره محاولة موفقة من جانب محمد على لإخفاء شؤونه الخاصة به عن الجمهور .

وفى التفسير الثانى من الصواب بقـدر ما فى التفسير الأول . وخلاصته أن الشريعة الإسلامية تعد الزواج عقداً مدنيا ، من شروطه الأولى أن يدفع الزوج لزوجته مقدم صداق ؛ وتصبح المرأة من الوجهة الشرعية زوجاً للرجل من ساعة إمضاء العقد وأداء الصداق . لـكن الذى يحدث فى معظم الأحوال أن تمر عدة شهور بين هذا العقد القانونى وبين انتقال الزوجة من منزل أبيها إلى دار زوجها . وفى خلال هذه الفترة يعد الجهاز ؛ ثم يقام الاحتفال الذى يقابل فى بلاد الغرب حفلة الأكليل فى مساء اليوم الذى تخرج فيه العروس من منزل أبيها . ولا يدخل

(١) طبع له روسنة ١٩٣٣ ص ٩ .

الزوج على زوجته إلا فى هـذا اليوم ، مع أنها قد حلت له من ساعة توقيعه وثيقة الزواج .

ولا يبعد أن تكون هذه السيدة الثرية قريبة الحاكم قد تزوجت من رجل آخر ، ولكنها بقيت فى بيت أهلها حتى يعد جهازها ؛ وقد تكون زوجت وهى لا تزال فى مهدها ؛ فلما علا شأن محمد على وذاعت شهرته أصبح من الأزواج المرغوب فيهم . فعقدت أم البنت النية على أن تزوجها منه . وكان لا بد لها قبل ذلك أن تطلق ، لأنها كانت من الوجهة الشرعية زوجة لرجل آخر وإن لم تكن قد رأت وجهه قط . فهى فى الحقيقة خِطْبةٌ لا زوجه . فإذا انحلت عقدة الزواج أصبحت المرأة من الوجهة الشرعية مطلقة ، وإن كانت فى الواقع لم يَبْن بها إنسان . ولذلك لم يقل محمد على إنه لم يتزوج من مطلقة ، وكل الذى أراد أن يفهمه محدثه أنه تزوج بكراً لم يدخل بها زوجها الأول . وقد عبر عن ذلك المعنى بقوله إن أم إبراهيم « لم يكن لها قط بعل سواه » . وفوق ذلك كان إبراهيم شديد الشبه بأبيه ؛ ذكر ذلك جون باركر John Barker قنصل بريطانيا فى الإسكندرية فى عام ١٨٣٠ فى خطاب أرسله إلى جون كلفرت John Calvert فى أول إبريل من ذلك العام جاء فيه :

« من الإشاعات الرائجة أن إبراهيم باشا ليس ابن الوالى بل متبناه ، أو مملوكه ؛ ولكن ما من أحد رآهما إلا وجدهما مثلين كأنما قدا من أديم واحد ؛ وأهم ما يستلفت النظر قصر ذراعيهما الشديد »(١) .

(١) الشام ومصر فى عهد الخمس السلاطين الأتراك الأخيرين وهى تجارب القنصل العام باركر مدة خمسين سنة مأخوذ معظمها من خطاباته ويومياته نشرها ابنه إدورد ب . ب . باركر وطبعها صمويل تنزلى بلندن سنة ١٨٧٦ الجزء الثانى ص ١٢٠ .

وكان الباب العالى يعلم حق العلم أن إبراهيم هو ابن محمد على ؛ ولذلك فإنه لما اختلت قواه العقلية فى سبتمبر سنة ١٨٤٨ عين إبراهيم على الفور واليا على مصر ؛ ولو كان ثمة أقل مطعن فى بنوته لطلبت الآستانة إلى الدول حرمانه من عرش الولاية .

ثم إن ولاة الأمور الأتراك الذين لم يترددوا فى تعيين إبراهيم واليا على مصر فى عام ١٨٤٨[1] ، وقفوا هـذا الموقف بعينه فى عام ١٨٦٣ حينما اعترفوا بتعيين إسماعيل بن إبراهيم واليا على مصر . ولا يقل عن ذلك أهمية أنه فى عهد محمد سعيد لم يشك أحد قط فى أن من حق إسماعيل بصفته أكبر أفراد الأسرة المحمدية العلوية أن ينوب عن عمه مرتين أثناء غيابه عن مصر ، وأن يخلفه على العرش بعد وفاته .

---

(١) فى الأصل الإنجليزى ١٨٤١ وتلك غلطة من غير شك . (المعرب)

الفصل الثانى

حروب بلاد العرب

الوهابيون فى الإسلام كالپيوريتان من المسيحيين البروتستنت . وقد سموا بهذا الاسم نسبة إلى مؤسس مذهبهم محمد بن عبد الوهاب الذى ولد فى الحوطة[1] من أعمال نجد حوالى ١٧٠٠ م . وهم قوم شديدو الزهد والتقشف ، يحرمون التحلى بالذهب ولبس الحرير ، ويرون أن المساجد الفخمة أثر من آثار الوثنية ؛ ولا يحرمون الخمر فحسب ، بل يحرمون معها جميع المنبهات ؛ ويعتقدون أن شرب القهوة والدخان إثم وضلال . وهم لا يكتفون بالدعوة إلى عقيدتهم ؛ بل نراهم على استعداد للجهاد فى سبيلها ، وكأنما كانوا هم الذين عناهم بتلر Butler بقوله : « إنهم يثبتون صحة عقائدهم بالطعنات والضربات الرسولية » ، ومعقلهم بلاد العرب .

وبينما كان محمد على والمماليك يقتتلان على السيادة فى مصر ، كانت مكة ويثرب موطن الحرمين الشريفين ، والمدينتان المقدستان عند كافة المسلمين ، هما قلب البلاد التى تصدر منها التعاليم الوهابية . ومع أن المسلمين يعتقدون أن الحج فرض عليهم ، يؤدونه مرة فى حياتهم على الأقل ، فإن الوهابيين يرون أن زيارة المقامات فى البلدين ضرباً من الوثنية . ويصفهم أعداؤهم بأنهم لصوص

(١) هذا قول المؤلف ، غير أن الذى يذكره كثير من المؤلفين ومنهم أمين الريحانى والأستاذ حافظ وهبة والمؤرخ ابن بشر أنه ولد فى العيينة وأن مولده كان فى عام ١١١٥ هـ أو ١٧٠٣ م . (المعرب)

وقطاع طرق يسرقون الحجاج وينهبون القوافل (١) .

وليس يهمنا هنا أن نبحث هل هذه التهم صحيحة أو باطلة ؛ و إنما الذى يهمنا هو أن هؤلاء المسلمين ذوى الصلابة والشدة فى الدين أصبحوا قوة سياسية كبيرة لا تخضع لسلطان تركيا خليفة المسلمين . وقد ارتكبوا أثناء عصيانهم من ضروب القسوة ما ضاعف الحقد الناشئ من اختلافهم مع عامة المسلمين فى العقيدة الدينية .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذى حمل السلطان على العمل لقطع دابر الفتنة التى أثار عجاجها سعود بن عبد العزيز ، بعد أن آلت إليه زعامة الحركة الوهابية ، فأصبح بفضل حماس دعاتها صاحب الأمر والنهى فى جزيرة العرب . ولم يكن السلطان سليم من الملوك الأقوياء ، ولكنه ود لو استطاع أن يضرب عصفورين بحجر واحد . فقد كان يغار من محمد على بعد أن أيقن أن قوة تابعه أمست خطرا عليه ؛ فظن أنه إذا استطاع أن يغرى محمداً عليًّا بمهاجمة سعود ، فإنه لا بد أن يصاب بخسائر مادية شديدة ، و إن أمكنه أن يخضد شوكة الوهابيين . وأراد سليم أن يحبب إلى محمد على القيام بهذا الواجب ، فأخذ يصور له ما سوف تنال مصر من الفخر إذا تمكن الباشا من أن يطهر الإسلام من هذا الوباء الذى ساط على الحرمين الشريفين (٢) . ولم يكن من الصعب على محمد على أن يدرك أن مصر هى خير مكان يستطاع الهجوم منه على الوهابيين . لكن إغراء السلطان له وملاطفته إياه لم يحملاه على استعجال الأمور . وكان الباشا على جهله لحناً حاضر البديهة ، وتشهد التقارير التى أخذ يرسلها تباعا إلى الباب العالى بقدرته على أن

(١) لو أن هؤلاء الأعداء زاروا بلاد العرب الآن لرأوا بأعينهم الأمن المستتب والنظام الشامل . (المعرب)

(٢) هذا ما لا يقره أحد عليه . (المعرب)

يرد على الرسائل التى دعته فيها الآستانة لمقاتلة الخارجين على الدين ، برسائل من نوعها وبنفس لهجتها . وإليك مثالاً واحداً من حذق الباشا ومهارته ، منقولاً عن تقرير لم ينشر بعد مؤرخ أول ربيع الثانى من عام ١٢٢٤ وهو يوافق ١٨ من أغسطس سنة ١٨٠٩ .

« إذا اخترقت أبصارنا حجب الغيب التى لا يعلم سرها إلا الله ، ورأينا ما حل بالحرمين الشريفين من بلاء ، وما فرضه العصاة فى الحجاز من مذلة ومهانة على زوار الكعبة والقبلة الشريفتين ، معقد آمال المسلمين ومتعبدهم ، إذا فعلنا ذلك أسفنا وتملكتنا سورة الغضب على أولئك العصاة المفسدين . وإنا لنبتهل إلى الله عز وجل أن يعجل بإنقاذ الأرض المقدسة من شرهم وسيئ أعمالهم »[1] .

ومضت عدة شهور بعد كتابة هذا الخطاب قبل أن يرى محمد على أن الأعمال التى كان يقوم بها إبراهيم فى صعيد مصر ، من جباية الضرائب ومطاردة المماليك ، قد تقدمت تقدماً يسمح إلى طوسن بالسير لقتال الوهابيين . على أن محمداً عليا السياسى العملى المحنك الذى كان يحرر إلى الآستانة تقارير مفعمة بالحماس الدينى الملائم لأغراضه الرسمية ، كان فى قرارة نفسه مسلماً صادق الإيمان يعنى ما يقول . فإذا كان فى هذه التقارير قد ضرب على هذه النغمة السابقة لأنها مما يتفق مع أغراضه ، فإنه لم يكن مع ذلك خادعاً مراوغاً .

وكلما مرت الشهور والسنون والاستعداد للحملة قائم على قدم وساق زاد محمد على يقيناً بأنه يعد جند الحق ليقضى على أنصار الزيغ والضلال . وما لبث أن اعتقد فى نفسه أن العناية الإلهية قد سخرته لقتال الخارجين على الإسلام ، وتخليص البلاد المقدسة من أذاهم . ولم يكن يخفى عليه أنه مقدم على حرب عدو ،

(١) المحفوظات الملكية المصرية (القسم التركى) وثيقة رقم ١٦ .

يعتقد أن القتل هو جزاء كل من لا يؤمن بعقيدته مسلماً كان أو مسيحيا . ولم يكن يجهل ، وهو الفطن الأريب ، أن جنوده لن يرحموا عدوا إذا وقعوا فى يده نكل بهم أشد تنكيل .

وكان مع طوسن رجل اسكتلندى يدعى توماس كيث Thomas Keith كان قد أسر هو وكثير من زملائه الذين اشتركوا فى الحملة الإنجليزية الأخيرة على مصر ، ونجا من القتل حين اعتنق الإسلام وسمى نفسه إبراهيم ؛ ثم اقتتل هو ومملوك صقلى من مماليك سيده المقربين ، فقتل المملوك وولى هارباً ؛ ثم التجأ إلى زوجة محمد على أم إبراهيم وطوسن فأقنعت ولدها الأصغر باستخدامه فى جيشه . ولكنه قبل أن يسافر حكم عليه بالإعدام لإهمال بسيط وقع منه فى أداء واجبه ، فأبى الجندى الشجاع أن يسلم نفسه ، وظل نصف ساعة يصد عن باب حجرته عدداً من الهاجمين عليها . ثم قفز من النافذة ولجأ مرة أخرى إلى نصيرته الشفيقة الأولى ، فاسترضت طوسن عنه . وأعجب الأمير بشجاعته فأمر بتعيينه رئيساً على مماليكه الأخصاء . وما زال يجد فى أداء واجبه حتى أصبح فى شهر إبريل من عام ١٨١٥ حاكماً على المدينة المنورة . ولما كان كيث كمعظم أهل بلده مطبوعاً على حسن التصرف فى الأمور المالية ، أضحى على مر الزمن قائماً على أموال جيش طوسن . ثم قضى نحبه فى ميدان القتال مثخناً بطعنات السيوف[١] .

وإذا كان طوسن قد رزق رجلاً اسكتلنديا يشرف على شؤونه المالية ، فقد كان فى جيش سعود امرأة أخت غمرات ، وهى أرملة أعرابية بقومية اسمها

(١) مذكرات عن البدو والوهابيين جمعها المرحوم جون لويس بركهاردت فى أسفاره فى الشرق وطبعها فى لندن هنرى كلبرن ورتشارد بنتلى فى عام ١٨٣١ الجزء الثانى ص ٢٣٤ ، ٢٤٢ .

غالية[١] . كان زوجها من شيوخ تُربة ؛ وكانت هى من سراة قومها ، أوتيت من الثروة حظا لا يعادله حظ عشر من المشائر المجاورة لها . وكانت ندية الكفين تهب المال والزاد للمحتاجين من قبيلتها ؛ وكان بيتها مقصد كل وهابى أمين ، تمد لهم فيه الموائد ، ويعقد زعماؤهم فيه المجالس . وكانت هذه السيدة المسنة نافذة البصيرة ، مسددة الرأى ، تشترك مع الرجال فى تصريف الأمور . وكان لها فى معظم الأحوال الكلمة العليا والرأى المطاع . وبالغ الناس فى تقدير ذكائها وأصالة رأيها ، حتى قالوا إنها ساحرة وإنها تستطيع بسحرها أن تجعل النصر على الدوام حليف شيوخ الوهابيين[٢] .

وليس من قصدنا أن نفصل القول هنا فى حروب طوسن مع الوهابيين ، وحسبنا أن نقول إنه احتل مكة والمدينة والثلاث المدن الأخرى فى الحجاز ؛ ولكن الحملة بوجه عام أخفقت فى بلوغ غرضها ، وبقيت القبائل الضاربة فى الجبال التى تخترق البلاد من الشمال إلى الجنوب تدين بالطاعة للأمير سعود[٣] .

وقابل محمد على هذه الهزيمة بنزوله إلى الميدان بنفسه . فعهد بتقاليد الحكم فى الوجه القبلى إلى ابنه إبراهيم وفى الوجه البحرى إلى حسن بك . ثم سافر إلى جدة فوصلها فى سبتمبر من عام ١٨١٣ . ولم يمهل القدر سعوداً حتى يتلاقى مع الباشا الدهى شديد المحال ، بل وافاه الأجل على أثر حمى تفشت وقتئذ فى نجد . وخلفه ابنه الأكبر عبد الله وكان جنديا صادق البأس خضع له أكابر الوهابيين فى حياة سعود .

(١) البقوم من القبائل العربية الكبيرة مقرها جبل حضن وأطرافه حتى تربة والخرما وأصل البقوم من الأزد . وكانت غالية أرملة أحد مشايخ سبيع وقد هاجت بنفسها جيوش مصطفى بك فهزمتهم . (المعرب)

(٢) مذكرات عن البدو الخ الجزء الثانى ص ٢٦٩ .

(٣) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٢٧٤ ، ٢٤٩ .

وليس من السهل علينا أن نتنبأ بما كان يحدث لو تلاقى محمد على وعبد الله ؛ لـكنهما لم يتلاقيا . وذكر فلـكس منجن Felix Mengin ، الذى كان وكيل القنصل الفرنسى فى القاهرة فى أوائل حكم محمد على ، سبب رجوعه فقال إن الباشا سمع وهو فى قلب جزيرة العرب أن نابليون قد فر من منفاه فى جزيرة إلبا فرجع الباشا مسرعاً إلى القاهرة ليدافع عن مصر[١] . لـكن موريبه Mouriez وهو كاتب فرنسى آخر يكذب هذه القصة وإن لم يذكر سبباً آخر لعودة محمد على[٢] . وثم شخص ثالث هو Burckhardt الذى أقام فى بلاد العرب وحصل على الحقائق من مصدرها ، وهو يعزو رجوع الباشا الألبانى إلى أسباب لا تعلى من قدره إذ يقول :

« لم يجد طوسن أباه فى المدينة ؛ وذلك لأن محمداً عليا لما أيقن أن الموارد المادية والوسائل الحربية فى شمال الحجاز لا تبعث فى نفسه أملا فى الفوز ، استقر رأيه على أن يترك أمر الحملة نجاحها أو إخفاقها لولده ، لـكيلا يعرض ما جناه من حسن السمعة إلى النقصان »[٣]

ومهما يكن سبب نكوص الباشا ، فإن طوسن وعبد الله أيقنا أن الخير كل الخير فى أن يجنحا إلى السلم ؛ فاتفقا على أن يتخلى الوهابيون عن كل مطالبهم فى الأرض المقدسة ، على أن يترك المصريون لعبد الله كل ما استولوا عليه من مدن القصيم . وبذلك كان الصلح تراضيا بين الطرفين ، وكانت أهم شروطه ما طلبه طوسن وهو أن يرد العدو كل النفائس التى استولى عليها الأمير السابق

---

(١) منجن فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٤٨ .
(٢) موريبه فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص١٥٧ .
(٣) بركهاردت فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٣٤٧ .

سعود من الهجرة النبوية بالمدينة[١] . وإذ كانت الفئتان المتحاربتان تدينان بالإسلام ، وإن كانت كلتاهما تعد الأخرى خارجة عليه ، فإنهما لم يغب عنهما وهما توقعان شروط الصلح قول الله عز وجل فى كتابه الكريم :

« قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ »[٢]

وكان المصريون والوهابيون يعدون المعاهدة أشبه شىء بهدنة غير محدودة الأجل ، يستطيع كلاهما أن ينقضها متى أراد . لذلك لا نعجب إذا رأينا محمداً علياً وعبد الله يعدان العدة لمواصلة القتال . وكان أول ما فعله الباشا أن اختار لجيشه قائداً عاماً فى مقدوره أن يهاجم الوهابيين فى عقر دارهم ، ويطفئ جمرتهم فى قصبة ملكهم فى قلب جزيرة العرب . نعم إن هذا الزعيم الفطن قد حمل ابنه طوسن ذلك العبء الثقيل ، عبء الاتفاق مع العدو ، ولكنه حمله إياه وهو أكثر الناس علماً بالصعاب الحربية التى تعترض فتح الحجاز ؛ ولذلك حرص الحرص كله على أن يختار فى هذه المرة أليق الناس للقيام بهذه المهمة ، فعقد لهذا الغرض فى القاهرة مجلساً من كافة القواد والوزراء والضباط ورجال الحكم ؛ وذلك لأن الباشا وإن كان هو الحاكم بأمره كان رجلا دمقراطيا تسود بلاطه روح الأخوة وحب الخير . فلما أقبلوا بحشدهم وحفلهم أخذ يذكر لهم الغرض من اجتماعهم ، ويشرح لهم خططه الحربية ؛ ثم أشار إلى تفاحة ملقاة

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٣٦ .
(٢) سورة الأنفال الآيتان ٣٧ ، ٣٨ .

أمامهم وسط طنفسة كبيرة مفروشة فى أرض الحجرة ، وقال لهم : « من استطاع منكم أن يصل إلى هذه التفاحة فيتناولها بيده ثم يأتينى بها من غير أن تطأ قدمه الطنفسة ، وليته قيادة الحملة على نجد » .

وكم من أمير رطب العود استلقى على الأرض وطرح جسمه على الطنفسة وقدماه تكادان تلمسان حافتها ، ثم مد ذراعيه لكى يصل إلى الفاكهة . لكن التفاحة كانت بمنأى عنهم لا تصل إليها أيديهم ؛ وأخذ كل منهم يدبر حيلة جديدة للوصول إلى غرضه ، ولكنهم عجزوا جميعاً عن نيل مأربهم . ثم قام إبراهيم أكبر أبناء محمد على ، وكان قصير القامة ممتلئ الجسم ، فانحنى إجلالا لوالده وعرض أن يجرب حظه .

وكان دأب إبراهيم أن يكون أول من يسخر من شكله . وقيل إنه لما تقدمت به السن وثقل جسمه عيره رجل من الناس بضخامة بطنه ، فكان جوابه : « لست أجهل أن بطنى كبير ولكنه ليس مملوءاً بالطعام والشراب بل بالحذق والدهاء[1] » . فلما تقدم إبراهيم إلى والده بمطلبه فى صباح ذلك اليوم من عام ١٨١٦ سخر الحاضرون كلهم منه وأيقنوا جميعاً أنه لا محالة عاجز عن بلوغ غايته . ولكن سخرهم منه لم يلبث أن انقلب إعجاباً به ، حينما أخذ يطوى طرف الطنفسة إلى الداخل حتى أصبحت التفاحة فى متناول يده . ثم مد يده فأخذها وحملها إلى والده فولاه قيادة الجيش المصرى لساعته قبل أن يقوم من مقامه .

ويقص صبرى هذه القصة فى كتابه الموثق المسمى الإمبراطورية المصرية فى عهد محمد على[2] ، ولكنه لا يؤمن بها ؛ فى حين أن بلجريف Palgrave

(١) مصر منذ الفتح العربى فى عهد محمد على تأليف بريس دافن ، أرمن طبعة فرمن ريدو باريس ١٨٧٧ ص ٣٦ .
(٢) الإمبراطورية المصرية فى عهد محمد على والمسألة الشرقية طبعة جتنر باريس سنة ١٩٣٠ .

الإنجليزى الذى تقول عنه دائرة المعارف البريطانية إنه من اليسوعيين ، ثم أصبح من الدبلوماسيين ، والذى زار أواسط جزيرة العرب فى عام ١٨٦٢ — ١٨٦٣ ، نقول إن پلجريف يروى أن أهل نجد قصوا عليه هذه القصة ، وأنها من الأخبار المتواترة هناك . وسواء أصحت أم لم تصح فإن أمرها لايهمنا ، إلا من حيث دلالتها فى كلتا الحالين على ما كان يعتقده فى مقدرة ابراهيم أبناء أعدائه السابقين .

ولما أتم محمد على اختيار قائده العام أخذ يتحين ساعة العمل ، غير أنه لم يطل به الانتظار ؛ فإن عبد الله لم يرد النفائس التى استولى عليها سعود من الحجرة النبوية فى المدينة ، بل بلغ من أمره أن أرسل رسلاً من قبله إلى القاهرة يحملون رسالة جاء فيها :

« لم يبق لدينا شىء من النفائس التى وجدها والدنا سعود عند قبر النبى وحملها معه ، بل بيعت كلها و بددت . أما حكم البلاد فاسمحوا لنا أن نقول إن فى استطاعتكم أن ترسلوا رسولاً من قبلكم يجمع لكم الأعشار »(١) .

فأغضب هذا الرد محمداً عليًا وأجاب الرسل بقوله : « قولوا لمولا كم إنى عارف بأنه قد حصن المدن وحشد الجند وتأهب للقتال ، وليس هذا كله بخاف علىّ . فأبلغوه نصيحتى أن يأخذ حذره ، ويحتاط لنفسه ، لأنى مرسل إلى الحجاز ولدى إبراهيم لينزل ببلادكم الخراب والدمار ، و يأتى إلىّ بأهلها أمواتاً أو أحياء »

وهكذا أبدت الرغوة عن الصريح وعرف كل من صاحبه ما يبطنه له .

أما الصعاب التى كان لا بد أن يواجهها إبراهيم فتصورها حكاية الطنفسة التى قصصناها على القارئ من قبل . لقد عجز محمد على وطوسن من قبل عن الوصول إلى قلب بلاد العدو عجزاً تاماً . ولاقى الغزاة من الصعاب ما تصوره قصة پلجريف

(١) منجن فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٦٧ .

صدقت أو كذبت . وكان هم إبراهيم أن يخترق بجيشه الصحراء الواسعة التى تكتنف بلاد نجد من جميع الجهات ، والتى قال الرحالة الإنجليزى فيها : « كم من فاتح عجز عن الوصول إليها ، واضطر إلى الابتعاد عن قواعده الحربية الأمينة ، وقطع الصلة التى لابد منها بينه وبين هذه القواعد . على أن القائد إذا وصل إلى قلب الهضبة ، لا يلقى من المقاومة الجدية أكثر مما تلاقيه اليد التى تمتد لتتناول التفاحة متى وصلت إليها »(١) .

وعرف إبراهيم خطر الواجب الذى اضطلع به فأخذ يستعد له من فوره بتؤدة وأناة . وأعد والده العدة لإنشاء أسطول واف بغرضه مزود بما يلزمه من سفن النقل ؛ وجمعه فى ميناءى السويس والقصير ؛ وفيهما أيضاً حشد جيشه . ولسنا نعرف عدد هذا الجيش بالضبط لأن كل ما لدينا من الإحصاءات مضطرب لا يشفى غلة الباحث ؛ وكل ما نستطيع أن نثبته ونتقين أن إعداد الحملة قد استلزم ستة شهور كاملة ، وأن الوالى ضم إلى أركان حرب إبراهيم المسيو ڤاسير Yassière وهو فرنسى خدم فى جيش نابليون ، وأن الفرقة الطبية كان قوامها أربعة من الإيطاليين هم اسكوتو Scoto وچنتيلى Gentili وتوديسكينى Todeschini وششيو Socio(٢) .

أما عبد الله فقد عرف من جواب رسله أن الحرب آتية لا ريب فيها ؛ فبادر بإرسال أحد عيونه إلى مصر يستطلع طلعها ليكون على علم باستعداد عدوه الحربى . فلما عاد ربيئته إلى نجد عقد عبد الله مجلساً عاماً وأمر الرسول أن يقص على القوم ما رأى ، وهاك ما حدث منقولاً عن بلجريف :

(١) كتاب بلجريف السالف الذكر الجزء الثانى ص ٤٨ .
(٢) موريبه فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ١٨٦ .

« وكان الرجل البائس قد انطبع فى خياله البدوى ما رآه من قوة مصر الحربية وجيوشها الجرارة ، وما شاهده فيها من أبهة ونظام ؛ فأخذ يصف لمواطنيه ماهاله من قوة الباشا وكثرة جمعه ومدافعه وفيالقه وركبانه ومشاته وكل ما أعده لغزو نجد ؛ فذعر القوم وامتقع لونهم . فلما رأى ذلك عبد الله قطع عليه قوله وأمر بهذا المحدث الذى تجاوز الحد فى صدقه ، فسيق إلى النطع حيث ضربت عنقه لساعته جزاء له على وهنه قوة المسلمين »(١) .

ولم تغفل أم إبراهيم عن تقوية قلب ولدها ؛ ولكنها لم تلجأ إلى مثل ما لجأ إليه عبد الله من الصرامة ، بل أخذت تدعو الله أن يجعل النجاح حليفه . ولما هم بتوديعها فى اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٨١٦ ، عانقته وناطت برقبته عقدا من الجوهر ، وسألته أن لا ينزعه من عنقه ليلاً ولا نهارًا حتى يهديه إلى الضريح الشريف . فوعدها إبراهيم أن يعمل برغبتها ، وأقسم أن لا يحلق رأسه حتى تضمه إلى صدرها بعد أن يعود إليها ظافرا(٢) .

وأبحر الحاج المجاهد من ميناء القصير فى الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٨١٦ . وبعد ستة أيام من هذا التاريخ ألقت سفائنه مراسيها فى ميناء ينبع . وما كاد يدخل المدينة المنورة فى اليوم التاسع من شهر أكتوبر حتى أسرع إلى قبر المصطفى ووقف أمامه خاشعاً ، ثم وضع عليه العقد الذى أهدته إليه أمه . ولشد ما سر بهذه الهدية الثمينة شيخ الحرم وهو أغا حالك السواد ، فبسط كفيه إلى السماء ودعا الله جهرة قائلا :

« أيها النبى الكريم : هاهو إبراهيم باشا ابن محمد على قد خر ساجداً

(١) كتاب بلجريف السالف الذكر الجزء الثانى ص ٤٩ .
(٢) منجن فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٧٨ .

أمامك ؛ وقد قدم إلى ديارنا ليهلك أعداء دينك فأيده اللهم بنصرك وهبه القدرة على تأييد شرعك ونصرة كتابك المقدس وتمزيق شمل العصاة الوهابيين »[١].

وأكمل القائد الشاب هذا الدعاء بقوله : « أيها النبي الكريم ! لقد أعانني الله أنا إبراهيم بن محمد على باشا على استرجاع البلدين المقدسين مكة والمدينة ، وجئت ضريحك الشريف ضارعاً متوسلاً أطلب المعونة فيما أنا مقدم عليه من الحرب والكفاح . فاجعل اللهم النصر حليفي ، ووفقني إلى معرفة مقاصد العصاة ، فإن أعدائي هم أعداؤك . وأعني على تمزيق شملهم وتشتيت جموعهم فإني لن أدخل سيفي في غمده حتى أفرق جمعهم »[٢].

ثم تملكت إبراهيم روح الحماس الديني فأقسم أن يعتق جميع من ملكت يمينه من الأرقاء بيضاً أو سوداً — وإن لم يكن في مقدوره بطبيعة الحال أن يرد إلى الأغا المسكين ما فقده . ونذر أن لا يذوق طعم الخمر من ذلك الحين . ويقال إنه عمد إلى زجاجات النبيذ التي كانت في مخازن ميرته فألقى بها في النار[٣]. على أن هذه الغيرة الدينية لم تقلل من صرامة النظام الذي كان سائداً في الجيش المصري ، فقد كان الإعدام جزاء كل من يعصى أمره . وعرف العرب منه ذلك فأدركوا أنه إذا كان يقسو كذلك على رجاله ، فسيكون أشد قسوة عليهم ، فاستولى الرعب على قلوب الضعفاء منهم .

ورأى عبد الله أن من الحكمة أن يسعى إلى استرضاء إبراهيم وإن لم يكن

(١) كان بودنا أن ننقل إلى القراء نص دعاء شيخ الحرم وإبراهيم ولكن بلجريف قد أخذه عن البدو في شبه الجزيرة وكتبه بالإنجليزية فاضطررنا لترجمته عنه واستبدلنا لفظ الجلالة في آخره باسم النبي صلى الله عليه وسلم كما هي عادة المسلمين في الدعاء .

(٢) بلجريف الجزء الثاني ص ٣٠ .

(٣) مصر في القرن التاسع عشر تأليف إدورد جون طبعة بول بوازارد ص ٢٧٦ .

بطبيعته رعديداً خوار العود ؛ فقرر أن يرسل من قبله رسولا يفاوض إبراهيم فى شروط الصلح ؛ ولكنه لم يجد ذلك الرسول لأن الناس كلهم تذكروا ما حل بالجاسوس الأول . وفى آخر الأمر تقدم أحد الشيوخ وعرض أن يقوم بالمهمة مشترطا أن يسمح له بقراءة الرسالة التى سوف يحملها . وكان عبد الله قد كتب إلى إبراهيم على ورقة قذرة سمراء رسالة قصيرة خالية من كل معانى المجاملة ، ملؤها الازدراء والتحقير ؛ فكانت لذلك أبعد الأشياء عن الوثائق الدبلوماسية التى تتطلبها هذه الظروف . فلما قرأها الشيخ التفت إلى رئيسه وقال :

« إننى إذا حملت هذه الرسالة كنت كالساعى إلى حتفه بظلفه . فإذا شئت أن أذهب فأذن لى أن أكتب الرسالة باسمك و إلا فاعفنى من الذهاب » .

فرضى بذلك عبد الله وكتب الشيخ رسالة تنم عن كفاية وحنكة سياسية وختمها الزعيم الوهابى بعد طول تردد . فلما استقبل إبراهيم الرسول خاطبه بلهجته القاهرية التى لم تفارقه طول حياته :

« ماذا جئت لنا أيها الرجل من سيدك النجدى . . . » فقدم الرجل إلى إبراهيم رسالته ؛ فألقى عليها نظرة سريعة ثم ضحك بأعلى صوته ساخراً مستهزئاً ، والتفت إلى أحد أتباعه وقال له : « ياغلام هات الخطاب الذى أتى به إلىّ منذ أربعة أيام سعدون ... القادم بخطب ودنا » فجئ له بالخطاب وإذا به رسالة كتبها سعدون ومعها خطاب مرسل إليه من عبد الله يقول فيه : « لا يغرنك عير مصر ونهيقه فإنه لا يملك لك نفعاً ولا ضرا »

وبعد ذلك قال إبراهيم : « هاك ما يكتبه مولاك عنى إلى أصدقائه » ثم أشار إلى الرسالة اللطيفة التى كانت ملقاة أمامه على الأرض وقال : « وهاك ما يكتبه إلىّ — قل لهذا . . . إنى سآتيه بالجواب بنفسى فى الدرعية . والآن

اذهب من أمامى وخذ معك هداياك ؛ ولو لم تكن رسولاً لأمرت بضرب عنقك » .

ورأى النجدى أن لا سبيل إلى الملاينة أو الاعتذار فلم يحاول شيئاً منهما ، بل عاد مسرعاً إلى عبد الله وفكر وهو فى الطريق فى الخطة التى يسلكها . وكان يعرف أنه إذا أخبره بحقيقة ما حصل له كان جزاؤه القتل لا محالة : فباع فرسه وما كان معه من هدايا الصلح بثمن غال ؛ ولما بعد عن معسكر إبراهيم اشترى بالمال اثنى عشر عبداً نوبيا ألبسهم لباساً حسناً ، وسار بهم إلى داخل البلاد ، وأخذ يذيع أينما حل أنهم هدايا من الباشا إلى أمير نجد عربوناً للاتفاق والصداقة .

ووصل الشيخ إلى الدرعية والمؤذن يدعو المؤمنين إلى صلاة المغرب . وأقبل على عبد الله وهو بين أكابر قومه ، ورأوا بأعينهم الرسول وحاشيته الفخمة ، فلم يشكوا فى أن إبراهيم يلتمس الصلح . ولما فرغ الشيخ من حديثه ، وعلت أصوات أهل المدينة بالتهليل والتكبير ، قال عبد الله : « والآن فلنطلع على كتاب ذلك المارق » فأجابه الرسول كما يقول بلجريف : « إن الخطاب يحتوى على أمور لا تصح تلاوتها إلا فى مجلس خاص ؛ وتوسل إلى عبد الله أن يؤجل قراءة الرسالة حتى يعقد ذلك المجلس . فرضى بذلك عبد الله كارهاً ، واستصحب الرسول إلى قصره يحيط به وزراؤه وخواص حاشيته ومن خلفهم العبيد » .

ثم يقول نفس المؤلف بعد ذلك : « فلما احتواه الديوان طلب عبد الله الخطاب مرة أخرى ؛ ولكن الرسول المخادع الفطن رد عليه بقوله : إن الخطاب يحوى أسراراً خاصة لا يصح أن تراها غير عينيك أو تسمعها غير أذنيك ؛ فدهش عبد الله وأمر رجاله بالانصراف . فلما انفرد الرسول بسيده ورأى أن لا مفر من إطلاعه على جلية الأمر قال له : لن تلق جواباً على مقترحاتك إلا ما سيأتيك به إبراهيم باشا بنفسه فى الدرعية ؛ فإذا كنت رجلاً حقا فأعد له ما استطعت من

قوة : . ثم أخذ يصف إلى عبد الله كل ما رآه وسمعه ، واعتذر له عما اضطر إليه من خداعه ساعة من الزمن لـكيلا يثبط همم أتباعه ويروعهم بتنبيههم إلى خطر وصول العدو إلى عاصمتهم . وختم حديثه بقوله : لـكن الخطر داهم وستضطر إلى خوض غمار الحرب فى أرض نجد نفسها » .

هذه القصة قد سمعها بلجريف فى المكان الذى قصها فيه الشيخ ، ومن أفواه أناس يجزمون بصحتها وإن كان قد مضى على وقوعها عشرات السنين . ويؤكد هذا الكاتب أن الشيخ لم يمسه سوء ، وذلك لأن عبد الله لم يكن بالأخرق ولا بالجبان ، فصرف همه إلى حشد جيوشه ، وأخذ ينتظر عدوه عند رؤوس الطرق النجدية المؤدية إلى داخل البلاد .

الفصل الثالث

عبد الله بن سعود

لقد أظهر عبد الله منتهى الحكمة والسداد حينما استقر رأيه على انتظار إبراهيم فى دياره ؛ فبهذه الخطة يستطيع جنوده وهم فى أرضهم ، محتفظون بنشاطهم واتحادهم ، أن يحاربوا عدوهم بعيدا عن قواعد تموينه . وكان الأساس الذى قامت عليه هذه الخطة أن الجيوش المصرية عندما تصل إلى مكان الموقعة الفاصلة ستكون منهوكة القوى من سيرها الشاق الطويل فى الصحراء بين القبائل المعادية ، وأن الغزاة سيحل بهم النصب والضعف من هجمات القبائل الضاربة فى البلاد الواقعة فى طريقهم .

ولا عيب فى رأى عبد الله إلا أنه أغفل الجانب الشخصى فى أعدائه . ويلوح أن أحدا لم يقص عليه قصة إبراهيم والطنفسة والتفاحة . ولو أن الزعيم النجدى سمع بهذه القصة وفكر فيما تنطوى عليه من المعنى ، لأيقن أن ابن محمد على سيطوى بساط الجزيرة طى الطنفسة . وهذا هو ما فعله القائد المصرى بالضبط ؛ فقد نفذ هذه الخطة بسيره فى الوادى الطويل المؤدى من مكة إلى نجد ، فسلم بذلك من سكان الإقليم المعروف بوادى الدواسر المتعصبين . ولم يتبعه فى سيره عدو ، ولم يكن يخشى إلا البدو الرحل وأهل القرى المبعثرة فى الطريق ، وهم قوم ليس بأيديهم من السلاح إلى القليل ؛ وإلى هذا فقد ضمن حاجته من الماء[1] .

ولم يكن يخفى على إبراهيم أن نجاح الحملة موقوف على ولاء القبائل التى

(١) بلجريف فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٥٣ وما بعدها .

سيخترق بلادها . نعم إنهم لم تكن لهم قوة يعتد بها ، لكنه كان فى حاجة إلى ولائهم ؛ ولم يكن يصعب عليه أن يحصدهم حصاد الهشيم ، ولكن معونتهم هى التى كان يحتاج إليها لتخفيف مشاق الطريق . ولذلك حرص على أن يظهر لهذه القبائل أنه لم يأت إليهم فاتحا بل صديقا مسالما . وهاك ما وصف به بلجريف سيره :

« كل دلو من الماء قدمها إلى جيشه البدو أو الحضر ، وكل تمرة جمعها الجنود ، وكل حطبة أوقدوها ، دفع ثمنها وأكثر من ثمنها على الفور ؛ وحرم على الجنود والضباط على السواء أن يؤذوا الأهالى العزل غير المحاربين ، أو يسيئوا إليهم أقل إساءة ؛ ونفذ ذلك التحريم بشدة وصرامة ، فأخذت القرى والقبائل تتسابق فى تقديم الطاعة والخضوع للمصريين . . . إلا أقلية ضئيلة ظلت ممتنعة عن أن تستبدل بحكم « المسلمين » سيادة « غير مصر » . وحتى هؤلاء لم يقس إبراهيم عليهم ، بل أظهر الرأفة بهم عن قصد وتدبير ، فلم يسئ إليهم بأكثر من إرغامهم على أن يجلوا عن مساكنهم ، ويسبقوه إلى أواسط نجد « ليزيد بهم جيش المؤمنين » كما قال هو باستهزاء لاذع . وكان غرضه الحقيقى أن يستنفد هذا الهوش الخليط العديم النفع موارد عبد الله ويوهن قوته[1] » .

ولسنا نقصد بهذا أن قلب إبراهيم كان يفيض حناناً ورأفة ؛ بل كل ما نعنيه أنه كان يطوى بساط الجزيرة ، وأنه كان يرى من مصلحته الحربية أن يضم هذه العناصر المختلفة إلى جانبه . وقد نجح فى هذه الخطة نجاحاً جعل مقام عبد الله فى بلاده يعود عليه بأوخم العواقب . على أن إبراهيم لم يجد الأمور أمامه سهلة مذللة ، بل لاقى صعاباً جمة قبل أن يستطيع بسط سيادته الكاملة على هذه الأرجاء .

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٥٤ .

وحمى وطيس القتال حول الرّس[١] وضيق إبراهيم الخناق على حصنها ، وخسر فى هذا الحصار ثلاثة آلاف من رجاله . ولما تبين له أن الحصن لا بد واقع فى يده ، أرسل إلى عبد الله يطلب إليه تسليمه ؛ فأجابه الأمير النجدى بقوله : « تعال فخذه » . فقبل إبراهيم هذا التحدى ، وهجم عليه هجمة صادقة لم تستطع حاميته أن تردها . ولما دخل إبراهيم المدينة ، لم يجد أعداءه فيها ، لأن العرب أخلوها كما أخلى الروس اسملنسك Smolensk[٢] من قبل . وأسرع عبد الله إلى عاصمته الدرعية كما أسرع الروس إلى مسكو . و بين الدرعية والرس ثمانمائة كيلو متر ، والطريق إليها يباب بلقع[٣] .

وكان علم إبراهيم بخفايا رمال الصحراء العربية أكثر من علم نابليون بأسرار ثلوج الروسيا . وقابلته بلدة عنيزة[٤] بالترحاب ، فحصنها ليجعلها نقطة ارتكاز له إذا ما اضطر إلى التقهقر . ثم انثنى إلى بريدة[٥] فقاومته ، فاقتحم أسوارها وفتك بحاميتها المؤلفة من مائتى مقاتل . وسقطت المذنب[٦] فى أيدى المصريين فى الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٨١٧ . و بلغ الشقراء[٧] فى الثالث والعشرين

(١) الرس فى القسم الجنوبى من القصيم يبلغ عدد سكانها نحو ٤٠٠٠ نفس تحيط بها البساتين ولها مزارع واسعة فى بطن وادى الرمة . (المعرب)

(٢) يشبه المؤلف زحف إبراهيم بزحف نابليون على مسكو وخطة الوهابيين بخطة الروس . (المعرب)

(٣) تكوين الإمبراطورية المصرية فى عهد محمد على من بلاد العرب إلى السودان (١٨١٤ — ١٨٢٣) لإدورد دريو طبعة الجمعية الجغرافية الملكية ١٩٢٧ ص ٢٨ من المقدمة .

(٤) تقع عنيزة إلى يمين وادى الرمة على بعد ميلين منه فى مكان خصيب وهى تنافس بريدة فى الأهمية . (المعرب)

(٥) تقع بريدة فى الطرف الشمالى من القصيم العليا على الجانب الأيسر من وادى الرمة وهى من أكبر المدن النجدية وأحسنها نظاماً . (المعرب)

(٦) فى منتصف الطريق بين الشقراء والقصيم وهى جملة قرى آهلة بالسكان منضم بعضها إلى بعض يبلغ سكانها نحو ٢٥٠٠ نفس . (المعرب)

(٧) الشقراء فى الجهة الجنوبية الشرقية من وادى الدواسر كان لها فى القرن الماضى مكانة تجارية عظيمة . (المعرب)

من يناير سنة ١٨١٨ . فلما سلمت أصبح الطريق الموصل إلى الدرعية ممهداً أمام الغزاة الفاتحين . وأقام إبراهيم فى هذه المحلة مستشفى ترك فيه كل من لم يقو على السير حتى يستعيد قواه .

ثم زحف على ضرمة [1] التى تبعد عن الدرعية مائة كيلو متر . فلما وصلها أصبحت عاصمة الوهابيين منه قاب قوسين أو أدنى . وقد أتم تطويقها فى اليوم السادس من إبريل عام ١٨١٨ .

وبعد أن استمر الحصار عدة أسابيع ، هبت فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يونيه عاصفة رملية اقتلعت خيام المصريين ، وحملت معها جذوة نار من معسكر الغزاة وألقتها فى مستودع ذخائرهم ، فاتصلت النيران بالذخائر ونسفت مائتى برميل من البارود ومائتين وثمانين صندوقاً من الخرطوش ، والتهمت الخيام وامتدت ألسنة اللهب فى لمح البصر إلى المدينة . ولاح ساعة من الزمان أن الأقدار ستجعل من الدرعية مسكو أخرى فى آسيا . وأراد إبراهيم أن يستفيد من هذه الكارثة فيأخذ العدو على غرة ، كما حاول عبد الله أن ينتفع بالاضطراب الذى وقع فى معسكر المصريين فيخرج إليهم ويهاجمهم ؛ فأخفق كلاهما فى مقصده ثم تغير اتجاه الريح فخمدت النيران [2] .

وآذت العاصفة الرملية عينى إبراهيم . ولسنا نعلم علم اليقين أ كان القائد المصرى مصاباً بالرمد وهو فى القاهرة أم كان سليما منه ، لأن الرمد من الأمراض المنتشرة فى مصر الآن . وكل الذى نعرفه أن العاصفة الرملية الهوجاء ، ولهيب النار التى شبت فى المعسكر ، أثرا أسوأ الأثر فى الالتهاب الذى كان يشكو

(١) ضرمة وينطقها النجديون أضرما من بلاد العارض أحد أقسام نجد الإدارية وهى الآن تابعة لإمارة الرياض . (المعرب)

(٢) تكوين الإمبراطورية المصرية ص ٣٢ من المقدمة .

منه ، حتى اضطره ذلك إلى أن يبقى مغمض العينين ثمانية أيام كاملة .

ولو كان إبراهيم رجلاً عادياً لما استطاع أن يبلغ بجيشه الدرعية ؛ وذلك لأن الرمد لا يقتصر ضرره الوخيم على العينين بل يتعداهما إلى الأعصاب فيمزقها تمزيقا . لذلك كان وصوله إلى هذا البلد أكبر دليل على مهارته وجلده .

ثم استخف بالرمد وحمل على المدينة فى الرابع من سبتمبر حملة صادقة ، أرغمت عبد الله على طلب الصلح . وطلب الأمير الوهابى إلى إبراهيم أن يعفو عن أهله وجنوده ، و يؤمنهم على حياتهم ، وأن لا تخرب عاصمته ، وأن يخرج هو سالما [١] ؛ ولكن القائد المظفر لم يقبل هـذه الشروط ؛ وفى التاسع من سبتمبر سلم عبد الله نهائيا [٢] . وكان هم إبراهيم الأول أن يقبض على عبد الله و بقية الزعماء . ثم تفرق الجند فى المدينة يسلبون و ينهبون ، غير أن ذلك لم يدم أكثر من بضع ساعات ، منعهم إبراهيم فى أثنائهـا من ارتكاب أى عمل من أعمال القسوة . فلما سكن الاضطراب جىء بالأمير المغلوب وأفراد أسرته أمام القائد المنتصر ، والتفت إبراهيم إلى عبد الله وقال له :

« إنى خادم سلطان الآستانة وله وحده أن يتصرف فى أمرك ؛ أما أنا فلا أملك هـذا الحق . وستسافر معى إلى مصر لتنتظر فيهـا أمر السلطان ، وستكون فيها موضع الإجلال والتعظيم ، حتى إذا جاءت تلك الأوامر وجبت عليك إطاعتها » ، فلم يزد عبد الله على أن تمثل بآية من القرآن الكريم . وعامل إبراهيم باقى الأسرى مثل هـذه المعاملة الطيبة . . . فلم يقتل منهم أحدا

(١) قصة حروب إبراهيم باشا ضد الوهابيين تأليف ن . برن طبعة رتو وشركاه بباريس ١٨٣٣ ص ٢١ .

(٢) كتاب دريو السالف الذكر ص ٣٣ من المقدمة .

ولم يقس على أحد طوال المدة التى أقامها فى نجد[(١)] .

وخليق بنا أن نلفت نظر القارئ إلى هذه الفقرة المنقولة عن بلجريف ؛ وهى وإن لم تكن قد كتبت وقت وقوع هذه الحادثات فإنها شهادة رجل حصل على معلوماته فى مكان وقوعها ومن أفواه أبناء أعداء إبراهيم . ولهذا أهميته فإن المحاربين قد يعفون عن الفاتحين ، أما النساء وغير المحاربين من الرجال وذريتهم فقلما يغفرون لهم ذنباً . ولذلك لا يمكن أن نتهم بالمغالاة إذا قلنا إن إبراهيم أكرم الوهابيين وعاملهم بمنتهى التسامح . ومع هذا فإن موريه Mouriez الذى كتب كتابه فى نفس الوقت الذى كتب فيه بلجريف تقريباً ، والذى لم يستق معلوماته من بلاد العرب نفسها ، يشير فى كتابه إلى غرائز القائد المصرى الدموية[(٢)] ، ولا يختلف عنه منجن Mengin الذى عاش فى مصر عدة سنين كما قلنا من قبل ، ونشر تاريخه فى عام ١٨٢٣ ، إذ يقول إن إبراهيم فى حصار الرس أمر أن تقلع أسنان رسول من رسل العدو لأنه أساء الأدب ، وإنه أمر برجل آخر من أعدائه فوضع أمام فوهة المدفع فأطار أشلاءه بعد أن ألهب جلده بالسياط[(٣)] .

وكذلك يفعل الجبرتى وهو مؤرخ معاصر إذ يحمل على إبراهيم حملة منكرة ويصفه بالقسوة الشديدة حينما كان يجمع الضرائب فى الوجه القبلى .

ويصوره بريس دافن Prisse D'Avennes ، أرمن Harmont بصورة المستبد الغاشم السفاح[(٤)] . وكلا الرجلين يعرف مصر حق المعرفة فى العهد الأخير

(١) بلجريف فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٥٧ ، وأرسل عبد الله إلى القاهرة ثم نقل منها إلى الآستانة وسلم للسلطان فأمر بقطع رأسه .
(٢) موريه فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ١٨٥ .
(٣) منجن فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ١٣٦ .
(٤) فى كتابيهما السالف الذكر ص ٤٠ .

من حكم محمد على . غير أن أحد الرجلين باحث أثرى حقود ، والثانى طبيب بيطرى قد وصفه مواطنه جان — مرى كريه Jean - Marie Carre الشهير بما يشين سمعته[١] . ولا يختلف عنهما فى الحكم على إبراهيم باشا جسكيه Gisquet ، وهو فرنسى آخر زار مصر فى عام ١٨٤٤ وشعر بعد زيارته أن من واجبه أن يبادر بالكتابة عنها[٢] . وهناك غير هؤلاء كتاب آخرون ينحون هذا النحو ، ولكنهم فى وصفهم لا يذكرون إلا كلاماً عاما ، ويستنكفون أن يذكروا تفاصيل التهم التى يعزونها إلى إبراهيم . وقصارى القول أنه يلوح للقارئ أن الإجماع يكاد ينعقد على وصف إبراهيم بالشدة ، ولكننا مع ذلك نرى أن نظرة بلجريف إليه نظرة معقولة تدعو إلى الاعتقاد بصحة الحقائق التى يذكرها عنه .

وفضلاً عن هذا فإن إبراهيم كان يسير فى عمله سيراً تمليه عليه الحكمة وحسن التدبير . فلقد كان رجل حرب وحكم فى آن واحد ؛ رأى أن من مصلحته أن يستعين على حكم البلاد بأمرائها الأقدمين ، ولكنه رأى أيضاً أن لا نجاح لحكمه إلا إذا قضى على تعصب الوهابيين . وأكبر ظننا أن منشأ التهم الشديدة التى يتهمه بها المؤرخون هو فتكه بأولئك القوم ، لأنه كان يرى أن عقائدهم ومبادئهم الدينية تتعارض مع سيادة القانون والنظام ، ولذلك أخذ يعمل للقضاء على هذه العقائد الزائفة فى نظره ، وعلى ما تسببه فى البلاد من قلق واضطراب . وقد تكون الضرورة السياسية لا القسوة والصرامة هى التى ألجأته إلى هذا العمل .

ولنعد بعد ذلك إلى قصتنا فنقول : إن إبراهيم بعد أن أذن لأمراء البيت السعودى بالانصراف ، وأمر أن تشدد عليهم الرقابة مع معاملتهم بما يليق بمقامهم

(١) السياح والكتاب الفرنسيون فى مصر تأليف جان مرى كريه طبعة معهد الآثار الفرنسى الشرقى بالقاهرة ١٩٣٢ الجزء الأول ص ٢٩٠ .
(٢) مصر والأتراك والعرب تأليف م . جسكيه طبعة أميو بباريس الجزء الثانى ص ٩٤ .

من الإجلال ، استدعى إليه رجال الدين والفقهاء الوهابيين . فلما مثلوا بين يديه ، وكان عددهم خمسمائة ، قال لهم إنه يريد أن يمحو أسباب الخلاف المستحكم بين عقائدهم وعقائد سائر أهل السنة من المسلمين ، وإنه قد أحضر معه من القاهرة جماعة من أكابر العلماء السنيين ، وإنه يود أن يجمع أنصار المذهبين فى المسجد الجامع بالدرعية ليبحثوا الأمر أمامه .

فاجتمعت الطائفتان طوعاً لأمره ، وظل خطباؤهم ثلاثة أيام كاملة يتناقشون ويظهرون الفروق الدقيقة بين المذهبين ، وأتباعهم فى هذه الأثناء يتيهون بهم عجباً . وظل إبراهيم طوال هذه المدة يصغى إليهم ، لا يطرق برأسه ولا يأخذ السكرى بمعقد جفنه . ولو تمثل الصبر والنزاهة شخصاً لكان هو بعينه فإنه لم يقاطع خطيباً ؛ بل لم يرفع صوته لينبه المتناظرين إلى حفظ النظام ، وذلك لأن وجوده فى حد ذاته كان يكفى لأن يسود المجلس السكون التام ، وأن تسرى فى المناظرة روح الحرية والأدب . ولما حل اليوم الرابع أقفل إبراهيم باب الجدل ، بأن سأل شيخ الفقهاء الوهابيين هذا السؤال :

« هل تؤمن بأن الله واحد وأن الدين الصحيح واحد وهو دينكم ؟ » .

فأجابه الشيخ : « نعم » فرد عليه إبراهيم بلهجته القاهرية قائلا :

« وما رأيك فى الجنة أيها الخنزير وما عرضها ؟ » .

ولم يكن أمام الشيخ الوهابى بطبيعة الحال إلا جواب واحد مستمد من قول الله (عز وجل) وهو أن عرضها كعرض السموات والأرض وأنها أعدت للمتقين منذ خلق الله الخلق . فأجابه إبراهيم : « إذا كان عرضها السموات والأرض كما تقول ، وإذا وسعتك أنت وأمثالك رحمة الله فدخلتم الجنة ، ألا تكفى شجرة واحدة من أشجارها لأن تظللكم جميعاً ؟ فلمن إذن بقية الدار ؟ أسألك الجواب » .

فسكت الشيخ وأتباعه وما أحاروا جواباً . فلما تبين لإبراهيم ذلك قطع عليهم صمتهم والتفت إلى جنوده وقال لهم : « عليكم بهؤلاء الناس فارموا رقابهم » « فلم تمض إلا دقائق معدودة » ، كما يقول بلجريف ، «حتى كان مسجد الدرعية مقبرة للقتلى من فقهاء الوهابيين[1] » .

يلوح لأول وهلة أن هذه الحادثة تؤيد رأى القائلين بأن إبراهيم كان مستبداً غاشماً يسر لرؤية الدم المهراق ؛ ولكن الواجب علينا أن ننظر إليها هى وأمثالها من حيث علاقتها بالحالة العامة . ثم ننظر إلى قول بلجريف بعد هذه الرواية :

« و بعد أن أذاق إبراهيم أهل الدرعية حلوه ومره ، شرع فى ذلك العمل الذى لا يضارعه فيه غيره ، إذا لم نقل الذى لم يأته أحد من قبله ولا من بعده فى بلاد الشرق ، ألا وهو تنظيم البلاد المفتوحة ؛ فأخذ يطوف بنفسه فى البلاد المجاورة متبعاً نفس السياسة التى اتبعها أثناء زحفه من مكة وفى أثناء مقامه فى الدرعية ، سياسة اللين والمسالمة مع رؤساء القبائل وعامة الشعب ، وسياسة الشدة المؤدية إلى أغراضه نحو المتشبثين المتعنتين من رجال الدين ، مسترشداً فى عمله بقواعد النظام والرق والعدل نحو جميع السكان ، ومؤدياً كل ما يحق لهم من المال .

ثم يقول الرحالة الدبلوماسى البريطانى بعد هذا التفصيل :

« يجب أن يعرف القراء أنى لا أطرى الباشا العظيم أو أنظم له عقود المدح الخيالى ؛ بل أردد ما خبرنى به النجديون سكان البلاد المفتوحة . غير أن شيئاً واحداً أستطيع أن أثبته بالدليل القاطع ، لأنى شاهدت بعينى آثاره الدائمة ؛ وذلك أن إبراهيم قد عنى عناية خاصة بمعرفة المواقع الحربية الهامة فى البلاد وتحصينها ، وأنه فى الوقت عينه وضع أساس الإصلاح الزراعى ، فأمر بحفر الآبار

(١) بلجريف فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٥٩ .

فى الأماكن الجدباء التى ظن فيها ماء »[(١)]

وثمة أمر آخر يجب أن لا نغفل عنه إذا أردنا أن نصدر حكما صحيحاً على هؤلاء الفقهاء الذين فتك بهم إبراهيم . ذلك أنه بعمله هذا قد أنقذ الإسلام من هذه الفئة المفرطة فى الصلابة الدينية [(٢)] . ولسنا نقصد بذلك أنه قضى قضاء تاما على الحنابلة السنيين ، وإنما نعنى أنه حال بين تفرق المسلمين السنيين شيعاً متنافرة ، وصان وحدة المسلمين غير الشيعيين من التصدع . فكان عمله هذا فى نظر المسلمين الصادقين خيراً وإحساناً .

ولم يصدر إبراهيم فى عمله عن عجلة ، بل أقدم عليه بعد روية وتدبير . فقد كان يشعر أنه أنقذ دين آبائه وأجداده ، ويعتقد أنه وضع أساس دولة عربية إسلامية عظيمة قلبها النابض مصر . ولم يكن كأبيه يرى فتح بلاد العرب مجرد حادث عارض فى حياته ، بل كان يعده عملا مقصوداً لذاته . وهذا الاختلاف البسيط الظاهرى بين رأى محمد على وابنه إبراهيم فى هذه النقطة ، هو صورة مصغرة لمشربى الرجلين اللذين يتباينان تبايناً يتجلى من حين إلى حين فى هذه القصة . غير أن ما كان بينهما من المواطف الصادقة لم يطرأ عليه شىء من الجفاء أو الفتور ؛ بل كان إبراهيم طول حياته يجل أباه ويعظمه . ولقد كان الإخلاص والكياسة هما العاملين اللذين منعا ذينك العقلين الكبيرين من أن يتسرب إليهما شىء من التباغض أو التصادم .

ولم يكن تأسيس الدولة العربية الإسلامية هو العامل الوحيد الذى دعا إبراهيم إلى الاهتمام بفتح بلاد العرب ؛ بل كان هناك عامل ثان زاد فى اهتمامه بهذا

(١) بلجريف الجزء الثانى ص ٥٩ .
(٢) هذا هو رأى المؤلف وهو ما لا نوافقه عليه .

الفتح . ذلك أنه جاء فى حداثة سنه إلى مصر ، وهى بلاد عربية اللغة ، وأتقن لهجة أهل القاهرة ، وأحب الشعب المصرى حبا صادقاً ، ووجد العقلية المصرية أشد ليناً ومرونة وأكثر قابلية للتأثر من العقلية التركية الجامدة . وكان يميل إلى الاختلاط بالجنود المصريين ويمزح معهم ولا ينفك يمدح أصلهم ويوازن بينهم وبين الترك الأغبياء .

ويحكى أن مصريا سأله مرة كيف يقول ذلك عن الأتراك وهو منهم فأجابه : « لقد جئت إلى مصر طفلا ، فغيرت شمس مصر دمى وبدلته دماً مصريا خالصاً »[1] .

أما محمد على فكان ينظر إلى المصريين نظرة أخرى . كان يرى أنهم أقل من الأتراك شأناً وأنهم يجب أن يعاملوا على هذا الاعتبار ، وما أحسن ما وصفه به ددول Dodwell حين قال :

« إنه كان يتردد بين غرضين سياسيين عظيمين ، أحدهما الاستقلال السياسى ، وثانيهما إصلاح شأن الدولة التركية ، فتارة يميل إلى هذا وطورا يميل إلى ذاك »[2] . وقد بلغ من احتقاره لأبناء العرب أن المناصب الرسمية الرئيسية فى أيامه كادت تكون كلها وقفاً على الأتراك ، إذا استثنينا المناصب التى كان يشغلها المسيحيون . والحق أن محمداً عليًا وهو جالس على عرش مصر لم يكن يسمح فى معظم الأحيان بأن ترسل رسالة إلى أحد من أولى الأمر على يد خادم مصرى ، وقد قرر هذه الحقيقة جون بوربج John Bowring فى « تقرير عن مصر وكنديه مرفوع إلى وزير خارجية جلالة الملكة » فى عام ١٨٤٠ . وكان أصغر رجل

(١) ددول ص ٢٥٧ .
(٢) المصدر عينه ص ٥٥٦ .

يتكلم اللغة التركية ، يعد بطبيعته من طبقة أرقى من طبقة السكان الأصليين(١) .

وقد نشأ محمد على فى بيئة إسلامية جملته ينظر إلى القومية والدين كأنهما لفظان مترادفان . وكان مشبعاً بفكرة « الأمة الإسلامية » أى أنه كان يعد المسلمين جميعاً إخوة ، يتكون منهم كلهم مجتمع سياسى واحد . فكان رغم سعيه فى أن يستقل عن الباب العالى تشمئز نفسه إذا فكر فى انفصال مصر عن الوحدة الحكومية التركية . وكان يتملكه شعور غامض بأنه لا يستطيع أن يخالف السلطان فى رياسة العالم الإسلامى . وهذا التردد الذى كان يبعثه فى نفسه ذلك الموقف المضطرب هو الذى جعل خططه السياسية غامضة تستغلق على الفهم .

ومن الصعب على الإنسان أن يعرف كيف وفق إبراهيم بين فكرة وجود دولة عربية قطب دائرتها مدينة القاهرة ، وبين المحافظة على كيان الدولة العثمانية ؛ ثم بين وجود هذه الدولة العربية وبين العقيدة التى يدين بها المسلمون الصادقو الإيمان ، وهى أن الدين والقومية لفظان مترادفان ، وأن وحدة الدولة نتيجة لازمة للوحدانية الإلهية . وأكبر ظننا أن إبراهيم لم يفكر فى المسألة تفكيرا جديا . فأما أنه كان يرجو من صميم قلبه أن يعيد الخلافة العربية إلى الوجود فذلك أمر لا شك فيه(٢) ؛ وأما أنه قد وضع الخطط وهيأ الوسائل التى تؤدى إلى تحقيق رغبته فأمر مشكوك فيه كل الشك . على أن الذى يهمنا فى هذه القصة هو أن موقفه من المشاكل السياسية التى كان يبحث فيها مع أبيه ، كان موقف الرجل الذى لا يعد الباب العالى قطب دائرة الوجود ، فى حين أن الآستانة كانت فى نظر محمد على هى قلب العالم بأجمعه .

(١) تقرير عن مصر وقندية مرفوع إلى اللورد ڤيكونت پلمرستون وزير خارجية جلالة الملكة من جون بورنج سنة ١٨٤٠ ص ٧ .

(٢) ددول ص ٢٥٦ .

ولم يمنع هاتين العقليتين من أن تصطدما إلا إخلاص الإبن ووفاؤه وحذق الأب وكياسته . وقد وصف إيميه ڤنترنييه Aimé Vingtrinier صاحب الترجمة الشيقة للكولونيل سيف Colonel Sève (سليمان باشا) ما طبع عليه محمد على من الحكمة وبعد النظر ، فكتب هذا المؤلف يصف الاحتفالات التى أقيمت فى القاهرة لتكريم إبراهيم ، لما رجع ظافراً من حرب الوهابيين فى ديسمبر من عام ١٨١٩ يقول : « وكان أهم ما يلفت النظر فى هذه الاحتفالات أن الوالى لم يشترك بنفسه فيها ؛ وذلك لكى لا يكون لأحد غير إبراهيم شىء من عظمتها وجلالها ؛ ولهذا بقى فى أثنائها بعيداً عن الأنظار ، تدفعه إلى ذلك عاطفة رقيقة كعاطفة الأم الرؤوم ؛ فوقف فى مسجد السلطان الغورى فى موضع لا يراه منه أحد ، يشاهد من إحدى نوافذه موكب الأغوات والأعيان وعامة الشعب والجند يسيرون فى الطريق ، وكلهم يرفعون أكفهم إلى السماء ضارعين إلى الله أن يحفظ لهم مصدر سعادتهم وهناءتهم فى ذلك اليوم المجيد »(١) .

---

(١) سليمان باشا تأليف إيميه ڤنترنييه طبعة فرمن — ديدو باريس سنة ١٨٨٦ ص ٨٩ .

الفصل الرابع

السودان

اقتنع محمد على منذ بداية عهده بتفوق الخطط الحربية الأوربية على الخطط الشرقية ؛ وذلك لأن حروبه مع الجيش الفرنسى فى مصر جعلت للأساليب والأوضاع الغربية فى نظره المقام الأسمى ، و إن كانت حروب طوسن مع الوهابيين قد سارت على النمط الشرقى القديم . ومع أن إبراهيم قد ضم إلى هيئة أركان حربه الضابط الفرنسى ڤاسيير Vassiére الذى سبقت الإشارة إليه ، فقد ظلت الأساليب الحربية القديمة هى المتبعة ولم يطرأ عليها تغيير . وليس أدل على بعد نظر محمد على وثاقب رأيه ، من أنه بعد أن خرج ظافراً من حربه ، أوتى من الشجاعة الأدبية وسعة الفكر ما جعله يقدم على تحطيم آلته الحربية القديمة ليستبدل بها آلة أخرى من نوع جديد .

وشرع ينفذ هذه الخطة الجديدة بعد أن وثق من نجاح حملة إبراهيم ، وقبل أن يعود القائد إلى القاهرة . وهو عمل جدير بالحمد والثناء .

غير أن اعتداده بنفسه قد زاد على الحد الواجب ، شأنه فى هذا شأن غيره من العصاميين . ولذلك كان كغيره ممن بنوا صروح مجدهم بيدهم يثق كل الثقة بحكمته وأصالة رأيه ، يدل على ذلك قوله لجون بورنج John Bowring فى عام ١٨٤٠ :

« لقد بقيت طوال حياتى إلا قليلا منها أعمل بمفردى ، لا يعاوننى إلا

باغوص بك ، ولا أستطيع أن أقول إنى حييت حقا إلا فى الخمس العشرة سنة الأخيرة ... وكنت قبل ذلك أشك حتى فى مقدرة أولادى ، لا أستثنى منهم إبراهيم باشا نفسه . أما الآن فقد عرفت أنه يمكن الاعتماد عليه والوثوق به إلى أقصى حد [(١)] » .

وقد كان من حسن حظ محمد على أن أرسل الله « أنتلم سيف » Anthelme Sève إلى القاهرة فى عام ١٨١٩ . وكان Sève رجلا من أهل ليون خدم فى جيوش نابليون ؛ ولما أفل نجم القائد الكورسيكى فى ووترلو Waterloo استهوى الشرق هذا الشاب الفرنسى ؛ ورأى أن فى لفظ كولونل حلاوة وطلاوة ، فاتخذه لقباً له ، وإن كان لم يبلغ هذه المرتبة العسكرية من قبل . وأعجب باشا مصر بسرعة بديهته فاختاره ليشرف على نقل الفحم فى الصحراء . وبعد زمن ما عهد إليه بتدريب ثلثمائة من السود فى أسوان وإعدادهم للجندية . وكان هذا العمل ينطوى على شىء كثير من الخطر ، لأن هؤلاء الجندين كانوا همجاً مشاكسين طائشين ؛ ولكن سيف استطاع بدمائة أخلاقه أن يبسط نفوذه عليهم كل البسط . ولم يكن هؤلاء قد رأوا بندقية فى حياتهم ، فأثار دهشتهم بشرحه فائدتها ومقدار القوة التى أفادها الفرنجة منها . ثم أخذ يقدم لهم البنادق بالتدريج ؛ ولكنهم استخدموا سلاحهم الجديد فى رمى رئيسهم به . فكان هذا العمل سبباً فى سيطرته الكاملة عليهم ، إذ سبهم وأهانهم وأنبهم على جبنهم ونذالتهم وخوفهم وعجزهم . وكانوا يتوقعون أن يبلغ رؤساءه ما اقترفوه من الإثم ؛ فلما عرف ذلك منهم قال لهم إنهم أرادوا أن يقتلوه فعجزوا عن نيل بغيتهم ، أما هو فقد أراد أن يظهر لهم رأيه فيهم فنجح فى ذلك ؛ فإذا كان هذا

(١) بورنج فى تقريره السالف الذكر ص ١٤٦ .

يكفيهم فهو أيضاً مكتف به . فأثارت هـذه المعاملة الـكريمة حماس الجند و إعجابهم به [١] .

ولما كان سيف قد ولد فى عام ١٧٨٨ ، ونشأ فى تلك السنين التى لم تـكن فرنسا تعرف فيها إلا قليلاً من أمور الدين ، فقد رأى أن من الأوفق له أن يعتنق الإسلام ؛ وعرفه الناس فيما بعد باسم سليمان باشا . وكان من قبل مسيحيا بالاسم ومات بعد أن أشهر إسلامه رسميا . ومن ذرية إحدى حفيداته ملكة مصر الحالية . ولم تعجب هـذه الخطط العسكرية الجديدة الضباط الذين صحبوا إبراهيم وطوسن إلى بلاد العرب ؛ لاعتقادهم أنها لا بد أن تؤدى إلى إهمالهم وضعف شأنهم . ولذلك لم يألوا جهدا فى العمل لإحباط هذه النظم الجديدة . ورأى إبراهيم ذلك منهم فعزم على أن ينكس من أبصارهم بانضمامه إلى الفرقة الجديدة التى يدربها سيف ، و يصير فيها نفرا من عامة الجند . فلما عرض هذا الاقتراح على سيف لم يرحب به ولـكنه أجاب بقوله : « أما وهذه رغبتك فلن أقف فى سبيلك بطبيعة الحال ؛ ولـكن لتعلم أنك إذا لم تخضع لأوامرى كل الخضوع طوال مدة خدمتك فإن ذلك يسئ إلى نظام الجندية كل الإساءة » ، فرضى إبراهيم بذلك .

ثم أمر أن يحمل بندقية و ينضم إلى الفرقة التى كانت تتدرب وقتئذ . وكان إبراهيم عريض المنكبين ، غائر الصـدر ، طويل شعر اللحية ، قصير الساقين . ولما دفعته غريزته إلى أن يتقدم إلى أول صفه ، صرخ سيف (ولم يكن قد أصبح سليمان بعد) بأعلى صوته ، وأشار إلى المكان الذى يجب أن يقف فيه إبراهيم قائلاً : « ارجع من ذلك المكان أيها النفر القصير الساقين ! ألا ترى أن مكانك هو آخر مكان فى الصف » .

(١) المصدر عينه ص ٤٩ .

وإذا كان إبراهيم قد تردد هنيهة فى إطاعة الأمر ، فإن يد سيف ظلت تشير إلى المكان المطلوب ، ونظراته بقيت مسددة إلى إبراهيم ؛ فصدع بالأمر ، ورآه الجنود يقف فى مقدمتهم ثم يعود من مكانه صاغراً بأمر رجل أجنبى . وكان الجنود زنوجا أجلافا لم يفقهوا كلمة واحدة مما دار بين سيف وإبراهيم ، كما أن إبراهيم نفسه لم يفهم نص ما قاله سيف فى غضبه لأنه لم يكن يعرف اللغة الفرنسية ؛ وإذا كان عرف شيئاً منها فإن ذلك لم يكن قبل عام ١٨١٩ ؛ وفى هذه السنة لم يكن المدرب يعرف من العربية أو التركية إلا القليل الذى لا يسعفه . لكن الجنود كلهم أدركوا ما يقصده سيف ؛ وبادر بطل الدرعية دون تردد إلى الوقوف فى آخر الصف . ولم يخف على الجند والضباط معنى ما حدث بل أدركوا أن الطاعة لا تحط من كرامة الإنسان .

وبينما كانت هذه الآلة الحربية الجديدة فى طور الإعداد ، ولى محمد على وجهه نحو الجنوب . وليس معروفاً بالضبط سبب إقدامه على هذا العمل ، وقد يكون له أكثر من سبب واحد . ولن نحاول هنا شرح هذه الأسباب ؛ وحسبنا أن نقول إنه عقد لواء الحملة لابنه الثالث إسماعيل ، وإنه أرسل إلى السودان جيشاً ثانياً بقيادة صهره الدفتردار . وعين محمد على الخطة العامة التى كان على الجيش المصرى أن يسلكها فى خطاب كتبه إلى ولده إسماعيل فى ١٧ من شهر يناير سنة ١٨٢١ . وهذا الخطاب يفصح عن أخلاق محمد على ، فهو يؤكد فيه لإسماعيل أن الشجاعة وإن كانت من الضرورات لا تغنى عن الثبات والفطنة ودماثة الخلق [١] .

---

(١) مجموعة رسائل محمد على خديو مصر . المطبعة الأهلية بالقاهرة سنة ١٩١٣ الوثيقة رقم ٥٩ .

ولكن مما يؤسف له أن الضابط الشاب لم يستمع إلى نصح أبيه وحكمته ، بل عامل أحد الزعماء الذين قهرهم بشيء من القسوة والصرامة ، فلاق حتفه جزاء له على عدم فطنته .

وكان إبراهيم قد أرسل قبل موت إسماعيل لتنظيم مديريات الوجه القبلي [١] ويستدل من خطاب أرسله إليه والده فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٢١ على أنه أرسل فى بعثة إلى السودان بعد أن أتم عمله فى صعيد مصر [٢] . و بينما هو يضطلع بهذين الواجبين ، واجب الإشراف العام على شؤون البلاد وحرب الاستعمار إذا صحت هذه التسمية ، إذا بأبيه يكتب إليه فى ٢٩ نوفمبر من عام ١٨٢١ ، يبلغه أن الثورة التى شبت فى جزائر البحر الأبيض وفى بلاد المورة وكريد قد اتسع نطاقها ، حتى أصبح من الواجب الإسراع فى إرسال أكبر عدد مستطاع من العبيد إلى مصر ، وذلك لحاجته إليهم فى تكوين جيشه الجديد [٣] .

واضطر المرض إبراهيم أن يعود مسرعاً إلى مصر قبل أن يتم تنفيذ كل ما عهد إليه به ؛ وكانت الفكرة أن يستولى على البلاد المعروفة الآن باسم دارفور . وقد وقعت عقب عودته إلى مصر حادثة طالما لج فيها ناقدوه ورواها بريس دافن Prisse d'Avennes وأرمن Harmont ، وهى أنه قد قتل بيده المعلم غالياً كبير الأقباط أى المسيحيين الوطنيين .

يقول هذان الكاتبان إن محمداً علياً ظن أن المعلم غالياً باع إلى الباب العالى معلومات عن مقدار إيرادات الباشا ، فاستطاعت الآستانة بناء على هذه المعلومات أن تحصل من مصر على أكثر مما يريد الباشا أن يؤديه . ولذلك اتفق

---

(١) المصدر عينه الوثيقة رقم ٦٥ .
(٢) المصدر عينه الوثيقة رقم ٨٦ .
(٣) المصدر عينه وثيقة رقم ٩٣ .

الباشا وابنه على التخلص منه . وإليك رواية بريس داڤن وأرمن بنصها :

« واستولت الحيرة على محمد على ، فعرض الأمر على إبراهيم الذى أخذ هو على عاتقه أن ينتقم منه . فأرسل إلى المباشر القبطى (غالى) وأمره أن يصحبه فى طوافه فى الوجه البحرى . فصدع غالى بالأمر لأنه لم تداخله فيه ريبة . وبعد أن سارا معاً عدة أيام فى سرور وانشراح ، طلب إبراهيم إلى ضيفه أن يلاعبه النرد . وفى أثناء اللعب ضايق إبراهيم غالياً مضايقة دفعته على الرغم منه إلى التشاحن مع إبراهيم . فاتهم القبطى بالوقاحة وأخرج غدارة من منطقته وأطلقها عليه فأرداه قتيلا لساعته »(١).

والقصة بهذا الوضع ظاهرة البطلان . قد يكون إبراهيم أشد الطغاة تعطشاً إلى سفك الدماء ؛ ذلك أمر نتركه إلى القارئ يقضى فيه بما يراه . لكن كل ملم بأحوال الشرق لا يحتاج إلى أن نعرفه أن الأمير المسلم الذى كان يريد أن يقتل قبطيا فى عام ١٨٢٣ ، لم يكن يرى نفسه مضطرا إلى أن يلجأ إلى الحيل لتنفيذ مأربه . فإذا كان محمد على أو ابنه قد شعرا بأن المعلم غالياً يقف فى سبيلهما ، فإنهما لم يكونا فى حاجة إلى الاحتيال عليه بلعب النرد ؛ ولذلك لا نتردد فى الحكم على أن حديث بريس داڤن وأرمن حديث خرافة .

ولسنا نعرف مع الأسف ما حدث بالضبط ؛ وكل الذى نستطيع أن نجزم بصحته أن ثمة خطابا كتبه محمد على إلى إبراهيم بتاريخ ٢٧ إبريل سنة ١٨٢٢ ، جاء فيه أن غاليا يقيم العراقيل فى سبيل جمع عشور النخيل ، وأن الأمر مهم للغاية ، وأنه إذا لم يستطع أن يمنع القبطى من الاسترسال فى معارضته غير المشروعة فعليه أن يأمر بقتله . وجاء فى آخر الخطاب : « وعليك أن تبذل جهدك كى تقنعه

(١) بريس داڤن وأرمن فى كتابهما السالف الذكر ص ٤٠ .

بمـا فى تصرفه من الخطأ . فإذا نجحت فيها ونممت ، وإلا فمر بضرب عنقه ، لأن مصالح الدولة لا تعدلها مصلحة أخرى ، ولا نسمح بأن يحدق بهـا الخطر بسبب آرائه غير المشروعة . ورجائى أن تخبرنى بكل ما يجد »(١) .

وبعد عشرة أيام من ذلك التاريخ كتب محمد على إلى إبراهيم يخبره بوصول خطاب ينبئ بموت المعلم غالى ، ومما جاء فيه :

« لم أقتل أنا المعلم غاليا ولم تقتله أنت ، بل قتله طيشه وعناده وحبه المعارضة حبًّا وصل إلى حد الجنون . أستبدل به فرنسيا أو ابن عمه المعلم بشارة »(٢) .

وإن فيما اختتم به هذا الخطاب ، وبخاصة آخر كلماته ، لدليلا على أن التعصب الدينى لم يكن هو الباعث على قتل المعلم غالى تلك القتلة العاجلة . ويؤيد هـذا الرأى الفقرة الآتية المنقولة من التقرير السرى الذى رفعه إلى وزارة الخارجية البريطانية رقيبها المدرب :

« لا يمكن الآن أن يمس أى إنسان أذى بسبب آرائه الدينية ؛ وقد قال مطران الأقباط الأرثوذكس فى القاهرة إن التحسن الذى طرأ من هذه الناحية تحسن لا يكاد يصدقه العقل . لقد كان الجهر بالنصرانية فى مصر يعرض صاحبه إلى ضروب من الأذى المستمر ؛ وكان إعلان الشعائر المسيحية أمام أعين الجمهور ، يعرض تلك الطائفة إلى الخطر الشـديد . أما الآن فالمطران يخبرنى أنه يسير فى الطريق والصليب على صدره وعصاه بيده ولا يلقى عنتا مطلقا . وليست هذه الحال مقصـورة على العاصمة بل إن الأقباط فى البلاد الصغرى يتمتعون بكامل الحرية فى تأدية واجباتهم الدينية جهرة تحت حماية القانون ، ولا يتأخر أولو الأمر

---

(١) مجموعة رسائل محمد على السالفة الذكر الوثيقة رقم ١١١ .
(٢) المصدر عينه الوثيقة رقم ١١٢ .

عن القيام بواجبهم إذا ما خيف أن يتعرض أحد للمسيحيين أو يمنعهم من ممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينية »[(١)] .

ومع أن هذه الصورة صورة التسامح الديني تنطبق على الوقت الذى قتل فيه المعلم غالى ، أى الوقت الذى راجت فيه قصة لعب النرد معه وقتله بعد ذلك ، فإن إبراهيم كان يمثل فى شخصه معارضة الترك لاستقلال اليونان . والقارئ يذكر أنه فى عام ١٨١٥ تكونت فى مسكو و بخارست وتريست الجمعية الثورية المشهورة المسماة Philike Hetaerae لإخراج الترك من بلاد اليونان . وكانت ثورة على باشا حاكم يانيا على السلطان فى عام ١٨٢٠ إيذاناً بقيام الثورة الإغريقية . ففى شهر مارس من عام ١٨٢١ جاء ألكسندر إبسلانتى من بلاد الروسيا إلى البغدان (ملداڤيا) على رأس قوة صغيرة ؛ وفى هذا الشهر عينه رفع جرمانوس Germanos كبير أساقفة بتراس Patras راية العصيان فى كلڤريتا Kalavryta فى بلاد المورة .

وعجز السلطان لضعفه عن مقاومة هذه الحركة ، فولى وجهه فى وقت محنته شطر سيف محمد على البتار ، الذى استغاث به سلفه لإخراج الوهابيين من بلاد العرب . وعهد الباشا إلى إبراهيم بتنفيذ أوامره ، فصوب إغريق مصر — وهم بغريزتهم ماهرون فى بث الدعاوة — سهامهم نحو القائد الذى كانوا يخافونه بحق ويخشون بأسه . وكانوا يعرفون أن اللورد بيرون Lord Byron وأنصار الإغريق المنتشرين فى جميع أنحاء العالم يعملون لإثارة شعور الناس على « التركى الشرس » كما كان يلقبه المستر غلادستون Gladstone فيما بعد .

(١) بورنج فى تقريره السالف الذكر ص ١٤٩ ، انظر أيضاً « حكم محمد على فى ضوء المحفوظات الروسية فى مصر » لرنيه قطاوى طبعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة سنة ١٩٣١ الجزء الأول ص ٣٧ .

فلما حدث حادث الملم غالى رأوا فيه فرصة سانحة لنيل أغراضهم ، ففرحوا به واستغلوه أيما استغلال . وكانت هذه الحادثة تكأة صالحة ، لأنها كان يحيط بها من الظروف المحلية والتفاصيل مايستطيع الداعى الماهر أن يوجهه لمنفعته . ولم يظهر فى تاريخ العالم كله قوم حذقوا فن الدعاوة أكثر من حذق إغريق اليوم ، مع جواز استثناء الإغريق الأقدمين .

ولقد كان محمد على و إبراهيم كراماً إلى أقصى حدود الكرم فى معاملة الجالية اليونانية الكبيرة فى مصر . وليس أدل على هذا الكرم من أن الفليكى هيتارى Philike Hetaerae كانت تبث دعوتها بنشاط فى مصر(١) . وكان ثيودور تسزا Theodore Tossizza أكثر أعضائها نشاطاً وجلداً . وقد قال أثنازى بوليتس Athanase Politis الشاب الدبلوماسى الإغريقى النابه فى كتابه « الهلينية ومصر الحديثة » إن الباشا لم يكتف بعدم مقاومة الثورة الإغريقية فى مبدئها ، بل إنه ظاهرها وأعانها على أغراضها(٢) . على أنه إذا كان محمد على لم يعرقل أعمال اليونانيين فى مصر عند ما كانت حركتهم فى مهدها لأنه كان يعد المسألة الإغريقية من المسائل التى تهم الآستانة لا القاهرة ، إذا كان لم يفعل ذلك فإنه نظر إلى المسألة نظرة أخرى حينما دعاه السلطان إلى حماية الراية الإسلامية . فلما هم بمقاومتها كانت الدعاوة الإغريقية لا تنى عن العمل ليلا ونهاراً من معششها فى الإسكندرية . وأضحى إبراهيم أبغض الناس إليها لأن سيفه هو الذى كان يحول بين الإغريق و بين تحقيق أمانيهم فى الاستقلال ، ولذلك كان من حسن الدعاوة أن يتهم بسفك الدماء .

(١) الهلينية ومصر الحديثة تأليف أثنازى ج . بوليتس طبع ألكان ، باريس سنة ١٩٢٩ الجزء الأول ص ١٨٩ .

(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٨٩ .

ويقول جيمز أغسطس سانت جون James Augustus St. John الذى أتى إلى الإسكندرية فى ٨ نوفمبر من عام ١٨٣٢ ، والذى نشر فى شهر أغسطس من عام ١٨٣٤ مجلدين عن مصر ومحمد على ، إن الباشا حين دعاه السلطان لينقذ الدولة العثمانية التى كانت الثورة الإغريقية تهدد كيانها ، كان لديه جيش تبلغ عدته نحو مائة وعشرين ألف رجل ، وهو جيش أكبر مما تستطيع موارد البلاد أن تحتفظ به بصفة دائمة . وقد عجزت مصر كما قلت فى مناسبات عدة عن أن تمد الحقول بالفلاحين أو المدن بالصناع . . . ولما هم محمد على بتنظيم جيشه الجديد ، حاول أن يسد النقص الذى يحدث فى صفوفه بالعبيد السود من أهل كردفان وسنار وغيرهما من البلاد الداخلية ، يشترى معظمهم بالمال من طرابلس ، والبعض من النخاسين فى أسواق القاهرة . ولكنه لم يلبث أن وجد أن بنية هؤلاء الزنوج لا تستطيع مقاومة المؤثرات المناخية . وقد ضم إبراهيم إلى حملته على المورة نحو ستمائة أو ثمانمائة من هؤلاء الجنود السود ليتخذهم حرساً خاصا به ؛ ولكن معظمهم هلكوا أثناء سفرهم فى البحر مع أن الجيش كله لم يفش فيه وباء »(١) .

وهكذا عجز جنود إبراهيم السود عن القيام بما كان يراد منهم ، لأنهم لم يستطيعوا مقاومة البرد . ولكن بعد نظر الوالى هداه إلى إنشاء أسطول استطاع أن يقوم بالواجب العادى الذى اضطلع به . وكان ما قام به أمير البحر نلسن هو الذى هدى الباشا إلى أهمية السيادة البحرية ؛ وذلك لأن محمداً علياً كان نافذ البصيرة لا تفوته الإفادة من كل درس تهيئه له الظروف .

(١) « مصر ومحمد على أو رحلات فى وادى النيل » تأليف جيمس أغسطس سانت جون طبعه فى لندن لنجمان ، وريز ، أورم ، برون ، جرين ولنجمان سنة ١٨٣٤ الجزء الثانى ص ٤٧٥ .

ومع أنه كان شـديد الإعجاب ببونابرت فقد انطبع فى ذهنه أن القائد الـكورسيكى اضطر إلى الفرار من مصر ليلا كما يفر اللصوص ، لأنه لم يكن له أسطول يكفى لحمايته . وقد وصف انجيلو سماركو Angelo Sammarco العالم اللوذعى الذى لا يألو جهداً فى دراسة عهد محمد على ، وصف هذا العالم ولع الباشا بالبحر ، فقال إن محمداً عليا هام محب البحرية هياماً لا يعادله هيام[1] . وكذلك فعل چورج دون George Douin أحد رجال البحرية الفرنسية الذى أعير الآن إلى شركة قناة السويس ، فقد نشر فى عام ١٨٢٦ رسالة شيقة خاصة بموضوع الفرقاطات الأولى من أسطول محمد على[2] . ومع أن الأستاذ سماركو قد قصر بحثه على ما قدمته إيطاليا إلى أسطول الباشا ، فإنه وجد من المادة ما يكفى ثلثمائة وأربعين صفحة . وملاك القول أن اهتمام الباشا بالأسطول المصرى أصبح الآن من القضايا المقطوع بصحتها التى لا يجادل فيها إنسان .

وتدل وثائق دار المحفوظات المصرية بسراى عابدين ، وهى الوثائق التى لم تنشر بعد ، على أن محمداً عليا قد قام لديه البرهان منذ عام ١٨١٠ على ضرورة وضع أساس قوة مصر البحرية . وما كاد محمد على يلم بمبادئ القراءة والـكتابة حتى شرع يوجه نظر الباب العالى إلى حاجته إلى السفن . وقد قال مرة لجون بورنج John Bowring « لم يمن الله على بنعمة التعلم فى الصغر ، ولم أعرف القراءة والـكتابة إلا بعـد أن بلغت السابعة والأربعين ، ولم أر بلداً أكثر مدنية من بلدى ولذلك لا آمل أن أقوم بما تستطيعون أنتم (يريد الإنجليز) أن تقوموا به

(١) البحرية المصرية فى عهـد محمد على وحظ الإيطاليين فيها لأنجيلو سماركو . الجمعية الجغرافية الملـكية المصرية ١٩٣١ فى صفحتى ٥ ، ٦ من المقدمة .

(٢) الفرقاطات الأولى من أسطول محمد على (١٨٢٤ — ١٨٢٧) تأليف جورج دون وطبعتها الجمعية الجغرافية الملـكية سنة ١٩٢٦ .

أو أن أصل إلى الدرجة الرفيعة التى وصلتم إليها » ثم أعلن لساعته رأيه فى مزايا القوة البحرية فقال :

« لقد كشف الإنجليز عن كثير من الأشياء العظيمة ، ولكن خير ما كشفوا وأعظمه نفعاً هو الملاحة التجارية » .

ثم يقول بورنج : « فلما أخبرته أن الذى كشف طريقة الملاحة التجارية أمريكى أجاب : « لو لم يكن للأمريكيين آباء كآبائكم لما بلغ أبناؤهم ما بلغوا »[(١)].

وليس لدينا ما يثبت أن إبراهيم كانت له يد فى إقناع محمد على بما للقوة البحرية من خطر عظيم ، وذلك بأن إبراهيم كان فى عام ١٨١٠ أصغر من أن يؤثر فى أبيه أقل تأثير . ولكن لما دار الفلك دورته ، وأمسى ذلك الشاب بطل الدرعية رجلا إداريا يصرف الأمور بعقل السياسى القدير ، لما أمسى كذلك أخذت رسائله الرسمية تفيض بالبراهين الدالة على أنه كان يعرف خطر القوة البحرية ، وأنه كان يشعر بضرورة الكفاح فى سبيلها . وليس أدل على إدراكه للأمور البحرية إدراكا يشبه إدراك الإنجليز لها من عبارة يعزوها إليه الدكتور ياتس Dr. Yates ، الطبيب المبشر الذى قضى فى مصر عدة سنين ، فقد نقل عنه أنه قال : « إن الفرنسيين لم يعرفوا كيف ينشئون السفن ولا كيف يسيرونها »[(٢)].

وقد ظل الإغريق أجيالا عدة يقومون بوظيفة كبار الملاحين فى الدولة العثمانية . وكانوا بحارة مهرة ، يسيطرون على البحار التى كان لا بد أن يجتازها إبراهيم ليطفئ نار الفتنة التى شبت فى المورة . وكان العدد الأكبر من أبطال

(١) بورنج فى تقريره السالف الذكر ص ١٤٧ .
(٢) تاريخ مصر وحالها فى الوقت الحاضر تأليف الدكتور وليم هولت ياتس طبعة اسمث إلدر وشركاه بلندن سنة ١٨٤٣ الجزء الثانى ص ١٩٢ .

حرب الاستقلال الإغريقية من أبناء هيدرا واسپيزيا Hydra & Spezia ، والدليل على ذلك أن معظم ما بقى من أسماء هؤلاء الأبطال أمثال Colocotronis, Colettes, Canaris, Miaulis أسماء يونانيين ذوى صلة بالبحار . وكانت أعمال القرصنة التى أتاها رجال يجلهم الإغريق الآن ويعدونهم أبطالا ، هى التى جعلت للثورة الإغريقية مكانتها فى نفوس الغربيين . ومن ذلك يرى أن البحر كان له شأن أيما شأن فى القسم الثانى من حياة إبراهيم .

الفصل الخامس

الثورة الاغريقيـــة

إن الوطنيين الإغريق الستين ، الذين اجتمعوا فى إبيدورس Epidaurus فى اليوم الثانى عشر من يناير عام ١٨٢٢ ونادوا باستقلال الأمة اليونانية ، قد خلدوا أسماءهم فى صحف المجد والفخار فى العالم أجمع ؛ وهم جديرون بهذه العبارة المنقوشة على جدران البانثيون Pantheon تمجيدا لذكرى كثير من أبناء فرنسا العظماء : « إن الحضارة بأجمعها مدينة لهم بالشىء الكثير » ؛ نعم إنك قد تسمع الآن بعض الجدل عن الحدود الصحيحة لبلاد « الأمة اليونانية » التى أنشأتها تلك الثورة ، لكن تركية مصطفى كمال تدين بمبدإ القومية إلى حد يجعلها تشترك مع العالم فى تمجيد الكسندر مفروكرداتو Alexander Mavrocordato وزملائه ، وتشيد بمدح شجاعتهم ووحى أفكارهم .

أما فى وقت قيام الثورة فقد كان الروح المسيطر على الغرب هو روح مؤتمر ويانة Vienna ؛ وكان مترنيخ Metternich لا يزال فى إبان مجده ، كما كان ولنجتن Wellington هو النجم الساطع فى أفق السياسة البريطانية ، وكان ملك من آل بوربون Bourbon يستوى على أريكة فرنسا . وملاك القول أنه لما جرأ الوطنيون على أن يتغنوا بنشيد الحرية ، تلك النغمة الناشزة فى لحن أوربا المتسق ، اصطكت لنغمتهم مسامع أسرة الدولة الأوربية .

والحق أن العالم الدبلوماسى فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر كان يخشى

أن يزداد نفوذ الروسيا وسلطانها إذا نال الإغريق استقلالهم . ومنشأ هذا الخوف هو اعتقادهم أن انتصار المذهب الأرثوذكسى يضاعف هيبة قيصر الروسيا . ثم إن الدعوة التى كان ينشرها أصدقاء الإغريق قد أثرت فى عواطف القوم ، لكن الدهاة المسيطرين على سياسة العالم كان يدور تفكيرهم حول التوازن الدولى ، وكانت كثير من المهازل تدبر من وراء الستار كما تدبر مهازل هذه الأيام . وزاد عدد المؤتمرات زيادة جعلت چورچ كاننج George Canning يجهر بقوله : « انتهت المؤتمرات والحمد لله »(1) . لكنه قدر فأخطأ التقدير ، فقد كانت ثورة اليونان وغيرها من المشاكل سببا فى عقد مؤتمر عالمى فى ڤيرونا Verona فى صيف عام ١٨٢٢ . وأدرك بيرون Byron أن مجهود هذا المؤتمر سيذهب أدراج الرياح ، ولذلك حيا انعقاده بهذه العبارة : « ما أغرب هذا المؤتمر الذى قدر له أن يضم شتات كل المتناقضات والأضداد ؛ ولا أعنى بقولى الملوك فهؤلاء كلهم سواء كأنما قدوا من أديم واحد ؛ وإنما أعنى من يسيطرون على هذه الشخوص ويحركون تلك الأشباح ، أعنى اليهود والمؤلفين والقواد والمشعوذين . لقد اجتمع هؤلاء فى صعيد واحد ووقفت أوربا تنظر إلى جماعتهم كالمكسور فى ذرعها » .

وما أصدق ما قاله هذا الشاعر : ذلك بأن مترنيخ Metternich « أكبر أنصار القوة والمتطفلين على موائدها » قد آلى على نفسه أن لا تقال فى الاجتماع كلمة ما عن استقلال اليونان . وكانت خطته تقضى بأن يسمح للمندوبين أن يتلاقوا فى اجتماعات خاصة ، على أن لا تعقد اجتماعات رسمية ولا تصدر مراسيم جدية (2) . وبلغ من حسن تدبيره وكرمه وبذله أن انفض مؤتمر ڤيرونا فى الحادى

(١) نقلها فليب جودلا فى كتابه « الدوق » طبعة هدر واستانن سنة ١٩٣١ ص ٣٣٦ .

(٢) تاريخ اليونان السياسى من ١٨٢١ إلى الوقت الحاضر تأليف إدورد دريو طبعة مطابع جامعات فرنسا بباريس الجزء الأول ص ١٩١ .

والعشرين من نوفمبر ، والدول كلها راضية عما فعل ، والمشكلة اليونانية لم تحل . وقد لخص مترنيخ أعمال المؤتمر فى رسالة بعث بها إلى البرنس جيكا Prince Ghika فى السادس من ديسمبر عام ١٨٢٢ بقوله :

« وبذلك استقر الرأى نهائيا على عدم التدخل فى شؤون الدولة العثمانية ؛ وهذا عمل عظيم . ومما هو خليق بأن يخلد فى تاريخ هذا العصر ، أنه لم يرتفع فى مؤتمر ڤيرونا صوت واحد للدفاع عن الإغريق ، بعد هـذا الجدل العنيف وهذه المناورات الدبلوماسية ، وبعد كل ما أثارته هذه الفتنة الحمقاء فى كل الأمم الأوربية كافة من قلق واضطراب »(١).

وإذا حاولنا أن نتتبع الأدوار التى مر فيها كفاح الإغريق لنيل استقلالهم لطال بنا المقال وخرجنا عن الغرض الذى نرمى إليه فى هذا الفصل من الكتاب . وحسبنا أن نقول إنه بينما كانت بلاغة الشعراء تصور ما حل ببلاد اليونان من محن وقوارع ، وبينما الصحف تطيخ الترك بكل قبيح فيزيدها ذلك ذيوعاً وانتشاراً ، وبينما الساسة ينادون صاخبين بضرورة الاعتراف باستقلال « الأمة اليونانية » اعترافاً رسميا فيزدادون فى قلوب الشعوب حبا وإعزازاً ، بينما هؤلاء وأولئك يفعلون هذا ، كان رجال الحكم المسئولون جامدين لا يبدون حراكا ، وقست قلوبهم فلم يؤثر فيهم دعاء ، وأصموا آذانهم عن سماع صوت الحق والعدالة .

لكن اليونانيين ، وهم قوم مهرة بارعون ورثوا براعتهم عن آبائهم الأولين ، استثمروا شكواهم وبلواهم فى سوق سندات لندن ، فعقدوا لهم فيها قرضاً فى حى المال ، إذ استطاع اثنان من أبعد مندوبيهم نظراً وهما أرلندوس Orlandos ، ولوريوتى Lourioti أن يحصلا من أولاد لومان وأبرين Loughman Sons and

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٩٤ .

O'Brien فى ٢١ يناير سنة ١٨٢٤ على ٨٠٠٠٠٠ جنيه إنجليزى بفائدة ٥ ٪ ، إذا أضيفت إليها السمسرة والخصم ونحو ذلك ارتفع هـذا السعر فى قول بعضهم إلى ٥٩ ٪[1] . لـكن هذا لم يكن يهم ذينك الوطنيين لأنهما نالا بعقد القرض ما كانا يبغيان ، ونجحا فيما لم ينجح فيه شعر بيرون وغناؤه ، إذ جعلا لأصحـاب المصارف والسماسرة مصلحة مالية فى استقلال اليونان .

ويلوح أن أرلندوس Orlandos ولوريوتى Lourioti لم يسعيا للحصول على المال من الفرنسيين ، لأنهما كانا رجلين عمليين خبيرين بنفسية الشعوب ، ولا يريان من المصلحة أن تذهب جهودهما مع الريح ؛ بل استخدما ذكاءهما فيما هو مستطاع ، فجعلا همهما — وجعلت إحدى الجمعيات اليونانية الأخرى همها — أن يستفيدا أكبر فائدة من غرام الفرنسيين بالمجد والفخار . وهدتهما قريحتهما إلى حصر همهما فى زينة الرؤوس التى أولع بها الفرنسيون ، كما يقول فيهم « لاروس الصغير الجديد » ، فعرضا أن يجلس على عرش اليونان الذى لم توضع قواعده بعد رجل من أبناء فرنسا وهو الدوق ده نمور Duc de Nemours ، وهو أمير من بيت أورليان Orleans فرع آل بوربون Bourbons الجالسين على عرش فرنسا وقتئذ . ومع أن رئيس الحـكومة اليونانية المؤقتة لم يرض لدهائه أن يقيد نفسه بهذا العرض ، فإن ذلك لم يمنع مجالس باريس من أن تعطف على قضية الحرية اليونانية ، لظنها أن استقلال اليونان قد يزيد فى هيبة فرنسا ومجدها

لـكن هذين الاعتبارين ، لغموضهما وعدم صراحتهما ، لم يثيرا فى العـالم الدبلوماسى حركة ما ؛ ولم تصخ أوربا بسمعها إلى نداء الوطنيين اليونانيين إلا بعد أن أصبحت قرصنتهم خطراً يهدد تجارة الأمم الغربية فى شرق البحر الأبيض

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٢٣١ .

المتوسط . وكان الأتراك قد تمس جدهم فى الحرب زمناً ما ، لكن جيوش السلطان مع ذلك كانت أقوى من أن يفت فى عضدها الثوار ؛ ولم يتفوق هؤلاء عليها إلا فوق متن البحار ؛ أما بلاد اليونان الأصلية فقد اجتاحها الأتراك ، وبقيت الجزائر اليونانية وحدها بزعامة هيدرا Hydra ، إسبيزيا Spezia يخفق عليها صليب الأرثوذكسية .

وكان يسكن هاتين الجزيرتين شعب من البحارة المهرة ، يتراوح عدده بين خمسة وعشرين وثلاثين ألفاً ، يعملون فى التجارة والملاحة ، جمعوا ثروة هائلة من تجارتهم مع بلاد البحر الأسود وشرق البحر الأبيض المتوسط . فلما شبت الثورة تدفقت هذه الأموال فى خزائن الوطنيين اليونانيين ، فكان هؤلاء القوم يمدونهم بالمال ويجهزون السفن بالسلاح . وأظهر زعيمان منهم هما ميولس Miaulis ، كنارس Canaris ضروباً من البطولة كأنها لغرابتها من نسج الخيال . لكن ثروتهم وإن عظمت لم تكن لتبقى أبد الدهر ، بل سرعان ما نضب معينها ؛ كما أن المال الذى استدين من لندن نفد بعد حين . أما الحرب فقد طالت ولم يخمد لظاها . وذلك بأن وطنية هؤلاء القوم لم تطفأ نارها حتى بعد أن أقوت خزائنهم من المال . ولم يكن أمامهم لجمه إلا سبيل واحدة هى أن يعمدوا إلى القرصنة يتخذونها وسيلة للخير العام . ومن ذلك نشأت قرصنة البحر الأبيض اليونانية ، وليدة الحاجة والوطنية ، وهى التى قال فيها اللفتننت دون Lieutenant Douin إنها : « التهمت أموال المحايدين لتملأ بها خزائن الثوار »(1) .

وبدأت هذه القرصنة بداءة شريفة . ذلك أن أوربا كانت قد أعلنت

(1) نوراين (من ٦ يوليه إلى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧) لجورج دون . طبعة الجمعية الجغرافية الملكية فى ١٩٢٧ ص ٣ .

حيادها فى النزاع المتوقع قيامه بين « الأمة اليونانية » والدولة العثمانية . وسرعان ما أدرك اليونانيون ما ينطوى عليه هـذا القرار من احتمالات ، فأعلنوا حصار الشواطئ التركية . ومع أنهم لم يكن لديهم أسطول ينفذون به قرارهم ، فقد كان هذا القرار حجة فى أيديهم يستخدمونه فى تنفيذ ما دبروه من قرصنة . « وتطورت الأمور تطوراً سريعاً » كما يقول تقرير رسمى أرسل إلى وزارة البحرية الفرنسية بتاريخ ٢٥ ابريل سنة ١٨٢٦ ، « فلم يمض إلا قليل من الزمن حتى قامت عصب البحار بضروب من القرصنة لم ير العالم ما يماثلها فى الشدة والفظاعة »[1] .

واتخذت هذه القرصنة أشكالا مختلفة . و إذ كانت جزائر الأرخبيل اليونانى متقاربة لا يفصلها بعضها عن بعض إلا ممرات ضيقة ، فقد استطاع سكانها أن يشتركوا مع القرصان ، حتى استحال الشاطئ اليونانى كله مرتعاً لهم ومباءة للصوص ؛ وتوثقت الرابطة بينهم و بين رجال البحرية اليونانية الرسمية ، وأمعنوا فى اعتدائهم إمعاناً جعل ده رنى de Regny أمير العمارة الفرنسية يبلغ حكومته أن إحدى سفن القرصان المساة Epaminondas التى أمسك بها متلبسة بجريمة القرصنة ، يمتلكها كندريوتس Conduriotis رئيس الحكومة اليونانية المؤقتة[2] ، وذكرت التقارير التى أرسلتها القنصلية الروسية بالقاهرة إلى سانت بطرسبرج Saint Petersburg ضروبا من اعتداء القرصان اليونانيين المتكرر على سفن الدول المحايدة[3] .

يقول المؤرخون فى معرض الدفاع عن هؤلاء القوم إن الدين والوطنية هما اللذان جعلا من هؤلاء الوطنيين قرصاناً ولصوصاً ، ولكن أصحاب السفن من

(١) نقله دون فى المصدر السالف الذكر ص ٣ .
(٢) المصدر عينه ص ٥ .
(٣) قطاوى فى رسالته السالفة الذكر ص ٦٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٩٥ ، ٩٧ الخ .

الإنجليز والفرنسيين وأهل سردينيا وروسيا لم يكونوا يبالون بهذا الجدل ؛ وكل ما كانوا يعرفونه أن متاجرهم ضاعت ، وسفنهم غرقت ، وأرواح بحارتها تعرضت للخطر ؛ وظلت قلوبهم قاسية لا تلين لدعاة النصرانية ، وأبواق الوطنية ، وعواطف أصدقاء اليونانيين ؛ حتى إذا ما تأثرت خزائنهم شمروا عن ساعد الجد وأخذوا يصيحون حتى أقضوا مضاجع رجال الحكم فى بلادهم ، وطلبوا إليهم أن يعملوا حيث يجب العمل للقضاء على هذا السلب والاغتصاب . واتبع الدبلوماسيون خطتهم المألوفة ، خطة الهجوم فى أضعف المواقع وأقلها مقاومة ، فصوبوا سهامهم نحو السلطان ، وطلبوا إليه أن يقضى على أعمال القرصان الإغريق .

قد لا يصدق القارئ هذه الأقوال أو قد يراها تهكما منا وسخرية ؛ ولكننا نؤيدها بأقوال جورج كاننج George Canning الذى خلف لورد كاسلرى على رأس وزارة الخارجية بلندن فى سبتمبر من عام ١٨٢٢ ، والذى تقول فيه دائرة المعارف البريطانية : « إن مكانته السياسية يقوم معظمها على الخطة التى سار عليها فى سياسته الخارجية فى تلك السنين ، خطة عدم التدخل ورعاية حركات الحرية والقومية فى أوربا ، أو الأخذ بيدها ومناصرتها بالفعل » . ولم يكد كاننج يتهيأ للعمل حتى اضطره موت كاسلرى الفجائى للذهاب إلى مؤتمر ڤرونا . وكان فى قرارة نفسه يعطف على اليونانيين ، كما أنه كان رجلاً طيب القلب قوى الأعصاب ثاقب الرأى . وكان ابن عمه السير استرتفورد كاننج Sir Stratford Canning الذى أصبح فيما بعد الڤيكونت استرتفورد ده ردكلف Viscount Stratford de Redcliffe سفير جلالة ملك بريطانيا فى الآستانة ؛ وكان كلاهما صادق الرغبة فى تحرير بلاد اليونان من نير السيادة التركية ، ولكن « جورج كاننج كان يشعر بأن موقفه الشريف — موقف الدفاع عن الإنسانية المعذبة —

لا يسعفه بالقوة اللازمة فى المفاوضات المقبلة ، فمرض أن تكون الأسباب المادية القائمة على « سياستنا التجارية » هى المحور الذى تدور حوله المناقشات » .

ولذلك كتب وزير الخارجيــة البريطانية إلى ابن عمه يقول : « تقدم بها (الشكاوى التجارية) ولج فيها ، لأننا إذا كان لا بد لنا من إثارة النزاع فعلينا أن نضم المصالح التجارية إلى جانبنا . وقد ظلت هــذه المصالح حتى الآن تؤجل ويتغاضى عنها بعض الشيء إرضاء لخاطر الروسيا ؛ فعليك الآن أن تتمسك بها » .

وبعد أن أورد المترجم لحياة لورد استرتفورد ده ردكلف نص هذا الخطاب أضاف إليه قوله :

« وبلغت القرصنة حدا جعل الأمة مالكة السفن تتخذها بحق موضوعاً للشكوى والاحتجاج . ولكن أسوأ ما فى الأمر أن أغلبية القرصان الكبرى كانت من الإغريق ؛ فلما بلغت الشكايات إلى الريس افندى أجاب هذا الجواب الطبيعى : دعونا نخمد نار الثورة القائمة علينا فى بلاد اليونان ، وكفوا عن التدخل الأجنبى ومناصرة الثوار فى الخفاء ، نقض على القرصنة فلا تعودون تسمعون عنها شيئاً »[1] .

فلما هبت أوربا لمهاجمة الأتراك تعزيزاً لمصالحها لا دفاعاً عن قضية تقرير المصير ، كان الباب العالى قد وطد سلطانه وأثبت تفوقه فى البر . ولما لم تكن له من التجارة البحرية إلا القليل ، فقد كان ما يحدث فى البحر قليل الخطر بالنسبة إليه ؛ وكان فى استطاعته أن يرقب أعمال القرصان اليونانيين وهو رابط الجأش مطمئن البال إلى حد ما ، لأن أثر هذه الأعمال لم يكن يمس تركيا من قرب ، ولم

(١) حياة النائب المحترم استرتفورد كانتنج الفيكونت استرتفورد ده ردكاف تأليف استانلى لين پول طبعة لنجمان وجرين وشركائهما بلندن سنة ١٨٨٨ جزء ١ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

يكن يفهمه أولئك الأغبياء الذين يتولون الأمر فى الآستانة . لقد كان علم الهلال يخفق فوق ربوع اليونان ، وذلك أهم ما كان يعنى به السلطان . وقصارى القول أنه لما خضعت الحكومة العثمانية لحاجة الغرب وإصراره ، واعتزمت أن تضيق الخناق على القرصان اليونانيين ، فعلت ذلك مؤتمرة بأمر أوربا لكى تطهر البحار من الأخطار التى كانت تهدد سفن المحايدين .

ولجأت الآستانة إلى القاهرة تطلب إليها أن تتولى هى الأمر ، لاعتقادها أن محمداً عليًا قاهر الوهابيين لا يعجز عن قطع دابر فتنة الإغريق . ومن أجل ذلك عُين الباشا (سرعسكر) أى قائدا أعلى لجيوش الدولة . وكان قبل ذلك فى عام ١٨٢٣ قد أرسل جيشاً إلى جزيرة كريد بقيادة صهره حسن باشا ، أما فى هذه المرة فقد عقد لواء الحملة لابنه إبراهيم . ولم يكن محمد على وابنه عند ما سيرا هذه الحملة يصدران فى عملهما عن تعصب دينى ، بل كل ما فى الأمر أنهما مسلمان ؛ وكما أن عامة المسيحيين تقريبا كانوا يعطفون على اليونانيين فى مناجزتهم الأتراك ، فإن هذين الرجلين المسلمين كانا يشعران بالعطف على إخوانهما فى الدين فى ذلك الصراع الذى ظل قائماً عدة سنين ، وكانا ينظران إلى الثوار نظرهما إلى القرصان السفاحين الذين يجب أن يعاملوا معاملة الخونة المارقين ، ويعتقدان صحة كل ما كان يرميهم به القناصل الأوربيون فى تقاريرهم المرسلة إلى وزارات خارجيتهم من اعتداء على المال وقسوة وسفالة .

ومما تحسن الإشارة إليه أن برناردن دروڤتى Bernardin Drovetti ، قنصل الروسيا وفرنسا بالإسكندرية وقتئذ ، أبلغ سانت بطرسبرج فى الثامن عشر من فبراير سنة ١٨٢٤ أن محمداً عليًا صرح بأنه قد اعتزم أن يجعل اليونانيين ينظرون إليه نظر المحسن إليهم ، وأنه مقتنع بأنه سوف يستطيع أن يخمد ضرام الحرب

بالحسنى ومن غير أن يريق كثيرا من الدماء »[١] . وأرسل هذا القنصل نفسه تقريرين آخرين إلى باريس وسانت بطرسبرج يرجو فيهما أن يتمكن الباشا من المحافظة على « نياته الخيرة » ، ثم يقول دروفتى بعد ذلك « إنه ينوى أولاً أن يسلك طريق المسالمة والاعتدال قبل أن يلجأ إلى البطش والعنف »[٢] .

ولم نعثر بعد على أدلة رسمية تثبت أن محمداً عليًّا أو إبراهيم قد فقد أحدهما الأمل فى كسب صداقة الإغريق ؛ ولكن لا شك أيضاً فى أنهما لم يتركا الأمور رهن الظروف والأقدار ، بل فعلا ما يفعل الرجال الحازمون العمليون ، فأفرغا مجهودهما فى حشد الجيش والأسطول والاستعداد للكفاح . وسعى الباشا ليحمل صاحب الجلالة المسيحية ملك فرنسا على أن يمده ببعثة حربية فرنسية ، تساعد المسلمين المصريين على إخضاع اليونانيين المسيحيين ؛ فأرسل لهذا الغرض فى صيف عام ١٨٢٤ رجلاً يسمى تورنو M. Tourneau ، وهو تاجر من تجار الإسكندرية ، وزوده بالأوامر اللازمة للاتصال بأولى الأمر فى فرنسا .

فاستشار هـذا الرسول القائد بليارد Belliard أحد النبلاء الفرنسيين والحائز لرتبة Lieutenant General فى الجيش الفرنسى ، فأحاله إلى الجنرال بوييه Boyer أحد الضباط الذين عملوا تحت قيادة نابليون فى مصر والشام . وكان هذا الضابط الأخير على وفاق مع المسيو ده فليل M. de Villèle الذى كان يقوم مؤقتاً بأعمال رئيس الوزراء للملك لويس الثامن عشر . وتألفت بالفعل بعثة عسكرية من الجنرال ليفرون Livron والكولونيل جودن Gaudin والكبتن أدولف Adolphe ، بولن ده تارل Paulin de Tarle ، شنفيل Cheneville وبوجول Pujol ، وضم

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٥٠ .

(٢) بعثة كريد والمورة (١٨٢٣ — ١٨٢٨) لشارل دربو طبعتها بالقاهرة الجمعية الجغرافية الملكية سنة ١٩٣٠ فى صفحتى ١١ ، ٢٣ .

إلى هؤلاء جراح وطبيب . ووافق الملك[1] على إرسال هذه البعثة ؛ ولكن يلوح أن أمرها بقي سرا مكتوما ، لأنه لم يكن من حسن السياسة أن يعرف الفرنسيون أن ملكهم البربونى الكاثوليكى يعين دولة مسلمة على قهر أمة مسيحية .

وألحقت بالجيش المصرى أيضاً بعثة بحرية فرنسية ، أو فرقة من الضباط البحريين الفرنسيين على أقل تقدير . وكان من بين رجالها المسيو لتلييه Letellier وبمبار Bompard ، شابير Chabert ، رينييه Reynier ، له دانتو Le Dentu دسنار d'Isnard ، متريز Matraire ، بريان Briand ، مافر Maffre ، لوسيانى Lucciani[2] .

وبذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أن فرنسا الرسمية كانت تشجع محمداً عليا على أن يمحق الإغريق ، مهما بلغ من عطف الرأى العام الفرنسى عليهم ورجائه الحار أن يحقق الله آمالهم ؛ مدفوعا إلى ذلك بالصداقة اليونانية وحب المجد والفخار . ولا شك فى أن دافعى الضرائب والناخبين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن هذه المعاونة الخفية التى كانت تقدم للمسلمين .

وكما كان آل بوربون يعينون الإسلام على النصرانية كانت الوزارة الفرنسية تعلم أن فى الجيش اليونانى رجالا من الفرنسيين ، منهم الكولونيل فابفييه Fabvier وهو رجل فرنسى خدم تحت لواء نابليون إلى ما بعد موقعة ليبزج Leipzig ، ثم فى جيش لويس الثامن عشر فى أثناء المائة الأيام ، ثم اغتاظ بعد ذلك من عودة آل بوربون وقاده قلبه إلى بلاد اليونان حيث رفعته كفايته إلى أن صار قائد القوات اليونانية النظامية ، وأصبح هو الروح المحرك لأداة الثوار العسكرية

(١) بعثة حربية فرنسية لدى محمد على لجورج دون طبعتها بالقاهرة الجمعية الجغرافية الملكية سنة ١٩٢٣ ص ٢١ .
(٢) الفرقاطات الأولى من أسطول محمد على الذى سبقت الإشارة إليه ص ١١٢ .

فى مبدإ أمرها . وكان ثمة فرنسى آخر فى البحرية اليونانية هو الكابتن چوردن Jourdin ، ويكفى أن نذكر للقارئ اسمه . ثم إننا لم نعثر على دليل يثبت أن الحكومة الفرنسية كانت راضية عن عمل فبڤييه أو چوردن ، ولكن وجودهما بين صفوف الإغريق يحتاج إلى إيضاح وتعليل .

أما إنجلترا فليس لدينا ما يثبت أنها كانت تتبع مثل هذه السياسة المخاتلة . على أننا قد عثرنا ضمن المراسلات التى دارت بين محمد على و إبراهيم على خطاب مؤرخ ١١ نوفمبر سنة ١٨٢٤ يبلغ فيه الباشا ولده أنه جدد عقود بعض الضباط البحريين الإنجليز[١] ، و إن لم يكن فيه ما يدل على أن هؤلاء الضباط كانوا من رجال البحرية الملكية ، أو أنهم قد انخرطوا فى سلك البحرية المصرية . وأكبر الظن أنهم كانوا تجاراً بحريين استخدموا لنقل الجنود المصرية . و بين هذه المراسلات خطاب واحد ، إن لم يكن أكثر من خطاب ، يشكو فيه محمد على من معاونة الإنجليز لليونان[٢] . ومع هذا فچوردن ، الضابط البحرى الفرنسى الذى سبق القول عنه بأنه كان يعمل فى صفوف الثوار ، يتهم الإنجليز بالكيد لليونانيين ، لكنه لم يؤيد قوله بدليل .

وأقلع الأسطول المصرى من مياه الإسكندرية فى التاسع عشر من شهر يوليه عام ١٨٢٤ ، وكان يتألف من إحدى وخمسين بارجة حربية وست وأربعين ومائة نقالة[٣] . فأما البوارج الحربيـة فكانت بطبيعة الحال مصرية ، وأما النقالات فليس فى استطاعتنا أن نعرف أى الأعلام كان يخفق عليها . وعندما

---

(١) مجموعة رسائل محمد على طبعت بالقاهرة فى المطبعة الأهلية سنة ١٩٣١ وثيقة رقم ١٦٠ .
(٢) المصدر السالف الذكر وثيقة رقم ١٧٠ .
(٣) حملة كريد والمورة ص ٢٣ .

أبحرت السفن لم تكن الآستانة قد استقر رأيها على من يعقد له لواء الحملة المشتركة .

وكان بين الضباط ذوى الرتب العالية فى الأسطول المصرى رجل كرسيكى Corsican يدعى مارى Mari نبذ المسيحية واعتنق الإسلام وتسمى باسم بكير أغا ؛ ولـكنه لم يوفق إلى أن يحسن النطق بالعربية أو يتخلى عن لهجته الـكرسيكية فى نطق اللغة الفرنسـية . وكان من بين رجال القوة المصرية أيضاً سليمان باشا الفرنسى ذى الشخصية الرائعة ، وأصله من مدينة ليون Lyons . أما بقية الضباط الفرنسيين فلم ينضموا إلى الحملة إلا بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت .

وكان إبراهيم وقتئذ رجلا مملوء الجسم ، قصير القامة ، كبير المقلتين ، براق العينين ، عالى الجبهة ، أصدأ اللحية ، تبرز شعراتها من وجه علاه كثير من آثار الجدرى . وكان رغم قصره وامتلاء جسمه ، تبدو على مظهره كله دلائل النشاط والذكاء وحب المغامرة والرغبة فى الإفادة (١) . وقد وصف شخصيته كاتب عرف صفاته كلها دون واسطة وصفاً مفصلا فقال :

« هو رجل لا تفارقه الهيبة ولا حب العدالة ، أمره مطاع ، ثابت قوى العزيمة ، شجاع رحيم لين العريكة ، لـكنه شديد الحرص على النظام لا يرضى أن يعمل أحقر رجل فى جيشه ما لا تطاوعه نفسه هو على عمله . يطيعه الناس ويخشونه أكثر من سواه ، لأن فى يده العقاب ؛ ومع ذلك التفت حوله قلوب جنده … وإذ كانت الرتب العالية لا تتعارض فى نظر أبناء العرب مع الصراحة فإن الجند كثيراً ما يطلعونه على أسرارهم الخاصة . وكنت تراه فى الحروب الأخيرة دائم اليقظة لا يغفل عن الرقابة ، يدهش الناس بسرعة تنقله بين الجند دون أن يشعروا به ، لا يحيط به فى تنقله سـوى أربعة أو خمسة من رجاله .

(١) لين بول فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٦٩ .

وكثيراً ما كان ينام على الثلج فى العراء ليضرب بذلك المثل لغيره . وهو حدب على جنوده ، يعطف عليهم ويحادثهم ، ويصغى إلى قصصهم ، ويبث فى قلوبهم الشجاعة ، ويشاركهم فى شعورهم واجتماعهم ، ويجلس معهم فى مضاربهم كأنه واحد منهم ، ولـكنه لا ينسى قط مقامه ، ولم يعرف عنه أنه ضحى يوماً بشرفه فسفك دماء أحد فى ساعة من ساعات غيظه . ولما كان إبراهيم يعرف أنه بطبعه حاد المزاج سريع الغضب ، فإنك تراه أحياناً إذا استثير يمشى ذهاباً وجيئة ، ويشم السعوط ويطلب قصبة التدخين كأنه يهدئ بهما أعصابه قبل أن يصدر أوامره[(١)] » .

ثم يقول هذا المؤلف نفسه : « وتراه فى ميدان القتال رابط الجأش لا يفارقه هدوءه إذا دنت ساعة الخطر أو ثارت عليه القبائل من حوله ؛ يبث فى جنوده روح الشجاعة والإقدام ، ويضرب لهم بنفسه خير مثل فى البسالة وخوض الغمرات ؛ وكثيراً ما استعان ببعد نظره وصدق فراسته على كشف ما يبث له من المصايد وينصب له من المكائد ... لـكن الجيوش كلها لا تخلو من الساخطين ولم يسلم خير القواد وأعقلهم من أعداء مخادعين فى معسكرهم . وخليق بنا أن لا نحكم على إبراهيم بما يقوله فيه الفرنسيون الواجدون عليه الجاحدون لنعمته ، وأن نستشعر الحذر حينما نقرأ ما كتبته عنه بعض الجرائد الأوربية . وليس معنى هذا أن إبراهيم كان معصوماً من الخطأ ؛ كلا فإن له أغلاطه ؛ ولـكنه لم يكن بالرجل الجلف ولا الهمجى الجاهل المتلهف على المعالى . ولولا جهود إبراهيم لما استطاع والده أن ينجز نصف ما أنجز . وأعلم الناس بذلك هو محمد على نفسه »[(٢)] .

---

(١) باتن فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ١٧٤ .
(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ١٧ .

الفصل السادس

المورة

لم تكن حملة إبراهيم موفقة فى أول أمرها ، وذلك أنها بعد أن أقامت قليلا فى خليج مجرى Magri واصلت السير حتى جزيرة رودس ، فوصلتها فى الثالث عشر من أغسطس عام ١٨٢٤ . وهناك اتصلت بالأسطول التركى الذى كان يقوده خسرو . ورأى القائدان أن تكون تحية اجتماعهما حملة صادقة يبددان بها شمل الإغريق . ولم يكن ميولى Miauli وكنارى Canari أقل رغبة فى القتال من إبراهيم وخسرو . وكانا من البحارة المجربين ، يفهمان عقلية عدوهما ، و يعرفان أن خسرو — أو ضباطه على الأقل — أضعف من أن يحتمل هجوماً على غرة . ولذلك كانت خطتهما أن يبدءا بالهجوم ليمزقا شمل العمارة العثمانية ، قبل أن تنضم لها مراكب المصريين . وقد وصف أحد الضباط الفرنسيين الذين كانوا يعملون فى أسطول إبراهيم سير المعركة وصفاً موجزاً فقال :

« أقلعت سفن القبطان باشا (خسرو) فى أول النهار ؛ أما مراكبنا فتركت مراسيها فى الساعة الخامسة من مساء اليوم نفسه . و بعد أن أطلق القبطان باشا وسفنه على العدو طلقات قليلة ، نكصوا على أعقابهم ورجعوا إلى مقرهم ، ترتعد فرائصهم ، ويسكن الرعب جوانحهم ؛ وكان فرارهم من سفائن تجارية مساحة . وقد غر ضباطها هذا الجبن ، فاندفعوا وراء أعدائهم ، حتى أتوا إلى مجاز ضيق ، وقفت فيه قوات أكثر منهم عدداً . وما وافت الساعة السادسة حتى التحمنا

بالعدو . ولكن بعض فرقاطاتنا رأت من الحكمة أن تخرج من المعمة ، فبقينا وحدنا تقريباً ؛ واستطاع إبراهيم بجرأته وصادق بأسه أن يصد سيل الإغريق الجارف . فلما رأى هؤلاء أن أمامهم خصما قويا لم يحسبوا له حساباً من قبل ، هموا بالرجوع وارتدوا ارتداداً يشهد لهم بالبراعة »[(١)] .

واضطر إبراهيم على أثر هـذه الهزيمة أن يرجع إلى كريد ، يترقب فرصة تسنح له ، لتمكنه من إنزال جيشه إلى بلاد المورة . ولا حاجة بنا إلى القول إن مسلك خسرو العجيب أمام شاطئ رودس لم يزد محمداً عليا وابنه إلا بغضاً لفكرة القيادة المزدوجة . ولقد كان خسرو والباشا من قديم الزمان خصمين استحكمت العداوة بينهما ؛ ويرجع أصلها إلى العهود القديمة أيام أن كان محمد على لا يزال ينازع المماليك السيادة على مصر . أما الآن فقد كان يحركه سبب أجل من الكراهية الشخصية ؛ ذلك أنه كان من بادئ الأمر يبغض فكرة تقسيم السلطة ، ولذلك كتب إلى الباب العالى فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٢٤ كتاباً جمع بين الأسف وشيء من الغبطة الشخصية فقال :

« يؤسفنى كل الأسف أن ما طلبته من توحيد قيادة الأسطول كله لم يجب ، وأن هذا الشرف لم ينله ولدى إبراهيم . وليس يخاف أن النصر فى المواقع الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد . ذلك بأن اختلاف الرأى لا بد أن يؤدى إلى هذه النتيجة السيئة . وقد كانت الحوادث الأخيرة مع الأسف الشديد أكبر دليل على صدق هذه العقيدة »[(٢)] .

ولقد أثمر الثمرة المرجوة هـذا التهديد المقنع ، الذى اشتملت عليـه الفقرات

(١) دريو حملة كريد والمورة (١٨٢٣ — ١٨٢٨) ص ٤٠ .
(٢) مجموعة رسائل محمد على : القاهرة المطبعة الأهلية سنة ١٩١٣ الوثيقة رقم ١٥٨ .

الأخيرة من الخطاب ، وهو أن محمداً عليا وإبراهيم قد يضطران إلى التفكير فى الانسحاب من ميدان القتال ، إذا لم يعين إبراهيم قائداً أعلى للقوات البرية والبحرية المشتركة . وعلى ذلك ولى إبراهيم وحده قيادة الحملة التركية المصرية . وعندئذ صحت عزيمته على أن يقضى الشتاء فى كريد[1]. وما كاد يستهل فصل الربيع حتى أبحر إلى مودون Modon ، وهى ثغر فى بحر اليونان كان يعرف فى قديم الزمان باسم ميثون Methone ، فبلغه هو والقسم الأول من أسطوله فى ٢ مارس سنة ١٨٢٥[2].

وكان إبراهيم شديد الحرص على هـذا السفر المبكر لأن عيونه أبلغوه أن النزاع قد دب فى معسكر الإغريق . وما أصدق ما قاله بلوتارك منـذ قرون من « أن التاريخ يعيد نفسه » . فقد ولدت اليونان الحديثة فى مهد النزاع والشقاق ، ولم تذق للسلم الداخلى طعما ، حتى وقت أن كانت تكافح فى سبيل وجودها ؛ بل كانت الأحزاب اليونانية فى عام ١٨٢٤ تتناحر ، وفى صدورها من الغل ما لا يقل عما كان فى صدورها منه فى عام ١٩٣٤ ، أو فى أى عام آخر نذكره من غير تفكير ولا تعمد .

شبت الحرب الأهلية بين الأحزاب اليونانية فى عام ١٨٢٣ ؛ ولما تم عقد القرض الكبير فى أوربا عام ١٨٢٤ وجاءهم بيرون Byron بالنجم الأول منه ، لم يكن هذا المال طريقاً إلى طلبتهم من الحرب الخارجية فحسب ، بل كان أيضاً سبباً جديداً من أسباب النزاع الداخلى . فقد كانوا من قبل يقتتلون لنيل السلطان فأصبحوا الآن يقتتلون أيضاً ليحرز كل منهم حظه من الغنيمة . وبدأت بذلك

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٥٤ .
(٢) دربو حملة كريد والمورة ص ٥٥ .

« الحرب الأهلية من جديد »[1] ، كما تقول دائرة المعارف البريطانية . ولما دارت الدائرة على كولوكترونس Kolokotrones وحزبه زج هـذا الزعيم فى السجن كما زج جوناريس Gounaris فى السجن بعد ذلك بقرن من الزمان . ولم يقتل كولوكترونس ولكنه اتهم فى إخلاصه ووطنيته . ولسنا نقصد بهذا القول أن التهم التى وجهت إليه كانت أصح أساساً من التهم التى وجهت إلى جوناريس أو التى توجه الآن إلى فينزيلوس Venizelos ، بل كل ما نقصده أن إبراهيم رأى وهو فى مقره الشتوى فى كريد عام ١٨٢٣ — ١٨٢٤ ، أن يسرع إلى بلاد المورة ليستفيد من الخلاف الداخلى المستحكم بين الزعماء اليونانيين .

وكان البحارة اليونانيون فى تلك الأيام ، سواء سميناهم وطنيين أو قرصاناً ، مهرة بواسل ؛ كما كان سكان الجزائر الذين انضموا إلى الجيش اليونانى وحاربوا تحت إمرة تشرش Church وكخرين Cochrane وفبفييه Fabvier وروش Roche ورينولد ده سانت جن دنجيلى Regnauld de Saint Jean d'Angily رجالا أنجاداً أولى بأس وعزم . ولكن ما ذا تجدى الجرأة والبسالة والإقدام وسعة الحيلة ، إذا ما قعد بها الشقاق والغدر وراء صفوف القتال ، وكان أمامها جنود لا يقلون عن أصحابها قوة عزم وسعة حيلة وصدق وطنية ، يقودهم رجل كإبراهيم .

وهكذا استطاع القائد المصرى أن يضرب الحصار على نوارين Navarine ، معقل بلاد اليونان . ولم يلبث هذا الحصن أن سقط فى يده فى الثامن عشر من شهر مايو . وما وافى اليوم الثالث والعشرون من يونيـة حتى سلمت تريبولتزا Tripolitza ؛ وفى الخامس عشر منه كان الجيش يستحث الخطى نحو نوپليـا

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الثالثة عشرة تحت عنوان « حرب الاستقلال اليونانية » الجزء الثانى عشر ص ٤٩٤

Nauplia قصبة بلاد اليونان[١] . وارتاعت أوربا لما رأت من سرعة هذا الفتح ، فعقدت نيتها على أن لا يستكين الصليب للهلال ، وعلى أن لا يقذف إبراهيم فى البحر فبقييه Fabvier « الضابط الفرنسى القدير » الذى يقود « جنوداً ذهبت ريحهم وتضعضعت أركانهم »[٢] ، وصممت على أن تقوم بعمل يرغم رجال السياسة على إنقاذ ذلك الشعب الباسل من الانقراض . لكن كيف يمكن الوصول إلى هذه النتائج ؟ وكيف يستطاع صد القائد المسلم المظفر وهو على أبواب النصر المبين الحاسم ؟ إن ذلك لا يكون إلا إذا استطاع الدعاة أن يدخلوا فى روع الناس أن القائد المصرى هو الشيطان بعينه ، هو أتيلا Atilla المستبيح دماء النساء والأطفال . وبذلك تحركت فى صدور رجال من ذوى الشرف والنزاهة عوامل البغضاء ، فأطلقوا لخيالهم العنان ، وأخذوا يتهمون إبراهيم بخرق حرمة جميع قوانين الحرب « المتمدينة » .

لقد أشرنا من قبل إلى ما يسميه دروڤتى Drovetti ، القنصل الذى كان يمثل كلا من فرنسا والروسيا ، « الآراء الإنسانية » التى كان يسترشد بها محمد على عند ما وجه إبراهيم إلى بلاد اليونان . على أننا نسلم بأن الأوامر التى تصدر إلى الضباط فى الميدان ليست كبيرة الجدوى ، وأن أهم شىء فى المسألة هو كيفية تنفيذ هذه الأوامر . ولذلك كان من حسن حظنا أن عثرنا على شهادة رجل فرنسى يدعى لوڤرنى Louvergne كان فى بلاد المورة أثناء الوقائع التى دارت رحاها فى عام ١٨٢٥ . وفى كتابه المنشور فى عام ١٨٢٦ ما يشهد بإخلاصه وأمانته قال :

« وفى اليوم الثانى تقابلت مع سليمان ...... ودار بينى وبينه حديث طويل

(١) صبرى فى كتابه السالف الذكر ص ٩٤ .
(٢) لين پول فى كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٤٤٢ .

أخبرنى فى سياقه أن محمداً عليًّا حتم على ابنه أن يوسم نزوله فى بلاد المورة بميسم الرأفة ، لكى ينطبع فى نفوس رعاياه الجدد أنه لم يأت ليحاربهم بل ليهدئ ثورتهم » .

وبعد أن أيد لوڤرنى Louvergne بقوله هذا ما أنبأتنا به من قبل الرسائل القنصلية ، أخذ يصف ما كان للمال الذى جاء به بيرون من أوربا من أثر سيئ فى قوة اليونانيين المعنوية ، وبعد أن استنتج من ذلك أن إبراهيم لم يكن يستحيل عليه أن يصل إلى نوارين بشرائه ضمائر اليونانيين قال :

« ولو تم له ذلك لنادى به السكان والياً على المورة ، ولأعلن هدنة عامة إرضاء لليونانيين الذين استسلموا له . ويؤيد رأيى هذا ما شهدته بنفسى فى سهول مودون Modon ؛ فقد رأيت الفلاحين اليونانيين يقبلون يد إبراهيم ، وهو يأمرهم بالانصراف قائلا لهم : أبلغوا الناس جميعاً أنى أبوكم وأننى لن أقسو إلا على العصاة الثائرين »[(1)] .

لكننا لا نعلق على هذه الشهادة أكثر مما تستحقه من الأهمية ، فقد يفهم البعض من قول إبراهيم : « إننى لن أقسو إلا على العصاة الثائرين » أنه كان يعامل أعداءه بمنتهى الشدة ، وإن كنا نحن لا نقبل هذا التأويل ، ونفضل أن ننظر إلى المسألة نظرة أخرى ، نقيم الدليل عليها من حياة لورد اسرتفورد ده ردكلف . فقد نقل استانلى لين پول عن جورج كاننج وزير الخارجية البريطانية وقتئذ أنه كتب إلى سفيره فى الآستانة يقول : « أظن أنى قد وصلت إلى ما يشرح صدرك إن لم أقل ما يرفع قدرك ، بعد أن هيأت لى سببا جديدا للتدخل ،

(١) ذكريات عن اليونان فى أثناء حملة ١٨٢٥ تأليف ه . لوڤرنى طبعه فى باريس أڤريل ده جاستل سنة ١٨٢٦ ص ٦٧ .

أجلّ شأناً من أى سبب آخر كنا نستطيع أن نتعلق به للوصول إلى بغيتنا ؛ ذلك هو الخطة التى تسير عليها الحرب فى المورة فى الوقت الحاضر ، تلك الخطة البربرية التى ترمى إلى بربرة المورة . حقا لقد طالما رأينا الطرفين يسفكان دماء الأسرى ، لكن بيع الناس كالعبيد فى الأسواق ، وإرغامهم على ترك دينهم ، وإخراج المسيحيين من بلادهم ، وإسكان المسلمين فى ديارهم ، تلك كلها موضوعات (أستغفر الله بل حقائق) جديدة فى نوعها ، جديدة فى المبادئ التى تقوم عليها ، جديدة وغريبة فى آثارها ، ولم يكن أحد يتصورها من قبل . ويقينى أنه يستطاع اتخاذها أساسا جديدا للقول إن لم أقل للعمل . . . ومما يزيدنى حبا لها أنها لا شأن لها بأبامينونداس أو سانت بول (الرسول الموقر) »(1) .

ويبدو لنا أن هذه الرسالة التى بعث بها وزير خارجية إلى سفير له تظهر بأجلى بيان موقف الغرب من إبراهيم على الرغم من صفتها الشخصية . فهى تتهمه بسفك دم الأسرى ، ولكنها تقول إن اليونانيين سلكوا نفس هذا المسلك ؛ ولم تذكر لنا أى الفريقين كان هو البادئ بهذا العمل الشنيع . فإذا كان الثوار هم الذين بدءوا به فما أجدرهم بتحمل عواقبه كلها . ولما كانت معلوماتنا فى هذه الناحية ناقصة ، فإننا نقر صراحة أننا لا نستطيع أن نقف على الحقيقة بأكملها . لكننا مع ذلك نشعر بأننا لا نخطئ إذا استنتجنا مما كتبه چورج كاننج إلى ابن عمه أن وزارة الخارجية كانت تلتمس الحجج لتبرر بها هجومها على إبراهيم . والتهم التى توجه إلى إنسان بمثل هذا الروح تكاد تكون على الدوام عرضة للنقد والتجريح .

(1) لين بول فى كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٤٠٣ ومعنى قوله إنها لا شأن لها بأبامينونداس أوسانت بول أنه لا شأن لها بالوطنية أو الدين بل أساسها المبادئ الإنسانية . (المعرب)

ويوافق صاحب سيرة لورد استرتفورد ده ردكلف على أن مايسميه جورج كاننج « بربرة » المورة لم يكن معظمه إلا دعاية محضة ، انظر إلى قوله :

« وكان الريس أفندى إذا ووجه بهذه القبائح أعرض عنها ، فأنكر بعضها وادعى أن فى البعض الآخر مغالاة ، وانتهى بقوله إن اليونانيين لم يكونوا خيرا من رجاله . ومما يؤسف له أن هذا القول صحيح كما يشهد بذلك سقوط تريولتزا ونوارين ، فقد اضطلع الثوار بحظ وافر من الغدر والتقتيل ، حتى اضطر كاننج نفسه إلى الاعتراف بأنه على الرغم من حبه الخير للإغريق ، لا يستطيع أن ينكر أنهم جميعاً ، إلا قليلاً منهم ، فئة ضالة منحطة »(١) .

على أننا لا يسعنا أن نوافق على هذا الاتهام الشامل ، الذى يعزوه لين پول إلى لورد استرتفورد ده ردكلف . وإذا كنا قد نقلنا هذا القول فليس ذلك لأنه يتفق مع آرائنا ، بل لأننا نريد أن نظهر منشأ المطاعن التى وجهت إلى إبراهيم حين أراد كما يقولون أن « يبربر » المورة . فهذا القول يدل على أن الغرب لا يستنكف أن يغفر للإغريق ما اجترحوه من السيئات ، وأن يتذرع بالانتقادات والتهم والدعاوى الباطلة للطعن على القائد المسلم والتشهير به . ولا شك فى أن بلوغ تلك الغاية الخلقية من هذا الطريق عمل لا يتفق مع مبادئ الدين ولا العدالة فى شىء . . . ولكنها خطة أطلقت لسان هذا المؤلف نفسه بهذا القول :

« لو اطلعت على تاريخ الدبلوماسية كلها ، لما وجدت فيه فصلاً كله زور ومنقصة وتضليل ينكس الأبصار ، مثل ذلك الفصل الذى يشتمل على المفاوضات الأولى لتسكين بلاد اليونان »(٢) .

---

(١) لين پول الجزء الأول ص ٤٠٣ .
(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤١٠ .

وبينما كانت الحكومات الأوربية تجمع أمرها للعمل على تسوية سمعة إبراهيم ، لكى تتحرر بلاد اليونان ، كان القائد المصرى يصلى العدو نارا حامية . وقد استطاع فى شهر سبتمبر من عام ١٨٢٣ أن يتصل برشيد باشا القائد التركى الذى كان محدقا بمسولنجى Missolonghi منذ شهور . وقد قاومت المدينة المحاصرين مقاومة الأبطال ، لـكنها سقطت فى أيديهم فى الثامن والعشرين من شهر إبريل عام ١٨٢٦ .

فلما أثمر الحصار ثمرته النهائية المحتومة ، وسقطت مسولنجى وفتحت بذلك الطريق إلى أثينا ، أيقن جورج كاننج أن مصير اليونان أضحى فى يد الدول ، وأن تدخلها بشكل ما أصبح أمراً لا مفر منه إذا أريد استنقاذ هلاس للحضارة الأوربية . وسرعان ما هـــداه عقله اليقظ إلى أن دوق ولنجتن Duke of Wellington هو خير من يعهد إليه بتدبير خطة العمل مع قيصر الروسيا ، دون أن يفاوض فى ذلك فرنسا و بروسيا والنمسا . وكان ولنجتن قد أعلن وهو عطل من الوظيفة أنه على استعداد دائم لخدمة مليكه فى أى منصب شاء ؛ فلما عرض أمر بعثة سانت بطرسبرج على الدوق لم يقبلها فحسب ؛ بل فرح بها كل الفرح [(١)] » .

وبدأ ولنجتن حملته السياسية فى الروسيا فى شهر فبراير من عام ١٨٢٦ ، وقد وصف جودلا هذه الحملة بقوله : « وقذف بنفسه فى تيار من الدبلوماسية ، تتخلله المآدب الروسية المكونة من الهليون الأصفر والقواقع البحرية . وكانت لياليه كلها كما وصفها بعضهم « بهجة ومرحاً للدوق » ، كما كانت أيامه كلها

(١) الدوق تأليف ڤليب جودلا طبعه فى لندن هدروا سوتن سنة ١٩٣١ ص ٣٤٦ .

سياسة واستعراضاً [١] » . وقد تمخض هذا الجو المشبع بالسرور والانشراح عن عهد يضمن لبلاد اليونان نوعاً من الاستقلال المقيد ، ترعاه إنجلترا والروسيا .

لكن يلوح أن الدوق قد تجاوز التعليمات التى زود بها . وكان چورج كاننج [٢] فى ذلك الوقت وزيراً من وزراء الدولة ؛ ومع أنه من الأحرار فقد جعله مركزه أكثر محافظة من (ولنجتن) الرجعى الذى لا يشغل منصباً فيها . ولذلك حصر رغباته فى تلك العبارة التى نقلناها من قبل « تقدم بها (الشكاوى التجارية) ولج فيها ، لأننا إذا كان لا بد لنا من إثارة النزاع فعلينا أن نضم المصالح التجارية إلى جانبنا » . وكان چورج كاننج يدرك أن هذه « المصالح التجارية » فى ربيع عام ١٨٢٦ فى صف اليونان ، لكنه كان يخشى أن لا يبلغ ارتباطها بها حدا يجعلها ترحب بالعهد الذى وقع فى ٤ أبريل عام ١٨٢٦ .

« وكان الدوق يكيف نفسه حسب الظروف ، وإن كان نقاده يحلو لهم أن يظنوا أنه لم يكن يعرف ما يفعل [٣] » . ومعنى هذا أنه إذا كان ما يقوله جودلا صحيحاً ، كانت الخطة السياسية النهائية التى أدت إلى استقلال اليونان ، من وضع رجل لا يعرف ما يفعل ، ولكنه مع ذلك تجاوز نص التعليمات التى زود بها . ولكن ما لنا ولهذا ، فسواء أكان ولنجتن قد تجاوز هذه التعليمات أم لم يتجاوزها ، فإن الاتفاق الإنجليزى الروسى الذى وقع فى ٤ أبريل من عام ١٨٢٦ أصبح حقيقة واقعة ، ويجب النظر إليه على أنه كذلك . ولقد استيقظ على أثره مترنيخ Metternich من سباته ورجعيته ، فسمى چورج كاننج « آفة العالم [٤] » .

(١) المصدر عينه ص ٣٤٨ .
(٢) المصدر عينه فى نفس الموضع .
(٣) المصدر عينه فى نفس الموضع .
(٤) تاريخ اليونان السياسى من ١٨٢١ إلى الوقت الحاضر جزء أول ص ٣٢٠ .

ولم يلبث مترنيخ أن رأى أن المايرة لن تغنى عنه شيئاً ، وأن من الحكمة أن يساير الزمن . وظلت فرنسا ترقب مجرى الأمور ، فلما تكشفت لها سارت هى الأخرى مع التيار . وكان ملكها قد وصلته من مصر أربعة جياد وفيل صغير ، أما ابنه ولى العهد فقد أهديت إليه أربعة جياد وليس معها فيل ، فى نظير البعثة الحربية البحرية التى أرسلت إلى مصر لتشترك فى تأديب اليونانيين [1] . وقد امتعض مستشارو شارل العاشر أيما امتعاض من الخطة التى جرت عليها إنجلترا والروسيا ، إذ أخفيتا عنها مكنون دخيلتها . واحتفظ الملك وولى عهده بالفيل والجياد ، وطالبت البعثات الفرنسية أن يتسع عهد ولنجتن — نسلرود Willington Nesselrode حتى يصبح عهداً يتحلى بتوقيع ممثل لفرنسا [2] .

فلما أصر المسيو ده ڤليل M. de Villèle هذا الإصرار على أن الضمان غير كاف ، وعلى أن تكون فرنسا « أحد المتعاقدين » ، تحول مجرى الأمور ، وتبين أن الدول أخذ ينافس بعضها بعضاً لترى أيها تستطيع أن تكون أكثر زلفى من هذا الكوكب الجديد ، الذى أوشك أن يسطع فى سماء جماعة الأمم . وكانت نتيجة هذا التنافس أن عقدت المعاهدة المعروفة بمعاهدة لندن فى السادس من يوليه عام ١٨٢٧ . وبمقتضى هـذا الاتفاق عرضت إنجلترا وروسيا وفرنسا وساطتها على تركيا بقصد إنهاء الخلاف القائم بينها وبين اليونان .

وقد نصت إحدى مواد هذا الاتفاق على أنه إذا لم يقبل الباب العالى هذه الوساطة فى خلال شهر من الزمان ، ويوافق على وقف القتال ، فإن الدول تتفاوض فيما بينها « لتفرض الهدنة على الطرفين بمنعهما من مواصلة القتال ، من

(١) حملة كريد والمورة تأليف دريو ص ٥٢ .
(٢) تاريخ اليونان السياسى جزء ١ ص ٣٤٥ .

غير أن تشترك هى فى الحرب »[1] . وليس فى مواد المعاهدة كلها ما يوضح الطريق الذى كانت إنجلترا والروسيا وفرنسا تفكر فى سلوكه لبلوغ هذه الغاية ، ولكنه يذكر مع ذلك « أن أمراء الأساطيل المختلفة فى شرق البحر الأبيض المتوسط سيتلقون التعليمات الضرورية » ، وقد كتبت هذه التعليمات بالفعل وأصبح من المستطاع تحليلها .

وبينما كانت هذه المناورات الدبلوماسية قائمة على قدم وساق ، لم يكن إبراهيم يضيع وقته سدى ، بل استولى فى أثناء ذلك على أثينا بعد استيلائه على مسولنجى وضرب الحصار على الاكروبولس Acropolis ، ودار القتال حولها ودافع عنها اليونانيون بقيادة الكولونيل فبقبيه دفاع الأبطال . ولكن الدائرة دارت عليهم فولوا اللورد كحرين Lord Cochrane (إرل دندونالد Earl Dundonald) قيادة الأسطول ، وعقد لواء الحملة البرية للجنرال تشرتش الذى أصبح السير رتشرد تشرش Sir Richard Church فيما بعد . ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً ، ولم يمح ما خط لهم فى لوح القضاء ، فسلمت الإكروبولس فى الخامس من شهر يونيه عام ١٨٢٧ .

ولا جدال فى أن هذا القضاء المبرم قد عجل بتوقيع معاهدة لندن فى السادس من يولية سنة ١٨٢٧ . وذلك لأن الدول أيقنت أنها إذا لم تتدخل فى الأمر تم لإبراهيم الظفر . وكان أعدى أعداء الإغريق هو ما طبعوا عليه من انقسام لا تشفى منه نفوسهم . فقد كانت الجمعيات المتنافسة والرؤساء المتعادون يتقاتلون على السيادة ، بينما كان الحصار مضروباً على مسولنجى ، ولم يحل شهر مارس من عام ١٨٢٧ حتى عمت الفوضى صفوف الإغريق . وقد قالت فى ذلك دائرة المعارف البريطانية

(١) المصدر عينه ص ٣٦٦ .

« استمرت نار الحرب بين روميليوتس Rumeliotes ، موريوتس Moreotes و بين كل زعيم وزعيم ؛ وأخذت الأحزاب المتنافسة تضرب بعضها بعضاً بالمدافع من قلعتى نوپليا مستهزئة بالحكومة العاجزة ، على مرأى من المدينة البائسة » .

و بعد أن برهنت دائرة المعارف البريطانية على أن أغريق عام ١٨٢٧ ، مهما بلغت شجاعتهم ، قد أضحوا وقتئذ جماعات من الرعاع ، قطع النزاع الحزبى أوصالهم بعد أن برهنت على ذلك قالت :

« و بعد أن ظل إبراهيم عدة شهور لا يعمل شيئاً بدأ ينفذ خطته التى ترمى إلى تخريب البلاد تخريباً منظما . ولكى تحول الدول بينه و بين هـذا العمل ، قررت أن تتدخل فى الأمر ، فتقوم أساطيلها بمظاهرة مشتركة لكى تقف سير القتال ، وترغم إبراهيم على إخلاء بلاد المورة » .

ويتضح من هذا أن ما عزاه چورج كاننج إلى إبراهيم من أنه « يبربر » المورة كان يقصد به أن تتذرع به الدول للتدخل فى المسألة اليونانية . ولكنهم يقرون مع ذلك أن إبراهيم ظل لا يقوم بعمل ما عدة شهور . ولذلك لا يبعد أن تكون الدماء التى أريقت وثارت من أجلها نفوس أوربا ، لم يرقها سيف إبراهيم ، بل أراقتها سيوف اليونانيين فى كفاحهم الداخلى . ذلك بأن الأحقاد الأخوية ، إذا استثير دفينها ، تعمى أبصار الأشقاء وتذهب بعقولهم . ومن هم الذين يستطيع إبراهيم أن يفاوضهم إذا كانت القرى تستسلم إليـه واحدة إثر واحدة ، و إذا لم تكن فى صفوف اليونانيين سلطة تتولى أمورهم وتمثل القانون والنظام ؟ ولا يبعد أن يكون إبراهيم قد اضطر إلى اتخاذ إجراءات صارمة ، لا لقسوة فى طبعه بل بسبب الفوضى التى ضربت أطنابها فى بلاد اليونان . ولكن الذين يستطيلون فى عرضه ، ويصوبون سهامهم إلى سمعته ، يغفلون عن هذه الحقائق ، ويفضلون أن يصوروه

بصورة الرجل الهمجى المتعطش لسفك الدماء .

وفى استطاعة الإنسان أن يتبين مقدار الصعاب التى كان يواجهها إبراهيم من الرسالة الرسمية التى بعث بها أمير البحر ده رنى Admiral de Rigny إلى وزارة البحرية ، والتى يقول فيها : « يفرض الناس عادة أن الحكومة اليونانية سلطة معترف بها ، إن لم يكن فى البلاد كلها فلا أقل من أن يكون فى المناطق التى لا تخضع لحكم الأتراك ، وأنها هى التى تسير الحركات الحربية ، وأن لها أسطولا يأتمر بأمرها . وهذا ظن بعيد عن محجة الصواب ؛ فالجيش إذا وجد يقوده اليوم ضابط وغدا ضابط آخر ؛ أما السفن فهى ملك لأصحابها ، تخضع لأمرهم ، وبحارتها يخدمون الميوليين Miaulis يوماً ثم يتركونهم ليقوموا بخدمة الكناريين Canaris يوماً آخر وقلما يثبتون على ولائهم لزعيم [1] . »

ولم يكن الساحل اليونانى إلا مباءة للقرصان ومعششاً لهم ؛ وقد صور لنا دون Douin صورة البلاد فى ذلك الوقت بقوله :

« لا تستطيع سفينة أن تسير بمفردها عشرة فراسخ حتى تهاجم . ذلك بأن القرصان يكمنون وراء صخورهم ينتظرون قدوم السفن التجارية ، حتى إذا وقفت واستيقنوا من عنانها ، خرج اللصوص عليها من مكامنهم المجهولة فى قوارب الصيد . وهم لا يخرجون إلى البحار إلا إذا وثقوا من قدرتهم على غنيمتهم ؛ وليس فى الاستطاعة القبض عليهم ولو جهزت لذلك خمسون بارجة حربية ؛ ولا سبيل إلى تطهير البحر منهم إلا إذا أنزلت حملة إلى البر وطاردتهم فى داخل البلاد » [2] .

وهذا ما قام به إبراهيم بالضبط . فحرى به إذاً كانت حرب المدنية على القرصنة ،

(١) من ده رنى إلى الوزير فى ٢٣ مارس سنة ١٨٢٦ نقله عنه دون فى الصفحة الثامنة من كتابه « نوارين » .
(٢) المصدر عينه ص ٤ .

حرب الشمائل الكريمة على التخريب والإتلاف ؛ ولكن عرضه أصبح غرضاً لسهام الكاملين ، لا لشيء إلا أنه مسلم ، ولأن العابثين المفسدين مسيحيون . ولسنا نحاول بهذا القول أن ندخل فى روع القارئ أن إبراهيم خليق بأن يثبت اسمه فى سجل الشهداء أو القديسين ، ولو حاولنا لما استطعنا وأمامنا قول موريه Mouriez :

« كان سقوط مسولنجى إيذاناً بسقوط أثينا وكل بلاد اليونان . وعاد إبراهيم بعد ذلك إلى أرض البلوبونيز Peloponnesus مغضباً لما لحقه من الخسائر أثناء الحصار . وهناك أخذ يثأر لنفسه ، فارتكب فى هذه البلاد من الفظائع ما يربى على ما ارتكبه من قبله الأتراك والألبانيون . وكان الذى أثار غضبه بوجه خاص ما اقترفته عصابات الكلفت (اللصوص) الذين كانوا يفرون أمام فيالقه ، ثم يهاجمون حراس مؤنه ومخافره . ولما عجز عن القبض عليهم خرب الديار ليثأر لنفسه منهم ، فقطع أشجار الزيتون وأحرق الزرع وقتل العزل من الأهلين »[1] .

وتلك الأمور هى التى بررت قول چورج كاننج : « كثيراً ما رأينا الجانبين المتقاتلين يسفكان دم الأسرى » ؛ ولكن إبراهيم قد التجأ إلى القصاص ، ولم يبدأ بالعدوان حتى شرع اليونانيون يطلقون النار على اليونانيين ، وحتى عجز عن أن يجد منهم وراء صفوف القتال من يستطيع أن يفاوضهم ، وحتى خرقت العصابات المسلحة كل قوانين الحروب المتمدينة .

قد لا يكون فى هذه الحقائق كلها ما يبرر مسلكه ، ولكن فيها ما يدمغ موقف الدول بالنفاق الخبيث ، وما يبرر قول لين پول الذى نقلناه من قبل وهو :

(١) موريه فى كتابه السالف الذكر ص ٢٩٨ .

« لو اطلعت على تاريخ الدبلوماسية كلها لما وجدت فيه فصلا كله زور ومنقصة وتضليل ينكس الأبصار ، مثل ذلك الفصل الذى يشتمل على المفاوضات الأولى لتسكين بلاد اليونان » .

ومما يعلى من قدر الڤيكونت استرتفورد ده ردكلف أنه قبل أن يعين سفيرا لجلالة ملك بريطانيا فى الآستانة ، قرر أن لا تعود اليونان مرة أخرى إلى حكم الأتراك . وفى ذلك يقول صاحب سيرته : « إنه أرسل لكى يعمل لبلوغ هذه الغاية . ومع أنه عرف من أول الأمر ما سوف يلاقيه من العقبات ، فإنه جد فى العمل لهذه القضية بكل مافى طاقته »[1] ، وليس يسع المؤرخ المسيحى إلا أن يحمد له نبيل مقصده ، وأن يعجب لثباته وصلابته ، ويغتبط بما حققه من غايته ؛ ولكنه لا يستطيع أن يرضى بالمثالب التى وجهت إلى اسم إبراهيم ، ولا بالسجف التى تسدل عادة على ما اتصف به اليونانيون من نقائص ، وما استباحوا من دماء لم يفرقوا فيها بين أعدائهم الأجانب وخصومهم من أبناء البلاد .

---

(١) لين پول الجزء الأول ص ٣٩٨ .

الفصل السابع

الخطط الدبلوماســية

لم يكن أمير البحر ده رنى Admiral de Rigny بحارا فحسب ، بل كان أيضاً رقيبا دبلوماسيا ؛ وكان يعرف مخابئ شرق البحر الأبيض لا تخفى عليه منها خافية . وكانت الحكومة الفرنسية بفضل تقريراته عالمة كل العلم بأحوال البلاد الواقعة فى شرق هـذا البحر ؛ ولم يفته فى هذه التقريرات أن يؤكد أن الأسطول اليونانى أصبح أثرا بعد عين ، وحلت محله جماعات من القرصان . ولم يتردد فى وصف الجنود اليونانيين بأنهم لصوص وقطاع طرق ، يهتمون بالسياسة الحزبية أكثر من اهتمامهم بالاتحاد لمحاربة أعدائهم المسلمين . ومع ذلك فقد كانت آراؤه آراء الرجل المسيحى الذى يؤمن بحق تقرير المصير ، والذى يرغب أن يرى الصليب يظفر بالهلال . وقد كتب فى شهر يونية من عام ١٨٢٦ مذكرة طويلة يذكر فيها ضرورة التدخل العاجل ، ويصف : « الحال الطبيعية والخلقية السائدة فى هـذه البلاد البائسة (اليونان) ، وهى حال تزداد سوءا كل يوم ، وقد تصـل إلى حد يصبح فيه كل تدخل لخير أهل البلاد مستحيلاً أو عديم الجدوى »(١) .

و بينما كان هذا الضابط البحرى الفرنسى يسابق الدعاة الإغريق وأصدقاءهم الفرنسيين إلى الضغط على الحكومة الفرنسية ليحملها على معاونة اليونان ، كان

(١) وزارة الخارجية الفرنسية — مذكرات ووثائق — اليونان رقم ٨ نقلها دون فى كتابه السالف الذكر عن نوارين ص ١٠ .

اللورد استرتفورد ده ردكلف يضطلع بنفس هـذه المهمة بالنسبة إلى الحـكومة البريطانية . وكان صريحاً فى موقفه إذ جهر بأن اليونانيين قد أظلم عليهم يومهم ، وأصبحوا لا ينجيهم من شقائهم إلا تدخل الدول فى أمرهم [1] ؛ وكان يؤمن بهذا إيماناً دفعه إلى أن يكتب إلى لورد ددلى Lord Dudiy الذى خلف جورج كاننج فى وزارة الخارجية يقول :

« اصرف عنايتك فى المعاهدة وأعنا على أن تقبل قبولاً حسناً ؛ وإلا فرجائى إليك يا سيدى أن تسمح لى بترك منصبى ؛ لقد أصبحت حياتى هنا فى الأيام الأخيرة كحياة الكلاب ، ولـكننى لا أحب أن أعامل معاملة الكلاب » [2] .

وقد عنينا بالكلام على موقف السفير البريطانى وأمير البحر الفرنسى ، لأن معاهدة ٦ يولية من عام ١٨٢٧ تركت أمر تنفيذ العهد من الوجهة العملية للرجال الدبلوماسيين المعينين لدى السلطان ، ولضباط الأساطيل المرابطة فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وإذا رجعنا بعـد ذلك إلى محتويات الـكتاب الأزرق والـكتاب الأبيض وجدنا فيهما وثائق ملحقة بالمعاهدة جاء فيها :

اللحق (ا) : « تعليمات موحدة النص مرسلة إلى سفراء إنجلترا وفرنسا والروسيا فى الآستانة » [3] .

الملحق (ف) : « تعليمات ثانية موحدة النص صادرة إلى قواد الأساطيل التابعة للدول المتعاقدة العليا » [4] .

ولقد بلغت هـذه المعاهدة من الغموض حدًّا يعجب به أشد المتحذلقين ؛

---

(١) ابن پول فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٤٥ .
(٢) المصدر عينه ص ٤٤٧ .
(٣) نوارين تأليف دون ص ٦٩ .
(٤) المصدر عينه ص ٧٧ .

ووقعت لأن ضمائر أهل الغرب ترغب فى طرد الأتراك من أوربا ، وإن كانت نفوسهم لم تؤت من الشجاعة ما يكفيها لأن تسخر من مبادئ القانون الدولى ، وتجهر برغبتها من غير مداجاة ولا مواربة . ولذلك أضيفت مواد سرية إلى الشروط العلنية فى الاتفاق ، ورضوا بأن تبقى هذه وتلك مبهمة إلى أقصى حدود الإبهام . وقد أضيفت هـذه الملحقات « إرضاء لعواطف تركيا وإجابة لمطالب اليونان » ؛ وسننقل للقارئ شيئاً من الملحق حرف « ف » الذى يبـدأ بالفقرات الآتية :

« لما قرر ملوك فرنسا وإنجلترا والروسيا عرض وساطتهم على الباب العالى ، كان عليهم أن يقدروا أن اقتراحهم هذا ربما لا يلقى قبولاً . ولذلك اتفقوا فيما بينهم على أن يضموا إلى المعاهدة مادة سرية ، تنص على أنه إذا لم يقبل الباب العالى وساطة الملوك الثلاثة بعد شهر من الزمان ، فإنهم سيتخذون الوسائل التى تمكنهم من فرض الهدنة التى يرغبون فيها .

« أما الوسائل التى تم الاتفاق عليها فهى تمكين العلاقات الودية بينهم وبين اليونانيين ، واتحاد أساطيل الدول المتعاقدة فى العمل على منع وصول إمدادات من الرجال أو الأسلحة أو السفن أو الذخائر إلى بلاد اليونان أو إلى جزائر الأرخبيل »[1] .

وإذا ذكرنا أن صورة من الملحق حرف « ف » كان مقرراً إرسالها إلى أمير البحر ده رنى لم يصعب علينا أن نتصور ما فهمه هو من هـذه التعليمات . أما قائد الأسطول الروسى فلسنا نعرف عن مزاجه شيئاً ، ولا نريد أن نفحص سجلاته لأن شخصيته تتوارى عن الأنظار فى قصتنا . لكننا يهمنا أن نزيح

(١) المصدر عينه فى نفس الصفحة .

الستار عن أعمال قائد العمارة البريطانية . وأول ما نذكره أننا لا نستطيع أن نتصور رجلاً إنجليزيا يشغل مكانة ثانوية فى مظاهرة بحرية إنجليزية — فرنسية — روسية . لذلك برز القائد الإنجليزى إلى الأمام . وكان القائد فى هـذه الحادثة هو السير إدورد كدرنجتن Sir Edward Codrington الذى قدر له أن يتصل شخصيا بإبراهيم . وكان قد تلقى الأوامر العامة المرقومة بحرف « ف » ، وهى أوامر واضحة فى ذاتها ، ولـكن كدرنجتن طلب تعليمات أكثر وضوحا وصراحة ، ولم يتردد فى أن يكتب إلى السفير البريطانى بالآستانة ليطلب إليه إرسال تعليمات إضافية . وسننقل عن مذكرات لورد استرتفورد ده ردكلف ما حدث بعدئذ ، فقد كتب السفير المظيم يقول :

« أبحر السير إدورد كدرنجتن من إنجلترا وشعاره المكنون فى صدره و إن لم يكتب على لوائه هو « أقدم يا ند ولا تهب[1] » . ولم يكد يصل إلى مقره عند شواطئ المورة حتى بعث إلىّ برسالة سرية يعلن فيها ألمه من غموض المهمة المكلف بها ، ويطلب معلومات قد تساعده على إيضاح الطريق الذى سيسلكه . ولما كنت دائماً أؤمن بأن من الظلم أن تعطى أوامر مبهمة إلى ضابط ألقيت عليه التبعات التى تستلزمها طبيعة عمله ، فقد صغت جوابى إلى أمير البحر فى عبارات واضحة بقدر ما تسمح لى به التعليمات التى لدى ، فأجبته بمـا يأتى :

« أعملت الفكر و بحثت مع زميلى الـكونت جيمنو Guilleminot ومسيو ده ريبو يير M. de Ribeaupièrre فى المسائل التى ذكرتها فى رسائلك السرية والتى قلت إنك تحدثت إلى الكابتن ده رنى بشأنها ، استعداداً لما سوف تدعى إليه من العمل لتنفيذ الأوامر التى لديك ، إذا ما رفض الباب العالى مقترحاتنا .

(١) ند : هى اختصار إدورد . (المعرب)

وإجابة لطلبك أقول إنه فيما يختص بموضوع « التصادم مثلا » ، قد اتفقنا على أن الإجراءات التى تتخذها يجب أن لا تتخذ بروح عدائى ، وعلى أن الحكومات المتحالفة تقصد بطبيعة الحال أن تتجنب بقدر المستطاع كل ما قد يؤدى إلى إشعال نار القتال ؛ ولكن مع هذا كله فإن منع استيراد المؤن الوارد ذكرها فى التعليمات التى لديك ، هو أمر لا بد من تنفيذه بالمدفع فى النهاية إذا دعت الضرورة واستنفدت جميع الوسائل الأخرى »(١).

هـذه الفقرة المقتبسة من مذكرات لورد استرتفورد ده ردكاف كبيرة الدلالة ؛ ولكنها لا تلقى ضوءاً ما على مزاج كدرنجتن . على أن عبارة « أقدم يا ند ولا تهب » التى وردت فى سياقها تدل على أن هـذا الضابط الشهم يمتاز بالجرأة والبسالة أكثر مما يمتاز بالحصاة والحذر . وتلك عوامل كبيرة الأهمية فى نظرنا ، لأننا نعتقد اعتقاداً قويا أن العامل الشخصى كثيراً ما يكون له أثر عظيم فى تقرير مصير الأمور السياسية . ونضيف إلى هذا أن أيام الصيف ومبدأ الخريف ، وهى الأيام الطويلة التى قضاها القوم فى ثغور اليونان وقرب شواطئها ، تكون فى بعض الأحيان قائظة الحر منهكة للأعصاب ؛ وقد وقف إبراهيم أمام أسطول الحلفاء وجهاً لوجه عدة أسابيع . ولسـنا نشك فى أن مزاج كدرنجتن الشخصى الشاذ كان من العوامل التى لا بد أن يحسب لها حساب عند البحث فى مشكلة نوارين من الوجهة التاريخية .

وقد أعاننا اللورد ده ردكلف على تفهم تلك المؤثرات إذ كتب فى ذلك يقول :

« لو كنت أعلم شيئاً عن مزاج سير إدورد الحاد المضطرم لوجب علىّ أن أتحاشى ذكر عبارة « بالمدفع » وأن أستبدل بها العبارة الأكثر منها دبلوماسية

(١) لين پول فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٤٨ .

عبارة الإرغام أو الوسائل القهرية ، وذلك رغم أنى كنت أكتب إليه بصفتى الشخصية »(١).

ويلوح لنا أنه من السفسطة أن يحاول التفرقة بين « المدفع » و « العبارة الأكثر دبلوماسية عبارة الإرغام أو الوسائل القهرية » . وتذكرنا محاولة السفير الإنجليزى التفرقة بين تلك العبارات بأمثلة يذكرها فولر Fowler فى مقال له فى قاموس الاصطلاحات الإنجليزية الحديثة عنوانه « Genteelism » ويقصد به إغفال اللفظ الطبيعى العادى الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، واستعمال مرادف له يظن أنه أقل منه ذيوعاً .

على أن هذه السفسطة الكلامية لن تخفى الحقيقة الواقعة ، وهى أن المعنى المفهوم من هذا الجواب الذى أرسل إلى كدرنجتن أنه يؤمر بالقتال إذا توافرت لديه شروط خاصة . ولم يكن لورد استرتفورد ده ردكلف حين كتب هذه العبارة المشئومة يعلم أن أمير البحر قد أرسل إلى أخيه فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٢٧ خطاباً يقول فيه :

« لم أشعر بالرغبة فى إذكاء نار الحرب مرة أخرى إلا فى هذا الوقت . وإنى لقوى الاعتقاد بأن الحرب قد تكون فى هذه البلاد أرحم وسيلة لحسم النزاع ؛ ذلك بأن عملا واحداً من أعمال القوة كفيل بأن يخضع الباب العالى لإرادتنا ؛ وعندئذ نستطيع أن نفصل فى الأمر كله كما نشاء ، ونضم بعد ذلك قندية إلى أملاكنا — وهو أمر فى نظرى مرغوب فيه كل الرغبة . لكن المفروض أننى سأتلقى الأوامر التى أتصرف بمقتضاها ، وأن تصرفى لن يكون بوحى أفكارى »(٢).

(١) المصدر عينه ص ٤٤٩ .
(٢) ذكريات من حياة أمير البحر السير إدوارد كدرنجتن نشرتها ابنته السيدة بوشيير بلندن طبعة لنجمان وجرين وشركائهما ١٨٧٣ جزء ١ ص ٣٩٥ .

ومعنى هذا أنه لما تلقى كدر نجتن رسالة السفير ، كان ما اشتملت عليه من التعليمات ، وبخاصة الإشارة المتعلقة بالمدفع مما يتفق مع مزاجه الشخصي . وليس يخفى بعد ذلك أن أساطيل الدول المتحالفة ، التي كانت تسطع عليها أشعة الشمس المحرقة من الصباح إلى المساء ، كانت تحت إمرة فرنسي يغرى حكومته بالتدخل العاجل لمصلحة اليونان ، وإنجليزى « حاد الطبع مضطرم المزاج » تلقى من حكومته أوامر تتفق مع آماله الخاصة . وفى هذا أوضح دليل على أن موقف إبراهيم أمام أساطيل الدول العظمى كان موقفاً تحف به أشد الصعاب .

ولم تخف احتمالات هذا الموقف على محمد على ، بل أيقن أنه موقف غاية فى الخطورة . فهو إذا أبى أن يتراجع بسبب الخطة العدائية التى سلكها الإنجليز والفرنسيون والروس ، أورده ذلك مخوف الموارد ، فلاقى الهزيمة المحققة وهوى آخر الأمر فى مهواة الذل . وهل يفعل ذلك وهو الرجل الذى لا يطمع فى غير مطمع ، والذى كانت الحصافة أهم فضائله ؟ أما إذا أدرك ما يحدق به من الخطر ورجع عن خطته ، فقد يتهم بعدم الوفاء للسلطان . وبينما هو يدقق فى بحث المشكلة من جميع نواحيها ، كان أسر بى Acerbi قنصل النمسا العام فى مصر ينصح له بأن يرسل أسطوله فى الحال ليضرب الأعداء ضربة تقفل فى وجوه الحلفاء[١] باب التدخل أو الوساطة . ومما يدل على أن هذا النصح لم يكن الباعث عليه فضول منه ، أن السفن النمساوية ظلت طوال الوقت تحوم حول نوارين ، وهى تحاول إثارة المشاكل ، حتى اضطرها أمير البحر الإنجليزى أن تسلك سبيل الرشاد[٢] .

(١) دون فى كتاب نوارين السالف الذكر ص ١٥٠ .
(٢) مذكرات مترنيخ ووثائقه الجزء الرابع ص ٣٩٩ منقولة عن دون فى كتابه السالف الذكر ص ١٨٠ .

على أن الباشا قد أوتى من الحكمة و بعد النظر ما يمنعه من أن يكون أداة فى يد حكومة و يانة تسخرها لنيل أغراضها ، مهما حرضه ممثل مترنيخ على أن يتحدى لندن و باريس وسانت بطرسبرج مجتمعة . ولقد كان فوق ذلك شديد المحبة لأسطوله ؛ وكان يوقن أن السيادة البحرية لا تكفى لنيلها هزيمة اليونانيين ، بل تحتم عليه أن يكون له المركز الأول فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وكان يعرف أنه لا يستطيع إعـداد أسطوله قبل أن يحل شهر أغسطس ؛ و يرجو أن يتمكن فى خلال هذه المدة من إقناع السلطان بأن حكم الله لا بد نافذ ، وأن معاندة الأقدار لا تجدى نفعاً ، وحجته فى ذلك ما سوف يظهره الحلفاء من قوة وجبروت . وكان ذلك بعينه هو ما اهتدى إليه سولت Salt القنصل البريطانى العام بالإسكندرية ، والكابتن هودر Captain Huder وهو رسول خاص موفد من قبل الكونت جيمنو إلى محمد على . يدل على ذلك ما كتبه أولهما فى ٢١ يوليه سنة ١٨٢٧ إلى السفير البريطانى بالإسكندرية يقول :

« لا يزال سموه مستمسكا بالتصريح الذى جهر به لى . ولا شك عندى فى أنه يسره جدا أن تظهر أساطيلنا أمام الشواطئ المصرية لتمنع حملته من السفر ؛ ولكنه إذا ظل كما هو غير واثق من تدخل الحلفاء تدخلا أشد مما هو الآن (أى أشد من مجرد الاحتجاجات الرسمية المكتوبة) ، إذا ظل كذلك فإنه يشعر أن من الصعب عليه أن يؤخر إرسال الحملة بعد الآن[1] » .

وكتب هودر إلى سفيره تقريراً فى نفس ذلك اليوم . ولكن مرت الأيام ولم يظهر الحلفاء أمام الشـواطئ المصرية ، ولم يقوموا بمظاهرة بحرية أمام

(١) وزارة الخارجية البريطانية ٧٨ — ١٦٠ نقلها دون فى كتابه السالف الذكر ص ١٤٩ .

الإسكندرية . ورأى محمد على أسطوله فتاه به عجباً ، وكتب إلى إبراهيم فى ٢٤ يوليه من عام ١٨٢٧ يقول :

« والآن يا ولدى قد صار لنا بعون الله أسطول فخم لم يكن لدولة إسلامية من قبل . وهو واف بكل مطالبنا من حيث سرعته وسلاحه ونظامه . فليس هو الأسطول الذى عرفته من قبل ، وإنما هو أسطول عظيم حديث فى كل شىء ، لم يمتلكه حاكم مسلم قبل الآن ، وإن شاء الله ستراه بنفسك فى القريب العاجل » (١) .

ويخيل إلينا أن هذه الأفكار التى كانت تجول فى خاطر محمد على قد وجهت منطقه الوجهة الآتية أو ما يقرب منها :

« لقد أنشأت بحول الله وقوته أسطولا جعل مقامى بين أمراء المسلمين كمقام الحرمين بين مدن العالم ؛ فأصبحت قبلة أنظار جميع المسلمين . وقد أوضحت إلى سولت وهودر (إلى إنجلترا وفرنسا) أننى لا أقصد أن أستخدم هذا الأسطول العظيم لأتحدى به الغرب ؛ أوضحت لهما ذلك وضوحاً ليس بعده وضوح ؛ ولست أشك فى أن هذين الرجلين قد فهما مقصدى ونقلا ما قلت لهما إلى حكومتيهما . فإذا لم تقم أساطيل الحلفاء بعد ذلك بمظاهرة بحرية أمام الشواطئ المصرية أو فى مياه الإسكندرية ، فذلك دليل على أن ما قاله لى أسر بى الناطق باسان مترنيخ صحيح لا شك فيه ، وأن ما تفعله إنجلترا وفرنسا والروسيا إنما هو تضليل وتهويش ، وأن عملهن لن يعدو كتابة المذكرات وإرسال الاحتجاجات ، وأن ليس فى نيتهن محاربتى لأنهن لا يستطعن الاتفاق على عمل مشترك . فإذا أذعنت لمطالبهن وأنا واثق من هذه النية كنت موضعاً لسخرية جميع المسلمين الصادقى الإيمان .

(١) المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين بالقاهرة القسم التركى .

ولذلك فإن الواجب يقضى علىّ أن أسير الحملة التى أعددت العدة لسيرها » .

وقد قرن القول بالفعل وسافر آخر قسم من هذه الحملة فى الرابع من أغسطس عام ١٨٢٧ ، وكانت مع ما انضم إليها من السفائن التركية والفرنسية مؤلفة من بارجتين حربيتين وإحدى عشرة فرقاطة وثمان عشرة سفينة من نوع الكورفت وستة أباريق وست سفن من نوع الجيولت وست حراقات وأربعين نقالة (١) .

ولما غابت الحملة عن الأنظار ؛ استقبل محمد على الكبتن هودر وقال له : « لقد ألقيت عن كاهلى عبئاً ثقيلا كان ينوء بى وفوضت أمرى إلى الله » .

لقد قلنا من قبل إن الباشا كان واثقاً من أن الحلفاء لن يهاجموا هذه العمارة البحرية ، لأنه أتاح لإنجلترا وفرنسا كل فرصة ممكنة لمنعها عن السفر فلم تنعلا شيئاً . ولما كان أسرىى لا يفتأ يذكر له أن لندن وباريس وسانت بطرسبرج لن يعملن عملا ، فإن من المعقول أن نظن أن القنصل النمساوى كان ينقل إلى محمد على كل ما يستطيع نقله من اللغط الذى يدور حول النزاع القائم بين كدرنجتن ودهرنى ؛ وهل أدل على هذا النزاع من الرسالة التى بعث بها أمير البحر الإنجليزى لزوجته يقول :

« كل شىء حولى ينادى « الخيانة » ؛ ولكننى أفضل أن أعتقد أن الذى أراه هو العجز عن القيام بأعباء العمل ، وهو أمر يختلف عن الدسائس والحيل الدبلوماسية بعض الاختلاف » (٢) .

وكان من بين الأسباب التى جعلت كدرنجتن يذكر ما ذكر عن الخيانة ، أن ضباطاً فرنسيين كانوا يشغلون وظائف هامة فى البحرية المصرية ، وأن

(١) دون فى كتابه السالف الذكر ص ١٥٤ .
(٢) المصدر عينه ص ١٦٩ .

كدرنجتن كان رجلا عفوفاً طاهراً من الخزايا . نعم إن أحد رجال الدپلوماسية الرسميين قد وصفه « بالتهور وحدة الطبع » ، ولكن هذا لا ينفى أنه كان رجلا صريحاً كل الصراحة ، لا يعرف المداجاة والمواربة ، ويأبى أن يقتنع بأن الفرنسيين كانوا مخلصين حين يسمحون لأبناء وطنهم أن يكونوا مستشارين فنيين للأسطول المصرى المرابط فى البحار ، كما يتبين ذلك من خطاب أرسله إلى وزير خارجيته .

وعرفت إدارة المخابرات النمساوية ما شجر بين ده رنى وكدرنجتن من خلاف ، أو أن أسرنى على الأقل قد أظهر لمحمد على معنى وجود أولئك الضباط الفرنسيين فى البحرية المصرية ، وأكد له أن اشتراك فرنسا مع حليفتيها الأخريين فى الضغط عليه أمر مشكوك فيه ، ما بقى هؤلاء الضباط فى خدمته ولم يستدعوا منها ؛ وقد عزز قوله هذا بطول الزمن الذى مضى قبل انضمام الوحدات الروسية إلى المراكب الإنجليزية والفرنسية .

وبعد أربعة أيام من سفر الحملة المصرية ، وصل إلى الإسكندرية الميجر ج . ﻫ . كرادك J. H. Cradock موفداً من قبل وزارة الخارجية البريطانية ، وقد انتدبه چورج كاننج ليعرض الأمر بصراحة على محمد على ، ويبين له أن إنجلترا جادة فى معارضتها لسفر العمارة المصرية ، وأنها مصممة على تنفيذ مواد اتفاق لندن . وقد شعر محمد على عند قدومه — وإن جاء متأخراً — بحرج موقفه ، لأنه لم يكن من أولئك الذين لا يعرفون الخطر حتى يترددوا فيه ، فأصغى إلى أقوال كرادك ، واقتنع بأن قرار الحكومة البريطانية قرار لا مرد له ، وإن تأخرت لندن فى إصداره ، وأن المدافع البريطانية على استعداد لتنفيذه .

وكان الباشا من جهته صريحاً فيما قال لكرادك ، لأنه كان فى مقدوره أن

يخلب لب سامعه بصراحته وإخلاصه حين يشاء ؛ واستطاع سوات أن يظهر لمندوب وزارة الخارجية أن محمدا عليا كان يقبل عن طيب خاطر أن يحجز أسطوله ، وأنه لم يسمح له بأن يخوض لجة البحر إلا بعد أن أيقن أن عدم قيام الحلفاء بمظاهرة عدائية لم يترك له غير السبيل التي سلكها . وكان ما بين سوات والباشا من علاقات شخصية باعثاً له على إطالة المفاوضات معتمداً على تأييد كرادك الأدبي . وقد لخص سولت نتائج هذه « المحادثات » الدبلوماسية في تقرير له نقتطف منه الفقرة الآتية :

قال محمد على : « هـذا هو رأيي النهائي ، ليتصل الميجر كرادك بأمير أسطولكم في الحال ويبلغه أن من رأيه أن يبعث قواد أساطيل الدول المتحالفة على الفور ضابطا يحمل خطاباً إلى إبراهيم باشا ، مضمونه أن الأمور قد تحرجت إلى درجة توجب عليه أن لا يفكر في مهاجمة هيـدرا Hydra ، لأن الحلفاء قد أجمعوا أمرهم على اصطناع القوة لمنعه من هـذا الهجوم ، ولينتظر الضابط رد إبراهيم ، وعليه أن يقصر مهمته على تسليم هذا الخطاب إليه يداً بيد » .

فأجبته : « كل ذلك حسن ، ولـكنني أخشى أن لا تكون لهذا الخطاب فائدة قط إذا لم تؤيده تعليمات سرية من سموكم » ، فنظر إلى الباشا نظرة لها معناها وقال : « أترك هذا الأمر لي » [(١)] .

وبعد يوم أو نحوه من ذلك الوقت استقبل محمد على الميجر كرادك ، وأكد له ما قاله من قبل إلى سولت . وقد لخص دون ما تمخضت عنه بعثة كرادك بقوله : « إن الباشا لا يلجأ إلى هذه الطريقة المـكيفلية إلا مع الإنجليز . أما مع الفرنسيين فهو أشد من ذلك حذراً » ، وهو تحليل لا نخالفه فيه [(٢)] ، ومعناه أن

(١) المصدر عينه ص ١٥٧ .
(٢) المصدر عينه ص ١٦١ .

محمداً علياً المشهور بدهائه أيقن أن إنجلترا جادة غير هازلة ، وأن فرنسا لم تكن كذلك . فلما لم تستطع لندن وباريس أن تعملا بما أشار به على سوات وهودر ، اقتنع بأن اتفاق الحلفاء إنما هو خداع وتضليل . وقد استدل من أقوال كرادك على أن إنجلترا لا تتردد فى امتشاق الحسام للدفاع عن المبدإ الذى قام عليه اتفاق لندن ، سواء كانت فرنسا جادة أو هازلة .

وكانت معرفة هذه الحقيقة هى التى جعلته صريحاً فى موقفه بإزاء إنجلترا ، وكتوماً حذراً بإزاء فرنسا . وفى اليوم الحادى عشر من سبتمبر سنة ١٨٢٧ أقبل على نوارين أمير البحر الإنجليزى فى السفينة آسيا Asia تصحبه جنوا Genoa وألبيون Albion . وكانت العمارة المصرية كلها راسية فى ذلك الميناء بعد أن بلغته فى التاسع من سبتمبر . ولم يدخله أسطول الحلفاء حتى حل اليوم الثانى والعشرون من ذلك الشهر . وفى خلال هذه الفترة ، وبينما كان السير إدورد كدرنجتن ينتظر قدوم أمير البحر الفرنسى الذى سيكون تحت رياسته(١) ، رأى نفسه مضطراً أن يبلغ قائد القوات العثمانية المرابطة فى ثغر نوارين أنه سيمنعه بالقوة من مهاجمة أى جزء من بلاد اليونان .

وقد أبلغه ذلك بمذكرة مؤرخة ١٩ سبتمبر . ولكن حدث رغم هذا أن قسماً من الأسطول العثمانى (لا المصرى) أقلع من الميناء فى اليوم الحادى والعشرين من ذلك الشهر ، فاتخذ الأسطول الإنجليزى أهبته للقتال على الرغم من قلة عدده واقترب من الأسطول التركى ، وظن أن تصادم القوتين أصبح لا مفر منه . لكن حدث فى اللحظة الأخيرة أن لاح الفرنسيون فى الأفق فتبدل الموقف غير الموقف ، ولم يحاول القائد العثمانى مغادرة الميناء ، وسمح له — كما يقول صاحب سيرة السير

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الأول ص ٤٣٧ .

إدورد كدرنجتن — أن ينضم مرة أخرى إلى الأسطول المصرى الراسى فى الميناء بعد أن اتفق إبراهيم أن يجتمع بأمراء الأساطيل المتحالفة [(١)] . وهكذا قضى الأمر ولم يحدث حادث مكدر ، وإن كان الأمر العام الذى أصدره كدرنجتن من السفينة آسيا فى عرض البحر بتاريخ ٨ سبتمبر سنة ١٨٢٧ قد أعاد ذكر العبارة المشئومة عبارة « المدفع » إذ قرر ذلك الأمر أن :

« الهدنة التى عرضت على الطرفين (الأتراك واليونانيين) قد رضى بها اليونان ورفضها الأتراك ؛ ولذلك أصبح من واجب القوات البحرية المتحالفة أن تبدأ بالاتصال باليونانيين اتصالاً وديا ، وأن تصادر بعد ذلك كل ما يرسل من تركيا ومن إفريقيا كلها من رجال وسلاح وغيرهما ليستخدم ضد اليونان » ، ثم أعلن بعد ذلك أنهم :

« سيحاولون أولا بكل ما لديهم من الوسائل أن يمنعوا كل ما قد يؤدى إلى استخدام القوة ؛ ولكنهم سيلجؤون عند الضرورة ، وبعد أن تنفد كل الوسائل الأخرى ، إلى قوة المدفع ليحولوا دون وصول الإمدادات السالفة الذكر » [(٢)] .

وكانت لهجة الخطاب الذى أرسل إلى القائد العثمانى لا غبار عليها ، كما أن الظروف كانت تبرر إرساله كل التبرير ؛ لكننا لا نشك لحظة فى أنه لم يكن من الحكمة أن يرسل إلى إبراهيم فى الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٢٧ خطاب مثله فى صيغة الغائب جاف اللهجة مصوغ فى الألفاظ الآتية :

« لكيلا يكون لدى سمو إبراهيم باشا أى شك فى نيات الملوك المتحالفين ،

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٧٢ .
(٢) المصدر عينه ص ٤٥٢ .

يتشرف نائب أمير البحر السير إدورد كدرنجتن ، القائد الأعلى لقوات صاحب الجلالة البريطانية فى البحر الأبيض المتوسط ، بأن يرسل إلى سموه صوراً من بعض الأوراق الخاصة بهذا الموضوع الهام ، والتى يسير على مقتضاها . وسيرى منها سموه أن قواد الأساطيل لا يستطيعون أن يحيدوا قط عن تنفيذ المعاهدة بحذافيرها مهما كانت العواقب »[١] .

وكان الذى أملى هذه المذكرة على أمير البحر الإنجليزى عواطف نبيلة تعلى من قدره . فقد أراد أن يكون فيها صادقاً فيما يعنيه ، دقيقاً فيما يعبر عنه ؛ ولكنه مع الأسف سلك أقرب السبل لاستثارة حفيظة إبراهيم ومضاعفة الصعاب التى كانت تحف بموقف ينذر فى كل وقت بأوخم العواقب . وكان كدرنجتن يجهل اللغة العربية حديثاً وكتابة ، كما كان إبراهيم فى ذلك الوقت يجهل الفرنسية أو لا يعرف منها إلا النذر اليسير . فكانت النتيجة أن الرجلين الصريحين الصادقين المخلصين بقى كل منهما بعيدا عن صاحبه ، لأنهما لا يستطيعان أن يتفاهما . وكان كلاهما إذا أغضب فار فائره ولجأ إلى سيفه ، وقد وقف بين صاحبه وسمعه ، يحول بينه وبينه المترجمون ، ولا يستطيع أن يتصل به ذلك الاتصال الشخصى ، ويتبادل معه ذلك العطف الفردى ، الذى كان لا بد أن يزيل ما بينهما من نزاع لو أمكنهما أن يتفاهما . عجزا عن ذلك كله ، وكانت هذه الرسالة الرسمية الجافة المصوغة فى صيغة الغائب هى عين الرسالة التى تحيلها ترجمة المترجمين إلى بلاغ نهائى صريح . وزاد الطين بلة أن ده رنى شعر فى اليوم التالى أن من واجبه أن يترجم الرسالة المشئومة إلى اللغة الفرنسية . فلما ترجمها ووقعها القائدان وجد المترجم فرصة أخرى تزيد النار ضراما . وكأن أمير البحر الفرنسى لم يكفه

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٧٥ .

أن يؤكد لإبراهيم المعنى الحرفى لعبارات كدرنجتن ، فعرض أن يذهب بنفسه إليه « ليبين له حقيقة الخطر المحدق به ، والذى ينطوى عليه التهديد الوارد فى الخطابين »[١] . وكان يحمل معه فوق ذلك مذكرة شخصية كتبها محمد على يخبر فيها ابنه إبراهيم : « أن ينعم النظر فى الأخبار التى ترسل إليه ويتفهم حقيقة معناها »[٢] . وكان فى هـذه اللغة من الغموض ما يجعلها تحتمل كل معنى يراد أن يفهم منها . وقد شاء محمد على أن يكتبها كذلك لأسباب لا يعرفها إلا هو ، ولكن ده رنى أراد أن يتخذها سلاحا يرهب به رجلاً اشتهر بين الرجال بأنه « ليث غابة ، ماضى العزيمة ، مسدد الرأى » ، كما وصفته رسالة رسمية تلقتها وزارة الخارجية البريطانية فى ٨ مارس سنة ١٨١٦[٣] .

واستقبل إبراهيم أمير البحر الفرنسى أحسن استقبال ، كما تتبين ذلك من التقرير المطول الذى أرسله ده رنى إلى باريس ؛ فإنك لا تجد فى هـذا التقرير شيئاً من التهديد وإنما تجد فيه قوله :

« لم يحاول إبراهيم أن يخفى عنى ارتباكه . . . ومما قاله لى : « أنك تصر على أن أقف كل الأعمال الحربية ، ثم تسمح مع ذلك لليونانيين بأن يفعلوا ما يشاءون ؛ وبذلك تطلب إلىّ مطالب كان الأجدر بك أن تتقدم بها إلىّ قبل أن يقلع أسطولى من الإسكندرية ، ولو فعلت ذلك لحسم النزاع منـذ زمن بعيد »[٤] .

وكانت نتيجة هـذه المقابلة أن أوضح إبراهيم إلى أمير البحر الفرنسى أنه

---

(١) نوارين تأليف دون ص ١٨٥ .
(٢) المصدر عينه فى نفس الموضع .
(٣) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ٤٦ .
(٤) دون فى كتابه السالف الذكر ص ١٨٨ .

يسره كل السرور أن يجد مخرجا من هـذا المأزق الحرج ، وأنه يقبل مغتبطا كل أمر يصدره إليه محمد على ، ولـكنه يصر على أن من واجب الحلفاء إذا أرادوا منه أن يقف الأعمال العدائية أن يلزموا بذلك اليونانيين أيضاً . وأبى أن تغل يده ثم تطلق لأعدائه حرية العمل .

وذلك موقف ليس فيه شىء من الغموض ؛ وهو الموقف الذى لا بد أن يقفه كل قائد حازم . ولو وضع ده رنى وكدرنجتن نفسهما موضع إبراهيم لما غابت عنهما قط هـذه الحقيقة . ولو أنهما فعلا ذلك ، وتذكرا أن الصعوبة اللغوية جعلت التفاهم بينهما فى حكم المستحيل ، وعرفا مع ذلك أن المترجمين قلما يؤدون واجبهم على الوجه الأكمل ، لو أنهما عرفا كل هذا لما وقعت واقعة نوارين مطلقا ، أو لوقعت بعد هذه المقابلة مباشرة .

الفصل الثامن

خطأ موفق

لقد كان التقرير الذى أرسله ده رنى عن حديثه مع إبراهيم أصرح من الخلاصة التى بعث بها إلى السير إدورد كدرنجتن . وكان من أثر هذه الصراحة أن وزير البحرية الفرنسية أمكنه أن يدرك تلك الحقيقة البارزة ، وهى أن القائد المصرى ، مع انصياعه لحكم العقل ، لا يقبل أن يقيد نفسه إذا تركت لليونانيين حرية العمل . أما المذكرة التى أرسلت إلى أمير البحر البريطانى فقد كانت غاية فى الإيجاز ، وكان أظهر ما فيها قولها : « لست أشك فى أن إبراهيم مصمم على البقاء هنا » ، ولكنها سكتت عن إصراره على أنه لا يرتبط بأمر لا يرتبط به اليونانيون أيضاً [١] .

ولسنا نريد أن يفهم من قولنا هذا أنه كان يبغى إيقاع زميله فى الخطأ ، بل نؤكد أن ذلك لم يكن قصده . وكل الذى نرمى إليه أنه عجز عن إيضاح جانب من حديثه مع إبراهيم ، أوضحه وأكده فى تقريره المفصل . ولا شك فى أنه كان ينوى شرح هـذه التفاصيل شفهيا ، ولكن الذى ترتب على بعثته أن الصورة الأولى التى انطبعت فى عقل كدرنجتن من إبراهيم ، خلت من أهم الحقائق التى تبينها ده رنى من حديثه معه .

ولم يقتنع كدرنجتن بأن مذكرته الرسمية لإبراهيم المؤرخة ٢١ من سبتمبر

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الثانى ص ٣ .

سنة ١٨٢٧ قد أحدثت أثرها المطلوب . ولذلك بعث إليه بمذكرة أخرى هذه عبارتها :

« سيدى : لما كنت قد جئت إلى هذا الثغر (نوارين) لأوضح الأوامر التى أسير عليها ، والضرورة التى توجب على إطاعتها والعمل بها إلى أقصى حد مهما كانت النتائج المترتبة عليها ، فإنى أحب أن تسمحوا لى بأن أقوم بهذه المهمة بحضور كبار قواد الحملة التركية جميعهم » (١) .

ولما كان الاجتماع الذى عقد على أثر هذا الخطاب عظيم الخطر فى بيان الدور الذى اضطلع به إبراهيم فى التاريخ ، فإننا نميل إلى إيراد التقرير الذى كتبه عنه الضباط المرافقون لكدرنجتن بنصه ، وهو معنون « مذكرة عن الاجتماع الذى عقد فى نوارين فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٢٧ مع إبراهيم باشا » وهذه صورته :

« لما كان نائب أمير البحر السير إدورد كدرنجتن قد جاء إلى مياه نوارين فى ٢٤ سبتمبر بقصد الاجتماع بإبراهيم باشا ، فقد حدد إبراهيم باشا صباح اليوم الثانى لاستقبال سير إدورد وده رنى ، الذى جاء إلى نوارين فى الوقت نفسه مع أمير البحر الإنجليزى .

« وفى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٥ نزل السير إدورد إلى البر يصحبه الكابتن كرزن Captain Curzon قائد البارجة آسيا والملازم دلكى Dilke والمستر داير Dyer سكرتيره والكولونل كرادك Cradock والمستر كدرنجتن .. وقد اجتمع هؤلاء بأمير البحر الفرنسى ونفر من ضباطه قرب الساحل ، ثم ساروا جميعاً إلى خيمة إبراهيم باشا ؛ وجلس جميع الضباط الأتراك والمصريين فى

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٤ .

ناحية ، ولم يتخلف منهم إلا طاهر باشا الذى قيل إنه مريض ، وانتحى ضباط الأسطولين الفرنسى والبريطانى ناحية أخرى .

« وبعد التعارف وألفاظ التحية التركية المعتادة بدأ أميرا البحر حديثهما بأن قالا لإبراهيم إنه على أثر المعاهدة المعقودة بين إنجلترا وفرنسا والروسيا ، أصبح واجباً مفروضاً عليهما أن يمنعا جميع الإمدادات التى ترسل بطريق البحر ضد بلاد اليونان ، سواء أكانت رجالا أم سلاحاً أم غيرهما ، وسواء أجاءت من تركيا أم من إفريقية بوجه عام . ولكى يكون أميرا البحر صريحين كل الصراحة فى العلاقة التى يرغبان أن تقوم بينهما وبينه ، قرأا له بالتفصيل ما عندهما من التعليمات عن النقطة التى دار حولها الحديث .

« فأجاب إبراهيم بأن أميرى البحر يعرفان من غير شك أنه جندى مثلهما ، وأن إطاعة الأوامر فرض واجب عليه كما هى فرض واجب عليهما ، وأن أوامره تحتم عليه أن يهاجم هيدرا ، وأن عليه أن ينفذ هذه الأوامر ، وأن واجباته مقصورة على العمل ولا تشمل المفاوضة ، وأنه يحيلهما إلى سيده الأعلى ليبحثا معه الأمور السياسية . وقد أجاب أميرا البحر بأنهما يدركان ما يشعر به كل رجل شجاع مثله فى هذه الظروف ، وأنهما يهنئانه على أن أمامه قوة لا يستطيع مقاومتها . وقد ذكراه بأنه إذا خرج إلى عرض البحر متحديا تحذيراتهما الودية ، فإنهما مضطران إلى تنفيذ ما لديهما من الأوامر . فإذا قاومهما بالقوة ترتب على هـذه المقاومة تدمير أسطوله كله ، وذلك يعد منه عملا طائشاً لا يوافق عليه السلطان . ثم قال القائدان إنهما لو كان همهما مراعاة شعورهما من حيث هما رجلا حرب ، لكان عناده هذا وسيلة إلى رفع منزلتهما ، وقد يكون ذلك مما يرغبان فيه . ولكنهما فى الظروف الحاضرة ، والعلاقات بين الحلفاء والأتراك

علاقات ود وصداقة ، يأسفان كل الأسف إذا وقع بينهما حادث يمكن أن يكدر صفو هذه العلاقات الودية . ولذلك فإن الحكومات الثلاث ترغب رغبة صادقة فى تجنب كل ما قد يؤدى إلى قطع هذه العلاقات . وأوامرها فى ذلك صريحة لا تترك مجالا للشك .

« وهذه الرغبة الصادقة التى ينطوى عليها صدرهما هى التى جاءت بهما إلى ذلك المكان ليطلعاه على حقيقة الموقف . وهما يرغبان فى التصريح بهذا أمام الرؤساء مجتمعين ، حتى لا يكون ثمة مجال للشك فى مقاصد أميرى البحر الحقيقية ، وحتى لا يُحدث اتصال أميرى البحر به أية ريبة فى نفوس الضباط .

« فأجاب إبراهيم بأنه يقرهما على مافى قولهما من خطر ، وأنه يعلم أنه لما صدرت إليه الأوامر من الآستانة لم يكن أحد يدرك حقيقة الأمور ولا خطر التصادم مع الأساطيل المتحدة ؛ ولذلك فهو يتعهد بوقف جميع الأعمال الحربية التى تقوم بها القوات البرية والبحرية المكونة لحملة الإسكندرية ، حتى يتلقى ردا من الآستانة والإسكندرية على يد رسول سيبعث به إلى كلتا المدينتين على الفور ؛ وستبقى الحملة خلال هذه المدة فى مياه نوارين . وطلب فى نفس الوقت أن يسمح له بإرسال سفينتين تحملان رسالتين إحداهما إلى الإسكندرية والأخرى إلى بريڤيزا ، فأجيب طلبه فى الحال ؛ بل إن الأميرين فعلا أكثر من ذلك ، إذ عرضا عليه أن يرسلا سفينة تضمن لها سلامتهما . فأجاب بأن فى هذا مساساً بالراية التركية .

« فأجابه القائدان بأنهما يرضيان بهذا الوعد منه ، وأنهما يثقان بشرفه كما يحبان أن يثق هو بشرفهما . وعند ذلك وضع إبراهيم يده على صدره وقال : إنه وعد مقدس ؛ ولكنه أضاف إلى ذلك قوله : إننى مع هذا الوعد لا يسعنى

إلا أن ألاحظ أنى لا أرى من العدل أن تفرضا علىّ هذا الفرض وتسمحا لليونانيين بأن يواصلوا أعمالهم العدائية » .

« وعند ذلك أجابه أميرا البحر بأن ثمة فرقاً بين الحالين ، لأن اليونانيين قد قبلوا وساطة الحلفاء أما الأتراك فإنهم لم يقبلوها . وقال السير إدورد كدرنجتن بعد ذلك إنه يجب أن يثبت لإبراهيم روح الإنصاف التى يرغب أن يسير عليها ، ولذلك سيمنع بنفسه اللورد كحرين من أن يثير نقع فتنة اعتزم إثارتها خارج ميدان القتال الحقيقى . وبذلك انتهى الاجتماع وعاد أميرا البحر إلى سفينتيهما .

وفى صباح اليوم الثانى (يوم ٢٦) جاء المستر أبرو Abro ترجمان الباشا إلى البارجة آسيا وأبلغ السير إدورد كدرنجتن أن الأنباء وصلت إلى إبراهيم بعد رجوعهما بأن اللورد كحرين قد هاجم بتراس Patras ، وأن أول ما حدثته به نفسه عندما سمع بهذا النبأ هو أن يرفع مراسيه ، فيقطع حبل المهادنة ويخرج إلى البحر فى ظلمات الليل . ولكنه عاد لحسن الحظ ففكر فى الأمر مليا وأوفده إليه ليستأذنه فى إرسال قسم من أسطوله إلى بتراس . لكن هذا الطلب رفض رفضاً باتا ، واتفق أن يعود المستر أبرو إلى السفينة إذا كان الباشا لا يزال مصرا على أن له الحق فى تعزيز حامية بتراس . أما إذا تقيد الباشا بقرار أمير البحر الذى تم الاتفاق عليه فى الليلة السابقة ، فليس ثمة ما يدعو لأن يجيئه برسالة أخرى . على أن المستر أبرو لم يعد ، وخرجت السفينتان آسيا وسيرين إلى عرض البحر فى تلك الليلة نفسها .

« وبعد أن وصل الطرفان إلى هذه النتيجة ، وبخاصة بعد أن وعد إبراهيم بشرفه أن يتمسك بالهدنة ، أراد أن يتكلم فى موضوعات أخرى لا تمت إلى المعاهدة ونحوها بصلة . ولكن السير إدورد كدرنجتن قال للترجمان (أبرو) : « أحب أن أعرف قبل أن أختم هذا الحديث ، هل فهم سمو الأمير كل ما قلته لك أنا وأمير البحر ده رنى ؟ فأجابه : « نعم فهمه كله » .

« هنرى . س . دبر : سكرتير نائب أمير البحر

« السير إدورد كدرنجتن : الحائز لنيشان الحمام من الطبقة الثانية

« هبرت كرادك : لفتننت كولونيل

« إدورد كرزن : قائد السفينة آسيا (١)

وهذه المذكرة غير مؤرخة ولكنها تجمل ما حدث فى الاجتماع الذى عقد فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٢٧ . وأكبر ظننا أنها كتبت بعد أن حاسبت وزارة الخارجية كدرنجتن على ما فعل حساباً عسيراً . والذى يحملنا على هذا القول أننا لا يخالجنا شك فى أن التقرير الرسمى الصريح الخاص بهذا الحادث ، والذى كتب وقت وقوعه ، قد كتبه كدرنجتن نفسه ووقعه بإمضائه . على أنه لا يمكن الطعن فى صدق هذه المذكرة أو الشك فى أمانتها ، لأن الإخلاص يتجلى فى كل سطر من سطورها . ولنعد على القارئ الفقرة الآتية منها :

« ولذلك يتعهد بوقف الأعمال الحربية التى تقوم بها القوات البرية والبحرية المكونة لحملة الإسكندرية ، حتى يتلقى ردا من الآستانة والإسكندرية على يد رسول سيبعث به إلى كلتيهما على الفور . وستبقى الحملة خلال هذه المدة فى مياه نوارين » .

ذلك قول صريح يشير إلى قسم معين من الحملة ، ولا يشمل جميع الجند والبوارج الحربية التى يقودها إبراهيم ؛ بل ينطبق فقط على « القوات البرية والبحرية المكونة للحملة الآتية من الإسكندرية » . ومما يدعو إلى الأسف أن نوع هذه الفرقة البحرية والبرية وقوتها لم يعينا فى الوثيقة تعييناً مضبوطاً . وقد يكون فى وسعنا أن نصل إلى حقيقتها إذا رجعنا إلى سجلات أخرى . ولكن

(١) بورشير فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٥ .

اهتمامنا الآن ليس موجهاً إلى الحقائق الخاصة بالحملة فى ذاتها ، بل نحن فى صدد البحث فى موقف جنديين صريحين يفصلهما كما قلنا من قبـل حاجز من اللغة .

ولم يكن أمر القوات البحرية والبرية التى يقودها إبراهيم خافياً عليه . ذلك بأنه قد مضت عليه وهو فى بلاد المورة شهور عدة قاد فى خلالها هذه القوات البرية إلى النصر ، قبل أن ترسل إليه الإمدادات ، وقبل أن تصله الحملة من الإسكندرية . وكان كدرنجتن جنديا كمعظم الجنود لا يتسع عقله للتفكير فى أكثر من شىء واحد ؛ وكانت أفكاره كلها محصورة فى حملة الإسكندرية . وليس ببعيد أنه خلط بين هـذه الحملة و بين جميع جيوش إبراهيم وعمارته البحرية ، ففعل بذلك عن الجنود الذين كانوا فى بلاد المورة منـذ شهور ، وعن السفن التى كانت تشد إزرهم منذ ذلك الحين . ومهما يكن من الأمر فإن المذكرة التى كتبها الضباط البريطانيون لا تترك مجالا للشك فى أن إبراهيم لم يوافق على وقف جميع الأعمال الحربية حتى يأتيه « الرد من الآستانة والإسكندرية » .

وليس أدل على المعنى الذى كان يفهمه إبراهيم من الاتفاق الذى عقد بين الطرفين ، من « مجىء أبرو ترجمان الباشا فى صباح اليوم الثانى إلى السفينة آسيا و إبلاغه كدرنجتن أن إبراهيم قد وصلته قبل مجيئه أنباء بأن لورد كوكرين هاجم پتراس ، وأن أول ما حدثته به نفسه عند ما سمع بهذا النبأ هو أن يرفع مراسيه ، فيقطع حبل المهادنة ، ويخرج إلى البحر فى ظلمات الليل » . فلو أنه كان يشعر بأنه مغلول اليدين والرجلين ، لمـا حدثته نفسه أول ما حدثته بأن يقطع حبل المهادنة ويخرج إلى البحر ، ومعه كل نظن السفن التى كانت لديه قبل مجىء حملة الإسكندرية .

وكل الذى نعرفه عن أول حديث حدثت به إبراهيم نفسـه هو ما نقله

الترجمان إلى أمير البحر البريطانى ، على أننا نعرف أن كدرنجتن أبى أن يسمح له بتعزيز حامية پتراس ، وأنه قيل للترجمان إن على المستر « أبرو أن يعود إلى السفينة إذا كان الباشا لا يزال مصرا على أن له الحق فى تعزيز حامية پتراس ؛ أما إذا تقيد الباشا بقرار أمير البحر الذى تم الاتفاق عليه فى الليلة السابقة ، فليس ثمة ما يدعو لأن يجيئه برسالة أخرى . على أن المستر أبرو لم يعد وخرجت السفينتان آسيا وسيرين إلى عرض البحر فى تلك الليلة نفسها » .

هذه الحادثة تظهر الدور الخطير الذى اضطلع به المترجمون فى المسألة كلها . ونحن وإن كنا لا نعلم شيئاً عن ماضى هذا المستر أبرو ولا عن حياته بعد ذلك الوقت ، فإن معرفتنا الخاصة بالشرق وأحواله تحملنا على الظن بأنه لم يكن تركيًّا ولا ضابطاً فى الجيش التركى ، بل رجلاً من أبناء البلاد الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، يعرف عدة لغات ، ويشمخ بأنفه ويتيه كبرياء ، إذ يرى نفسه قبلة الأنظار . ولسنا نعرف هل وجد إبراهيم حال رجوعه إلى مقر القيادة العامة وقبل أن يمضى الزمن الذى حدده أمير البحر ؛ وكل ما فى وسعنا أن نقوله على سبيل التحقيق أن جواب كدرنجتن يجعل هذا المستر أبرو المحور الذى تدور حوله المفاوضات ، وأنه ليس من السهل أن نتأكد مما نقله إلى إبراهيم ، الذى كانت مواد المذكرة تخوله الحق المطلق فى أن يعالج الحال التى نشأت فى پتراس باستخدام أى قسم من عمارته البحرية إلا « القوات البرية والبحرية المكونة لحملة الإسكندرية » .

ومما يدل على أن أمير البحر البريطانى لم يفهم العبارة السابقة حق الفهم ، خطاب أرسله إلى لورد استرتفورد ده ردكلف عقب رجوعه من الاجتماع مباشرة . فقد أرسل إلى السفير البريطانى يقول : « إن أكبر ظنه أنه (إبراهيم)

لن يصله الرد قبل مضى شهر من الزمان ، و إنه سيظل فى خلال هذه المدة مكتوف اليدين » [(١)] . غير أننا نتبين من خطاب كتبه كدرنجتن إلى زوجه فى السادس من شهر اكتوبر سنة ١٨٢٧ أن إبراهيم لم يبق مكتوف اليدين حينما كان اليونانيون يجيشون الجيوش لمحاربته .

فقد قال فى هذا الخطاب : « وفى الساعة التاسعة صباحاً ألقينا مراسينا عند رأس بابا حيث نقيم الآن . . . ورأس بابا واقع عنـد باب خليج بتراس ، وهذا الخليج فى مدخل خليج ليبنتو Lepanto . وقد بعثت إليك بخطابى الأخير من زانتى Zante فى اليوم الثالث من هذا الشهر ، حينما كان إبراهيم وأسطوله على ما نظن فى طريقهما إلى نوارين تنفيذاً للأوامر التى لديهما . ويخيل إلى أن إبراهيم قد انتهز فرصة الجو القذر فاتجـه نحو بتراس ، وأن ريحاً عاصفة كانت تهب من الخليج أوقفته عند هذا الرأس ، حيث رأينا سفنه وسفن قواده وغيرهم راسية ، عند ما اقتربنا منه ونحن نطارده لنمنع حركاته » [(٢)]

و إذا كان كدرنجتن قد استخدم فى خطابه لزوجته عبارة الجو القذر وعبارة أخرى من نوعها فإنه كان فى خطابه الرسمى إلى الضابط التركى الذى كان على رأس الأسطول العثمانى أكثر أدباً و إن لم يكن أقل صراحة فقد قال :

« سيدى : لقد وعدنى سمو إبراهيم باشا بشرفه ، كما وعد أمير البحر الفرنسى ، على مشهد من رؤساء حملته و بموافقتهم ، أن لا تبرح سفينة من سفن الأسطول التركى مياه نوارين إلا بإذن منا . ولـكنه قد نـكث عهده هذا ، ولذلك فإنى لن أثق بعـد الآن بكلمته ولا بكلمة أحد من الضباط الذين يعملون تحت قيادته .

(١) بورشير الجزء الثانى ص ٢١ .
(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٩ .

وبناء على ذلك فإن السفن الموجودة هنا ، والتي يقودها الآن مصطفى بك ، لن يسمح لها بالعودة إلى ثغر نوارين أو أي ثغر آخر في أوربا واقع على هذا الجانب من الدردنيل » .

وبهذا يؤكد أمير البحر البريطاني أنه فهم أن اتفاق ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٢٧ ينطبق على جميع السفن الراسية في مياه نوارين ؛ ولا شك مطلقاً في أنه كان يعتقد صحة ما يقول . غير أن من الإنصاف أيضاً أن نحاول فهم ما كان يجول في خاطر إبراهيم . ولن نعيد مرة أخرى نص المذكرة الذي يدل على أن عهده لم يكن شاملا عاما كما فهمه كدرنجتن ، بل سنختار منها الفقرة الآتية :

« وقال السير إدورد كدرنجتن بعد ذلك إنه يجب أن يثبت لإبراهيم روح الإنصاف التي يرغب أن يسير عليها ؛ ولذلك سيمنع بنفسه اللورد كخرين من أن يثير نقع فتنة اعتزم إثارتها خارج ميدان القتال الحقيقي . وبذلك انتهى الاجتماع وعاد أميرا البحر إلى سفينتيهما » .

فالمذكرة إذن تدل على :

« أن إبراهيم قد قال : « لا أرى من العدل أن تفرضا على هذا الفرض وتسمحا لليونانيين بأن يواصلوا أعمالهم العدائية » .

(٢) وأن كدرنجتن أكد أنه سيعمل على منع قيام الثورة التي شرع اللورد كخرين يثيرها « خارج ميدان القتال الحقيقي » .

(٣) وأن إبراهيم أرسل في اليوم الثاني يقول إنه « قد وصلت إليه الأنباء قبل ذلك بأن اللورد كخرين هاجم پتراس » .

والذي يفهم من هذه الظروف المتسلسلة أن إبراهيم كان يعد سيطرة كدرنجتن على أعمال اللورد كخرين شرطا أساسيا هاما من شروط الاتفاق بينه وبين ذلك السيد .

والذى يتبادر إلى الذهن أن إبراهيم كان يظل ساكناً فى نوارين لو استطاع أمير البحر أن يسيطر على القائد الإنجليزى للقوات اليونانية . وسواء أكان هـذا الفرض خطأ أم صواباً ، فإن كدرنجتن كتب إلى وزارة البحرية البريطانية فى العاشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٢٧ تقريرا يقول فيه : إن اللورد كخرين رفض هـذا الطلب عند ما عرض عليه . وإليك ما جاء فى هذه الوثيقة الرسمية :

« لقد شكوت مرارا من سلوك اللورد كخرين الشاذ ، والآن أرجو أن يبلغ صاحب السمو الملكى القائد الأعلى للأسطول أنى تلقيت فى الثالث والعشرين من الشهر الماضى خطاباً من سعادة اللفتننت جنرال السير فردريك آدم Lieutenant General Sir Frederick Adam يقول فيه إنه وصل إلى علمه أن قسما من الأسطول اليونانى بقيادة فخامة اللورد ، يحمل عددا كبيرا من الجند وعلى رأسهم الجنرال تشرش ، يوشك أن يهاجم بعض بلاد الولايات الألبانيـة الواقعـة فى شمال خليج پرفيزا Prevesa . وعنـدئذ أسرعت بإرسال السفينة فلومل Philomel إلى حيث يوجد اللورد كخرين ، وأرسلت معها الأوامر إلى القائد اللورد ڤيكونت إنجسترى Commander Lord Viscount Ingestrie ، بأن يبلغ قواد الحملة بأنى أرى من الواجب على فى هذه الظروف أن أمنعهم من القيام بهذا العمل ، وأننى سأكون فى القريب العاجل بالقرب من ذلك المكان . وقد التقيت بالسفينة « فلومل » تجاه رأس بابا فى الخامس من هذا الشهر ؛ ونقل إلى اللورد إنجسترى أنه عند ما أبلغ الأمر إلى اللورد كخرين وعد فخامتـه أن يسترشد بروحه . ثم قصد اللورد إنجسترى خليج ليپنتو حيث نقل هذا البلاغ بعينه إلى الجنرال تشرش ، الذى صرح هو أيضاً بأنه سيعمل به . وكان

هذا القائد فى اليوم الرابع من هذا الشهر عند فستنتزا Vostitza يدبر أمر حصار بتراس برا . ثم تلقيت بالأمس رسالة أخرى من السير فردريك آدم يبلغنى فيها خبر نزول قسم من قوة لورد كخرين فى جزيرة بتالا Petala ؛ ويطلب أن ترسل إليه فرقاطة لتساعده . وإذ كنت واثقاً أن السفينة أدريانى Adriane قد وصلت كرفو بعد زمن قليل من تاريخ هذا الخطاب ، وإذ كان قد بلغنى أن هلاس Hellas شوهدت بالقرب من كفلونيا فى الثامن والعشرين من سبتمبر تقطر مركباً بخاريا متجهة به نحو الجنوب ، فإنى أعتقد أن لدى فخامة المندوب السامى الوسائل الكافية لإعادة تلك الجزيرة إلى حيادها السابق » (١) .

وكفى بهذا الخطاب المرسل إلى وزارة البحرية البريطانية دليلا قاطعاً على إخلاص اللورد كدرنجتن ، وإن كان هذا الإخلاص فى غير حاجة إلى دليل . لكن اللورد كخرين والجنرال تشرش وإن كانا إنجليزيين ، كانا يقودان القوات اليونانية ، ولم يكونا خاضعين لأوامر أمير البحر البريطانى بحال من الأحوال . غير أن ما نعلمه نحن وما يسجله التاريخ لا شأن له بادراك إبراهيم لهذه المسألة . وكانت كلمات أمير البحر البريطانى لا تزال ترن فى أذنيه ، وكان عليه أن يفكر فى التبعة الملقاة عليه أمام والده وأمام السلطان . ولم يكن فى مقدوره أن يفهم كيف يعجز كدرنجتن عن إرغام اللورد كخرين والجنرال تشرش على إطاعة ما يصدر لهما من الأوامر . ولذلك يلوح لنا أن إخلاصه كإخلاص أمير البحر البريطانى لا مطعن فيه ولا مغمز . وخير ما نطرى به هذا الإخلاص هو العبارة التى نقلناها من قبل .

لكن كدرنجتن كان واثقاً من غدر إبراهيم وثوقا جعله يكتب ما يأتى إلى زوجه :

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٤٦ .

« ثم جاءنى نائب أمير البحر التركى شارحاً ومفسراً ؛ فقلت له إننى كنت أحترم الأتراك قبل أن ينكثوا عهدهم ، وكنت أحب أن أعمل لإنقاذهم من ورطتهم بقدر ما تصل إليه طاقتى . أما الآن فقد أصبحت أتحين الفرصة للإيقاع بهم ، وإذا لاحت لى فسأقتص منهم أشد القصاص »(١) .

وليس يصعب على الرجل الذى يتحين الفرصة لعقاب إنسان أن يخلق من الظروف ما يوصله إلى غرضه . على أننا لا نقول إن ضباط أسطول الحلفاء قد فعلوا هذه الفعلة ، وإنما نقول إن القائد الروسى انضم إلى زميليه فى اليوم الثالث عشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٢٧ ، وإن أمراء البحر الثلاثة أصدروا بعد أربعة أيام من ذلك التاريخ بلاغاً مشتركا ينحون فيه على إبراهيم باللائمة لأنه تقدم نحو سهل كلماتا Kalamata وأنزل الخراب والدمار أينما حل ، وأخذ يجهز قوة يهاجم بها إقليم ماينا Maina . ويقول البلاغ بعد ذلك إن « هذه الأعمال تناقض شروط الهدنة التى وعدتم سموكم بشرفكم أن تحافظوا عليها حتى يعود رسولا كم »(٢) .

ولو أن أمراء البحر المتحالفين اتهموا إبراهيم بأنه استخدم فى هذه الحركات العدائية (قسما من) « قواته البرية والبحرية المكونة لحملة الإسكندرية » لكان ما وجهوه إليه من اللوم متفقاً مع الفكرة القائلة بأن موقف العناد الذى وقفه اللورد كدرنجتن والجنرال تشرش لم يكن مخالفاً لاتفاق ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٢٧ . لكن أولئك الضباط لم يذكروا شيئاً خاصا بحملة الإسكندرية ؛ بل جاء لومهم عاما شاملا ، وأغفلوا فيه شروط المذكرة التى كتبها مرءوسو كدرنجتن ؛ وأظهروا أن تفكير

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٤ .
(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٤ .

الطرفين حينما أبرم الاتفاق فى التاريخ الذى ذكرناه مراراً من قبل ، كان يختلف كل الاختلاف . ولذلك فإن الحلفاء حينما بنوا عليه التهم التى وجهوها إلى إبراهيم فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٢٧ ، غفلوا عن الخلاصة التى كتبوها هم عن اجتماعهم . ومما زاد الطين بلة أنه لما أراد الكبتن فلوز Captain Fillowes أن يبلغ هذا القرار إلى إبراهيم ، كان القائد المصرى فى داخلية البلاد ، ولم يستطع الرسول لقاءه[1] .

ولم ينس ده رنى قبل أن يتهم إبراهيم بنكث عهده أن فى الأسطول التركى ضباطاً بحريين فرنسيين . وإذ لم يكن يرغب فى أن يصوب نيرانه إليهم قبل أن يهيئ لهم فرصة الانسحاب من خدمة الوالى ، فقد أرسل إليهم خطاباً هذا نصه :

« من أمير البحر ده رنى إلى المسيو لتلييه Letellier والمسيو بمبارد Bompard وغيرهما من الضباط الفرنسيين فى الأسطول التركى :

سيرين فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٢٧ .

سادتى : إن الظروف التى تحيط بالأسطول العثمانى الآن وهو محصور فى ثغر نوارين ، وبسمو إبراهيم باشا الذى نكث عهده ، وأخل بشروط الهدنة التى اتفق أن يراعيها ، إن هـذه الظروف تحتم عليكم أن لا تبقوا بعد الآن واقفين من رايتكم موقف العداء ، وهو موقف لا تخفى عليكم عواقبه . فإذا دعوتكم لأن تتخلوا عن خدمة الأتراك فى الوقت الذى يتحفز فيه الأسطول العثمانى للاعتداء ، والذى يوجب عليه أن يتحين كل ما لديه من الفرص ، إذا دعوتكم إلى ذلك فإنما أبعث إليكم بتحذير يجب عليكم أن تستفيدوا منه إذا كنتم لا تزالون فرنسيين[2] » .

(١) دون فى كتاب نوارين السالف الذكر ص ٢٧٣ .
(٢) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الثانى ص ٥٥ .

ويقول لنا دون Douin إن جميع الضباط البحريين الفرنسيين ظلوا فرنسيين ، فتخلوا[1] عن زملائهم الأقدمين فى الساعة السادسة من صباح اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٢٧ . وفى اليوم التالى أصدر أمير البحر البريطانى « أوامره عن كيفية دخول الأسطول المشترك فى ثغر نوارين » . ويخيل إلينا من الاطلاع على نص هـذه الأوامر أنه لم يكن وقتئذ يعرف أن الضباط الفرنسيين قد انسحبوا من خدمة المصريين ، وذلك لأنه شدد « أن لا تطلق قذيفة من الأسطول المتحد قبل أن تعطى إشارة تدل على ذلك ، إلا إذا أطلقت النار إحدى البوارج التركية ، فنى هذه الحال يجب أن تدمر السفن التى أطلقت النار على الفور[٢] » .

وهاك ما حدث فى اليوم المتمم للعشرين من شهر أكتوبر ، منقولا عن تقرير بعث به كدرنجتن فى الحادى والعشرين من شهر أكتوبر سـنة ١٨٢٧ من البارجة آسيا الراسية فى ثغر نوارين :

« اتفقت أنا والـكونت هيدن Count Heiden والشڤلييه ده رنى على أن نأتى إلى هذا المـكان لـكى نحمل إبراهيم باشا على أن يمتنع عن الحرب الوحشية الماحقة التى أوقد نارها فى هذه البلاد منذ أن عاد مخذولا من خليج پتراس . وبناء على ذلك جاءت الأساطيل المتحدة مارة أمام بطاريات العـدو لترسو فى الساعة الثانية بعد ظهر أمس ...

« ولقد أمرت بأن لا يطلق مدفع من سـفننا إلا إذا أطلق الترك مدافعهم أولا ؛ ونفذ هذا الأمر تنفيذاً دقيقا ، فأذن للثلاث البوارج الإنجليزية أن ترسن

(١) دون فى كتابه السالف الذكر ص ٢٨٠ .
(٢) بورشير الجزء الثانى ص ٦٩ .

أمام البطاريات وأن ترابط فى أماكنها من غير أن تقوم بعمل عدائى ، مع أنه قد تبين أن جميع السفن التركية كانت تعد عدتها للاعتداء . ولكن لما أرسلت البارجة دارتموث Dartmouth قاربا من قواربها إلى إحدى الحراقات ، أصيب الملازم . ج . و . هـ . فتزروى G. W. H Fitzroy وبعض بحارتها بطلقات من بنادق الأعداء ، فأجابت البارجتان دارتموث ولاسيرين La Syrène بإطلاق نار دفاعية من البنادق على العدو . ولا سيرين هى السفينة المعقود لواؤها لقائد ده رنى . وعلى أثر ذلك أطلقت إحدى البوارج المصرية قذيفة من أحد مدافعها على سفينة القائد ده رنى ، فرد عليه بالمثل ، ولم يمض إلا قليل من الزمن حتى حمى وطيس القتال واشتركت فيه السفن كلها .

« ودامت هذه المعركة الطاحنة أربع ساعات كاملة لم يخب فيها سعيرها ؛ فلما سكتت تكشفت عن منظر من التدمير والتخريب قلما رأى الناس مثله من قبل . وكانت كلما تعطلت سفينة من سفن أعدائنا وعجزت عن القتال ، حاول الذين استطاعوا النجاة من بحارتها أن يضرموا النار فيها ، فكانت نجاتنا من انفجاراتها المتتابعة المروعة أمرا عجيبا . ولما وجدت أن العثمانيين قد ضحوا بكلمة الشرف التى يتباهون بها فى سبيل التخريب الوحشى الطليق ، وأن القوم قد انتهزوا فرصة ثقتنا بصدق إبراهيم فانتفعوا بهذه الثقة أدنأ انتفاع ، شعرت بالرغبة فى الاقتصاص من أولئك الآثمين . ولكننى رأيت من الواجب أن أكف عن هذا القصاص فكففت[1] » .

وكتب كدرنجتن خطابا لزوجته فى الساعة العاشرة من صباح يوم الموقعة استهله بقوله :

« لقد حارب الأتراك ياعزيزتى وأحسنوا الحرب ؛ ولقد دمرنا أسطولهم

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٧١ .

فجعلناه أثرا بعد عين ؛ ولكنا بذلنا فى سبيل ذلك ثمنا غاليا ، فقد فقدنا اسمث Smith المسكين والكبتن بل Captain Bell من رجال البحرية وغيرهما من خيار رجالنا ؛ وكثيرا ما دارت بى السفينة ؛ ولم ينج هرى (ولده) من جرح صغير سيضمن له الترق حينما يتم مهمته . وقد أراد أن يكتب إليك بنفسه ولكننى أحب أن يبقى ساكناً هادئاً حتى لا تصيبه حمى مهما كانت طفيفة ، ولذلك لن أسمح له بالكتابة ؛ ولقد زرته فى إحدى حجرات المستشفى الذى بالبارجة فوجدته مستغرقا فى النوم »(١) .

وكتب أمير البحر البريطانى إلى أخيه خطابا يقول فيه إن « ولدى العزيز هرى جرح جرحا بليغا ولكنه يتماثل للشفاء ؛ ويقينى أن التحسن سيظل مطردا لأن الحمى لا أثر لها فى جسمه ، ولأنه هادئ الطبع هدوءا يبعث على السرور والارتياح »(٢) .

وكان إبراهيم حينما حدثت هذه المعركة ، التى اتقدت نارها بسبب خطأ موبق ، بعيدا عن موطن القتال بعدة أميال ؛ ودمر أسطوله وهو فى داخل البلاد يطارد اليونانيين . ولقد أظهر من ضروب البسالة ما لا مثيل له فى التاريخ . ولو أنه كان قد نكث عهده مع الحلفاء لعرف أن الحرب لا محالة واقعة بينه وبينهم ؛ وذلك لأنه لم يكن بالرجل الأبله . وأقوى دليل على أنه هو وكدرنجتن لم يفهم كلاهما صاحبه ، أن إبراهيم لم يتسلم خطاب أمير البحر البريطانى المرسل إليه فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٢٧ ، وأنه غادر نوارين ليهاجم العدو بالجنود الذين لم يكونوا فى اعتقادنا من « القوات البرية والبحرية المكونة (لجزء من) حملة الإسكندرية » . ولو أنه عرف ما كان يجول فى خاطر أمير البحر البريطانى لما غاب عن نوارين فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ .

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٧٧ .
(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٩٠ .

الفصل التاسع

عاقبة نوارين

لم تكد لندن تسمع بالنصر الذى أحرزه الحلفاء فى نوارين ، حتى تعطف الملك فأنعم على السير إدورد كدرنجتن بالطبقة الأولى من نيشان الحمام الحربى . وقد أحرز هـذا الشرف بناء على توصية دوق كلارنس Clarence المشرف على وزارة البحرية فى ذلك الوقت . لكننا نعلم من خطاب مؤرخ ١٤ نوفمبر سـنة ١٨٢٧ ، أى اليوم التالى لهذا الإنعام ، مرسل إلى كدرنجتن من صديقه السير جون چور Sir John Jore ، أن صاحب السمو الملكى قال :

« لقد اضطررت أن أكافح كفاحا شديدا لأتغلب على ما كان يتملك أعضاء اللجنة من إجحاف وعناد لا تستطيع أن تتصوره ، أستغفر الله بل تستطيع أن تتصوره من معاملتهم لك فى لجنة الإشارات . ولكننى تغلبت عليهم ، وسأتغلب عليهم فى المستقبل إذا دعانى داعى الحق » ؛ و بعد أن أورد السير جون چور عبارة دوق كلارنس بنصها استمر يقول : « ثم أخبرنى أن الوزراء قد تحيروا فى أمرهم لما علموا بعملك المجيد ، وهو الاقتصاص من المسلم الغادر ؛ وأنهم لم يكونوا يتصورون أن هـذه النتائج فى حيز الإمكان ، وأنه قد وقعت بينه و بين المستر كاننج M. Canning مشادة كادت تؤدى إلى شجار عنى ، لأنه أرسل إليك السفينتين جنوا والبيون Genoa & Albion ، ولأن السفينة المسماة واراسپيت Warspite هى الآن فى طريقها إليك من غير أن يعرف بذلك مجلس الوزراء بصفة رسمية[1] » .

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الثانى ص ١١٨ .

وإذا رجعنا إلى دائرة المعارف البريطانية وقرأنا فيها المقالة الخاصة بالسير إدورد كدرنجتن وجدنا فيها ما يأتى :

« لم تكن المعركة متوقعة فى إنجلترا ، ولم تكن النتيجة التى أسفرت عنها مما تغتبط به وزارة ذلك الوقت ؛ ولذلك اضطر كدرنجتن أن يكتب عدة خطابات ليبرهن على أنه لم يتجاوز الأوامر الصادرة إليه . ولكنه رغم ذلك استدعى إلى إنجلترا بخطاب مؤرخ ٤ يونية » .

ولو شئنا أن نتتبع كل ما جاء فى هذه المراسلات وما تفرع عنها لتشعب بنا البحث تشعبا لا حد له ؛ وحسبنا أن نقول إن اللورد ددلى Lord Dudley وزير الخارجية البريطانية وقتئذ قدم إلى وزارة البحرية فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٢٧ عشرة أسئلة وطلب أن يجيب عنها كدرنجتن إجابات دقيقة ؛ فأجاب عنها أمير البحر إجابات صريحة وافية تشرفه وتعلى من قدره . وكان من بين هذه الأسئلة أن وزارة الخارجية تريد أن تعرف هل المذكرة التى قدمت مع رسائل كدرنجتن هى المذكرة التحريرية الوحيدة التى أشير فيها إشارة صريحة إلى شروط الهدنة ؟ وهل بلغت هذه المذكرة إلى إبراهيم أو إلى أى ضابط آخر من ضباط القوة التركية الذين حضروا الاجتماع ؟ ولا حاجة إلى القول بأن الرد على السؤال الأول كان بالإيجاب وأن الجواب عن السؤال الثانى كان بالنفى . ولما كانت وزارة الخارجية قد ظلت مصرة على أن كدرنجتن جعل للشك سبيلاً إلى شروط الهدنة ، فإن هذا القائد أيقن أن قوة مركزه تتوقف على بيان أهمية عبارة « المدفع » التى وردت فى تعليمات اللورد استرتفورد ده ردكاف ؛ ولذلك أضاف إلى أجوبته عن الأسئلة السابقة مذكرة مصوغة فى العبارة الآتية :

« على أننى أرجو أن يسمح لى صاحب السمو الملكى القائد الأعلى للأسطول

بأن أعير على وقته أكثر مما أغرت ، فأشير أولا إلى ما جاء فى الأمر الثانى خاصا بالهدنة وهو : فإذا تحقق هذا الفرض فسيبلغك ذلك سفير جلالة الملك فى الآستانة مباشرة، وقد تلقى التعليمات بأن يتصل بك ... الخ ؛ وستكون التعليمات التى قد تتلقاها ، والأوامر التى قد تصحبها ، والتى أرجو أن تعمل بمقتضاها ، موضع الاتفاق بين السفراء الثلاثة ؛ وسيكون واجبك أن تتفق مع القائدين الفرنسى والروسى على التدابير والإجراءات التى سوف يشير بها هؤلاء السفراء أو تقتضيها الظروف .

« و بعد أن أعملت الفكر فى النتائج التى يمكن بل يحتمل أن تترتب على تنفيذ هذا الأمر ، كتبت فى ١١ أغسطس إلى سفير جلالة الملك فى الآستانة أقول :

« ليس فى مقدور واحد منا أن يعرف كيف نستطيع أن نمنع الأتراك بالقوة من أن يسلكوا الطريق الذى يراد منا أن نمنعهم من سلوكه ، وأن لا نلجأ إلى الحرب إذا أصروا على ما يريدون . وليس ثمة سبيل يوصل إلى هذه الغاية إلا سبيل الحصر البحرى أو ما شابهه — و إذا أريد اختراق هذا الحصار بالقوة فلا يستطاع منع ذلك إلا بالقوة .

« وقد أجابنى عن ذلك بخطاب سرى تاريخه ١٩ أغسطس سنة ١٨٢٧ . . ثم جاءنى منه خطاب سرى آخر بتاريخ أول سبتمبر سنة ١٨٢٧ يجيب فيه عن سؤالى السابق بقوله :

« ففى موضوع الاصطدام مثلا قد اتفقنا على أن لا يكون الروح الذى تسيرون عليه فى تنفيذ تلك الأوامر روحاً عدائيا ، ومع أن الحكومات المتحالفة تقصد من غير شك أن تتجنب إذا أمكن كل ما قد يؤدى إلى نشوب الحرب ،

فإن منع وصول الإمدادات التى ذكرت فى التعليات المرسلة إليكم يجب تنفيذه فى آخر الأمر بالمدفع ، بعد أن تستنفدوا جميع الوسائل الأخرى .

« و يستفاد من هذه الوثائق أن الواجب يحتم على أن أنفذ شروط المعاهدة بالنصح والإقناع إذا استطعت ؛ و باستخدام القوة الفعلية إذا لم أستطع . وهذه القوة قد عبر عنها المستر س . كاننج S. Canning بلفظ « المدفع »[(١)] .

ومعنى هذا أن كدرنجتن كان يتحدى خادما من أوسع خدام التاج البريطانى نفوذا وأعظمهم ميلا للنضال . وكان لورد استرتفورد ده ردكلف أو المستر استرتفورد كاننج كما كان اسمه وقتئذ ، عدوا وغر الصدر يؤكد ا . ف ملكولم اسمث E. F. Malcolm Smith أحدث مترجم له أن « الزهو لم يكن من رذائل السفير المتأصلة ، بل كانت عيوبه من صنف آخر . وقد ظل يندد بالترك و يقدح فيهم حتى أذلهم وأفقدهم كرامتهم فى أعينهم[(٢)] » . ومن كانت هذه أخلاقه لا يمكن أن يقبل من أحد ضباط البحرية أن يلقى عليه تبعة سفك الدماء دون أن يثأر لنفسه منه . ولا شك بعدئذ فى أن جواب كدرنجتن ، مهما بلغ من قوته ، قد أثار غيظ ذلك الرجل الدبلوماسى القوى ، الذى كان يسعى جهده لاستقلال اليونان ، ولكنه كان فى الوقت نفسه لا يرضى أن يسفك دم الأتراك ، ثم تلقى تبعة سفكه عليه .

وكان إبراهيم لا يزال فى المورة خلال هذه الأسابيع العصيبة ، التى كان كدرنجتن يلاقى فيها من رؤسائه كل عنت و إرهاق . وقد أبلغ القائد الروسى

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الثانى ص ١٣٢ .
(٢) حياة استرتفورد كاننج — لورد استرتفورد ده ردكلف تأليف ا . ف ملكولم اسمث ، لندن ، إرنست بن ١٩٣٣ ص ١٧٥ .

قنصله فى الإسكندرية فى الرابع والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٨٢٧ أن الأسطول التركى المصرى قد دمر ، وأن إبراهيم لم يستسلم بعد بل لا يزال فى داخل البلاد يدمرها ويعيث فيها فساداً . ونصح للقنصل أن يغادر الإسكندرية خوفاً من القصاص ، ولكنه مع ذلك أسرع بإضافة هذه الحاشية : « ولا تزال عشرون سفينة من سفن محمد على سليمة فى نوارين ، وهذا دليل على أننا حين دخلناها لم تكن لنا مقاصد عدائية » .

ولسنا نعرف الوقت الذى وصلت فيه هذه الرسالة إلى الإسكندرية ، غير أن المحفوظات الروسية تدلنا على أن السفينة المصرية المسماة واشنجتن قدمت فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٢٧ تحمل رسالة من إبراهيم ، يقول فيها إن ستين قرية قد استسلمت له ، وإنه ينتظر أن ترسل إليه تعليمات عن الحصر الذى ضربه الحلفاء ، وإن لورد كخرين قد أحدق بمسولنجى . وأقلقت هذه الأنباء بال محمد على ، وجعلته يخشى أن يقف الباب العالى موقف المناد ، فيأبى أن يتزحزح عن موقفه(١) . ومضى بعد ذلك حين من الزمن قبل أن يعرف أن أسطوله دمر فى ٢٠ اكتوبر . وكان أول ما فعله بعد ذلك أن أكد للقناصل والرعايا الأجانب أنهم آمنون ولا خوف عليهم(٢) .

وأبت الآستانة أن تعترف بأن تدمير الأسطول العثمانى معناه انتهاء القتال ، ومع ذلك ظل محمد على مخلصاً لمولاه . وفى الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٢٧ قدم إلى الإسكندرية رسول من إبراهيم يؤيد نبأ الكارثة البحرية ، ولكنه يؤكد أنه قد عمل على أن يتلافى آثار الهزيمة ، وأنه مستعد لمواصلة

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ١٣٤
(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٤٠ .

القتال . ولما قاربت سنة ١٨٢٧ على الانتهاء تجددت ثقة محمد على فى انتصار الجيوش العثمانية النهائى على الأعداء . وجاءه فى ١٦ يناير سنة ١٨٢٨ خطاب من إبراهيم يطلب فيه إرسال المدد لا سيما السفن ، وجاء فى خطابه أن جيشه فى ذلك الوقت يتألف من ١٢٠٠٠ جندى نظامى ، وأربعة آلاف من غير النظاميين ، وألفين من الفرسان ؛ وأن سليمان باشا (الكولونل سيف) قد احتل تريوليتزا بثلاثة آلاف من الجند ، وأن لديه من الزاد ما يكفيه أربعة أشهر[1] .

ولم يبق إبراهيم من غير عمل وهو ينتظر المدد ؛ بل تقدم نحو فليبوبوليس Philipopolis ، ولكنه لما شعر بأنه قد تعوزه المؤونة ، أعاد ألف جريح وعشرة آلاف من البحارة الترك إلى بلادهم ، كما أرسل إلى الإسكندرية أربعة آلاف وخمسمائة من العبيد[2] . ولم ينكر عليه والده هذا العمل ، ولكنه لفطنته كان دائم الاتصال بنبض أوربا الدبلوماسى ، بينما كان إبراهيم يعنى بالوجهة الحربية المحضة من المشكلة القائمة وقتئذ . ويستفاد من المحفوظات الروسية أن المستر كرادك Mr. Cradock الذى كان يمثل وزارة الخارجية البريطانية فى مصر فى صيف عام ١٨٢٧ ، اتصل مرة أخرى بالوالى ؛ وكان يصحبه فى هذه المرة أحد أبناء أمير البحر كدرنجتن[3] ، وأكبر ظننا أنه هو الشاب الذى جرح فى موقعة نوارين .

إن الأمور قلما تسير سيراً سريعاً فى بلاد الشرق الأدنى ؛ ولذلك ظل كرادك ومحمد على يبحثان عن سبيل للخروج من هذا المأزق حتى سقطت الوزارة البريطانية . وكانت نتيجة سقوطها أن تولى الأمر دوق ولنجتن

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٧٠ .
(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٧٦ .
(٣) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٨٢ .

Wellington ، وعرف الباشا من ذلك ومن خطبة العرش أن الحلف المعقود بين فرنسا وإنجلترا والروسيا أوشك أن يتصدع(١) . وإن تعجب من شىء فعجب أن يتتبع المصريون حتى فى ذلك الوقت تطورات السياسة البريطانية عن كثب . وكانت الفقرة التى انطبعت فى ذهن محمد على من خطبة العرش هى :

« وبينا نحن نعمل للوصول إلى الغرض الذى كانت ترمى إليه المعاهدة ، حدث فى ثغر نوارين اصطدام لم يكن جلالة الملك يتوقعه بين أساطيل حكومات الدول المتعاقدة وأسطول الباب العالى . وإن جلالة الملك ليأسف لوقوع هذا الحادث بينه وبين القوات البحرية لحليف قديم ، على الرغم مما أظهره الأسطول المتحد من ضروب البسالة . ولكنه لا يزال يرجو وهو واثق أن لا يتبع هذا الحادث المشئوم اقتتال آخر ، وأن لا يكون سبباً فى عرقلة المساعى التى تبذل لتسوية الخلاف القائم بين الباب العالى واليونانيين تسوية ودية ، تقتضيها من غير شك مصالحهما المشتركة(٢) » .

وقد أثار هذا التصريح مناقشة عامة اشترك فيها أعضاء مجلسى البرلمان . وإذ كنا نعلم من تقارير القنصلية الروسية مبلغ تأثر محمد على بخطبة العرش ، فإننا لا نخطئ إذا اعتقدنا أن الوالى قد تتبع هذا الجدال باهتمام عظيم . وكان ممن خطبوا فى مجلس الأعيان(٣) دوق ولنجتن ، ولورد هلند ، وإرل جراى ، وماركيز لاندسدون ، وإرل ددلى ، والفيكونت جدريك . وخطب فى مجلس النواب مستر

(١) المصدر عينه جزء ١ ص ١٩٣ .
(٢) بورشير فى كتابها السالف الذكر جزء ٢ ص ١٧٨ .
(٣) المصدر عينه جزء ٢ ص ١٧٩ .

بروجام ، ولورد ألثرب ، ولورد پلمرستون وغيرهم[1] . وكانت كل ملاحظاتهم تدور حول لفظ « مشئوم » فقد قال اللورد هلند :

« لا يسعنى إلا إظهار الأسف لوصف موقعة نوارين بأنها حادث مشئوم » فأجاب دوق ولنجتن : « إنما قصد بلفظ « مشئوم » أن الحادث كان غير متوقع يدعو إلى الأسف . . . . ؛ ولست أقصد بهذا القول أن أطعن أقل الطعن على الضابط الشهم الذى كان يقود الأسطول فى نوارين ، أو أن أتهمه بأقل تهمة . كلا وألف كلا » .

على أن محمدا عليا لم يكن متحققاً كل التحقق من أنه لم يتهم ، ولذلك قرر أن يبادر إلى العمل فى أناة وتؤدة . وكان يعرف أن أسطوله قد هزم ، وأن إبراهيم فى داخل البلاد ، ولكن فى وسعه أن يعنى بأمره كل العناية ؛ لذلك رأى أن يترك الحادثات تكيف نفسها بنفسها ، وأن يحرص أشد الحرص على أن لا يقطع المفاوضات . وكان أكبر ما يهمه أن يرقب الأثر الذى يحدثه حصار الحلفاء فى مصير ابنه إبراهيم . وسرعان ما عرف أن لندن غير راضية عن الخطة التى اتبعت فى تنفيذ هذا الحصار ، وأن النزاع قد شجر بين القائدين الروسى والفرنسى . ويجب أن لا يفوتنا أيضا أن نشير إلى العلاقة الودية التى كانت بين النمسا وبين محمد على ، وأنه كان من مصلحتها أن يبلغه كل ما يقال فى الدوائر الدبلوماسية . ولا يبعد قط أنه سمع أن دوق ولنجتن كتب فى أوراقه الملحوظة الآتية منذ يوم ٣ مايو سنة ١٨٢٨ : « لقد حان الوقت الذى يجب فيه أن يبحث مجلس

---

(١) Lord Holland, Earl Grey, the Marquess of Landsdowne, Earl Dudley, Viscount Goderich; Mr. Brougham, Lord Althorp, Lord Palmerstone.

الوزراء فى أمر السير إدورد كدرنجتن وهل يستدعى أو يبقى حيث هو »[1] .

ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أبلغ كدرنجتن أن مجلس الوزراء لم يعد راضياً عنه ؛ وكتب إليه إرل أبردين Earl of Aberdeen قبل آخر مايو سنة ١٨٢٨ خطاباً مطولا بدأه بقوله :

« سيدى :

« بعد أن بحثت الأوامر الصادرة إليكم من صاحب السمو الملكى القائد الأعلى للأسطول بحثاً وافياً ، ووازنت بينها و بين الآراء التى تلقيتها منكم ، أرانى مضطراً مع الأسف إلى أن أبلغكم أن حكومة جلالة الملك لا تستطيع أن توفق بين الإجراءات التى اتبعتموها ، والتعليمات التى أرسلت إليكم ، وبخاصة ما أرسل إليكم منها بتاريخ ١٦ من شهر أكتوبر الماضى ، وإن كان ذلك يسوءها كل الإساءة . ولقد وصلت إليكم فى اليوم الثالث من شهر مارس سنة ١٨٢٧ التعليمات التى تضمنها خطاب مستر كروكر Mr. Croker إلى نائب أمير البحر السير هرى نيل Sir Harry Neale ، والمؤرخة ٨ فبراير سنه ١٨٢٦ ، وقد تسلمتموها على أنها أوامر نفذت ، ولكنها مرسلة إليكم للرجوع إليها إذا ما أعيد الموضوع على بساط البحث مرة أخرى . ولقد تبينتم من هذه الأوامر أن حكومة جلالة الملك لا تسمح بنقل اليونانيين من بلاد المورة إلى مصر » .

وجاء فى ختام هذا الخطاب الفقرة الآتية :

« و بعد أن فحصت حكومة جلالة الملك كل الظروف المحيطة بهذا الخطأ المشئوم فى فهم آرائها ونواياها ، رأت نفسها مضطرة إلى أن تكتب إلى صاحب

(١) أوراق ولنجتن المجلد الرابع ص ٤٢٣ منقولة عن بورشير فى كتابها السالف الذكر جزء ٢ ص ٢٤٥ .

السمو الملكى القائد الأعلى للأسطول تطاب إلى سموه الملكى أن يعفيكم من قيادة أسطول البحر الأبيض المتوسط »[١] .

ويلاحظ من هذا أن كدرنجتن لم يعزل من منصبه لأنه حارب فى موقعة نوارين ، بل لأنه عزيت إليه أغلاط ارتكبها بعد هذه الموقعة . ولا شك فى أن محمدا عليا كان يجهل هذه التفاصيل ، وأنه لم يكن يعرف إلا ما جاء فى خطبة العرش ، وأن أميرى البحر الروسى والفرنسى قد تنازعا ، وأن الشقاق قائم بين القائد البريطانى ورؤسائه . وقد اقتنع محمد على من هذه الاستنتاجات بأن الأمل بدأ يبسم لمصر ، وأنه مستطيع فى القريب العاجل أن يعقد الصلح بشروط حسنة . وإذا كان قد بقى مقتنعا بأن كدرنجتن قد أقيل من منصبه لأنه حارب فى موقعة نوارين « المشئومة » فإنه لم يكن هو وحده الذى هداه عقله إلى هذه النتيجة ، بل إن أمير البحر البريطانى نفسه كان أيضا من رأيه ، بدليل ما كتبه إلى دوق كلارنس فى ٢٢ يونيه من عام ١٨٢٨ :

« تسلمت بالأمس رسالة اللورد أبردين التى تعلن عزلى من منصبى . ولا حاجة لى بعد صدور القرار أن أدفع عن نفسى التهم التى بنى عليها ، بل سأنتظر حتى أجد من الوقت متسعا لذلك الدفاع . لكننى سأنتهز أول فرصة لأؤكد لسموكم الملكى أنى سأتمكن من أن أفند كل التهم التى تشتمل عليها هذه الوثيقة العجيبة ؛ وسترون سموكم أن ذنبى الأساسى هو موقعة نوارين ، وأن إلقاء تبعة النتائج الطبيعية المحتومة للمعاهدة على عاتقى كان خطة مدبرة ، أنجانى منها إلى ذلك الحين عطف جلالة الملك وعطف سموكم ؛ ولكنهم أسروها فى أنفسهم حتى لاحت لهم فرصة خير من الفرص السابقة[٢] » .

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر جزء ٢ ص ٣١٠ ، ٣١٢ .
(٢) المصدر عينه جزء ٢ ص ٣١٨ .

وربما كان مجلس الوزراء البريطانى قد أبطأ فى اختيار القائد الجديد . ومهما يكن من ذلك الأمر فان القائد الذى خلف كدرنجتن فى منصبه لم يعجل بالسفر بدليل أن أمير البحر الروسى وزميله الفرنسى قد اجتمعا ، ومعهما نائب عن كدرنجتن ، بابراهيم تجاه جزيرة مودون وتباحثوا جميعا فى الشروط الأولى للجلاء عن عدة أماكن كانت تحتلها وتقتنذ الجنود المصرية . وقبل أن تصل أخبار ذلك الاجتماع إلى الإسكندرية أبلغ القنصلُ الروسى نسلرودَ Nesselrode أن البريد الأخير الآتى من ملطة يحتوى على خبر عزل كدرنجتن وسفره القريب إلى لندن .

« وكانت التهمة التى وجهت إليه أنه لم يتبع الأوامر الصادرة إليه بمحاصرة المورة والإسكندرية بعد موقعة نوارين [١] » وثمة أمر ثان تطلع علينا به المحفوظات الروسية ، وهو أن كدرنجتن ومحمدا عليا تلاقيا فى مساء اليوم الخامس من شهر أغسطس سنة ١٨٢٨ لتنفيذ الاتفاق الذى تم فى الاجتماع المعقود أمام جزيرة مودون فى ٦ يوليه [٢] . ولا شك فى أن أمير البحر كان يحرص على إبرام شروط الاتفاق قبل أن يتخلى عن القيادة ، كما يتضح من خطاب كتبه إلى زوجه فى ٢٥ يوليه يقول فيه :

« ولما اتصل بنا ده هيدن De Heiden بعد ظهر اليوم عقدنا جلسة فى نادى ستوفن ، انتهت بعهد كتب صورته دتشكوف Datchkoff . . . ولما فرغنا من هذا العمل عدت إلى السفينة بعد الساعة الرابعة ، وانطلقت بها إلى نوارين حيث اتفقنا أن نقضى الليلة . وإذا جاء الغد ولم أدع إلى ملطة فسأسرع إلى الإسكندرية تنفيذا لاتفاقنا السابق ، لكى أعمل بنفسى وبقدر ما يصل إليه جهدى على تنفيذ

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٢٦٨ .
(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ٢٧٩ .

الغرض الأول من أغراض المعاهدة[١] » ثم كتب إليها بعد ذلك فى ٣٠ يوليه يقول :

« إذا وقعت عيناى على أسطول الوالى فى عرض البحر وتمكنا منه ، أنبأتك عنه النبأ اليقين . ذلك بأنى فى هذه الحال سأنال منه غرضى وليعزلونى بعد ذلك متى أرادوا[٢] » .

وكان جون باركر John Barker قنصل بريطانيا فى الإسكندرية قد مهد لكدرنجتن سبيل مقابلة الباشا ؛ فسارت الأمور على أذلالها . وكان مما قاله أمير البحر قبل أن يجرى الحديث مجراه إنه يجب أن يدون كل ما يتم عليه الاتفاق ، لأنه حصل قبل ذلك شىء من سوء التفاهم ، سببه أن ما اتفق عليه لم يدون . فأجابه الباشا إلى ما طلب[٣] » .

ولنعد بعد ذلك إلى محمد على فنقول إن تدمير الجزء المهم من أسطوله كان ضربة كسرت من زهوه ؛ لكننا إذا صدقنا ما نقله القنصل البريطانى العام إلى الكابتن رتشاردس Captain Richards فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٢٧ أى قبل موقعة نوارين ، رأينا أن الباشا كان يسره أن تدمر بعض سفنه . وفى وسع القارئ إذا وضعنا أمامه خطاب مستر سولت Ms. Salt نفسه أن يجد فيه أن بوغوص بك ناظر الخارجية المصرية أشار إلى أن محمداً عليًّا مقيد مع الآستانة بقيود تمنعه من الاتفاق مع الإنجليز إلى أن قال :

« ثم قال بوغوص بك بعد ذلك إن الباشا مستعد لأن يتلقى نبأ تدمير بعض مراكبه ؛ بل بلغ من أمره أن فكر فى أن ضررا صغيرا يلحق به قد يكون

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الثانى ص ٣٨١ .
(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٨٣ .
(٣) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٨٨ .

ذا فائدة له عند الباب العالى ، وحتى إذا خسر أسطوله كله فإن ذلك لا يغير من عواطفه نحو الإنجليز . وهو يؤكد للقناصل والتجار أن أرواحهم وأموالهم ستبقى محترمة مصونة ، وأنه سيعمل على حمايتهم ويضمن سلامتهم ، حتى إذا أرسل إليه السلطان أوامر صارمة واختاروا هم البقاء فى مصر »[(١)] .

ومعنى هذا أنه إذا كانت موقعة نوارين حادثا « مشئوما » فى نظر لورد استرتفورد ده ردكلف ودوق ولنجتن والوزارة البريطانية ، فإن محمداً عليًا قد رأى ما وراء بأسائها من نعمى ، إذ هيأت له فرصة طيبة تمكنه من أن يعقد الصلح مع الحلفاء ، ويلقى عن عاتقه ذلك العبء الكريه ، فلا يشق لينم الباب العالى . والحق أنه لم يكن أمامه وقتئذ إلا واحدة من اثنتين : فإما أن يقبل الشروط الشريفة التى يعرضها عليه كدرنجتن ، وإما أن يشدّد الحصر البحرى على الإسكندرية ويُمنع المدد عن جيش إبراهيم . فقبل ما كان لا بد من قبوله ورضى بشروط الصلح . وكان من ضمن هذه الشروط أن تجلو قوات إبراهيم عن بلاد اليونان ويسلم الأسرى اليونانيون . وجاء فى محضر الاجتماع الذى كان يكتبه ياور كدرنجتن أن الباشا لما أظهر فى أثناء الاجتماع شيئاً من التردد فى قبول بعض الالتزامات التى تفرضها عليه المعاهدة : —

« قال أمير البحر إن المسئولية التى يتحملها هو كبيرة ، لأنه أخذ على عاتقه هذا العبء الخطير ، عبء المفاوضة فى ذلك الموضوع فى الظروف القائمة وقتئذ دون أن يعرف الشروط التى قد يصر الحلفاء على طلبها من الباشا ، وإنه لا يبعد أن يكون السفراء قد تلقوا تعليمات أخرى تختلف عما لديه ، وإنه وإن كان لا يشك فى أن كل اتفاق يتم بينه وبين سمو الباشا لا بد أن يقبلوه هم وحكوماتهم ، فإنهم

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٤٧ .

ربما لا يرضون عن سلوكه ، وقد يشنق من أجله عند عودته إلى إنجلترا »[١] .

لكن كدرنجتن لم يشنق عند عودته إلى إنجلترا ، بل تقول دائرة المعارف البريطانية : « إنهم قدروا خدماته فمنحوه الطبقة الأولى من نيشان الحمام وإن يكن قد حمل من غير شك أوزارا غير أوزاره إلى حد ما على الأقل » .

لكننا رغم أقوال دائرة المعارف نعلم أنه منح الطبقة الأولى من نيشان الحمام فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٢٧[٢] ، وأن ذلك الشرف لم تكن له علاقة بالمفاوضات التى أدت إلى عقد المعاهدة ، بل ناله من قبل أن تتمكن منه وزارة الخارجية فتزرى عليه انتصاره « المشئوم » . ولقد حمل أوزار غيره وظل يحملها لأنه أثبت أنه نفذ أمر اللورد استرتفورد ده ردكلف وهو إطلاق « المدفع » بنصه ومعناه .

وفى خلال الشهور الأولى من المدة التى كان فيها كدرنجتن يفكر فى موقفه ويطبق على نفسه ما جاء فى الكتاب المقدس : « وأما التيس الذى خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حيًّا أمام الرب ليكفر عنه ليرسله إلى عزازيل إلى البرية »[٣] .

نقول بينما كان كدرنجتن يطبق هذه الآية على نفسه كانت قوات إبراهيم تجلو عن بلاد المورة ، وكانت سائر شروط المعاهدة فى دور التنفيذ . وفى التاسع من شهر اكتوبر سنة ١٨٢٨ وصل إبراهيم إلى الإسكندرية . ويقول قنصل الروسيا العام : إن « جميع المتصلين بالبلاط اغتبطوا برجوعه[٤] » ، وقد رجعت معه آخر فصيلة من قواته ، وكانت دلائل الصحة والنشاط بادية عليه ؛ كيف

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٩٠ .
(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ١١٥ .
(٣) اللاويين ١٦ : ١٠ .
(٤) قطاوى فى كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٣٠٧ .

لا والذى اجتمع به فى الخامس من شهر سبتمبر سنة ١٨٢٦ هو اللورد استرتفورد ده ردكلف لا أقل . وسنضع أمام القارئ نص ما كتبه السفير المظيم عن ذلك فى مذكراته ، لكيلا نتعرض للخطأ إذا نحن نقلنا معناه قال :

« وكانت وقفتى الثانية فى ثغر نوارين ؛ وكان هناك قائدنا البحرى (وهو غير كدرنجتن) ؛ وهناك قابلت أيضاً إبراهيم باشا ؛ وكان السكون العميق قد حل محل دوى المدافع وصليل السيوف ، حتى ليخيل إلى الملم بالأدب اليونانى القديم أن الشيخ نسطور قد نفث روحه الهادئ على حومة الوغى من موضع پيلوس Pylos القريب[1] . وكان أمير البحر ملكولم هو قائد الأسطول وقتئذ ، وكان وجوده واتصاله الودى بإبراهيم ممهدا للسلام الذى لاح أن مجئ البعثة التركية سيعززه ويحققه . وقد انقشعت بذلك السحب الملبدة فى الجو ومهدت السبيل لعمل السفراء . ولم يكن إبراهيم شكسا بطبعه وإن اتصف بالخشونة فى المعاملة والتحلل من معظم القيود فى ميدان القتال . وأذكر أنه زار أمير البحر بحضورى فى يوم من الأيام ، ولاقى من حسن الاستقبال وكرم الضيافة ما طاب له مجلسه ، فبدا ظرفه ولطفه ، ولم يعكر صفو الحديث شىء من ذكريات الحرب . ولما هم بالانصراف تبعته إلى باب غرفة السفينة ، فمر فى طريقه بمائدة مترجحة عليها بقية من المرطبات ، فأشار إلىَّ بطرفه وتناول شيئاً مما عليها قبل انصرافه .

---

(١) إلياذة هوميروس .

الفصل العاشر

المسألة الجزائرية

كتب وكيل القنصل الفرنسى فى القاهرة فى ٣ أبريل سنة ١٨٣٠ رسالة إلى بولنياك Polignac أشار فيها إلى عزيمة إبراهيم الماضية ، وانهماكه فى الإشراف على أعمال دار الصناعة البحرية فى الإسكندرية [١] . والحق أن القائد لم ين لحظة واحدة منذ عاد من بلاد اليونان عن أداء واجبه . فقد وصل إلى الإسكندرية فى ٩ أكتوبر سنة ١٨٢٨ ، ولم يحل اليوم السادس عشر من يناير سنة ١٨٢٩ حتى شرع فى إصلاح الحال الإدارية بمديرية الشرقية . نعم إنه كان يطبق فيها القانون الجديد الذى سنه والده [٢] ؛ ولكنه اضطلع بقسط وافر من هذا الإصلاح ، جعل أباه يصرح للقنصل الفرنسى فى ٢١ يولية أن إبراهيم قد حمل عنه عبئاً ثقيلا [٣] . ولم يكن العمل الذى اضطلع به إبراهيم ليخفف به العبء عن والده بالعمل الذى لا يكلف عناء . وكان محمد على إداريا يقظاً كما كان هو يحذو حذوه ، ويدل على ذلك ما كتبه عنه بزونى Pezzoni الذى عين قنصلا للروسيا بعد دروفتى ، فقد أبلغ رئيسه فى ٢٥ أغسطس سنة ١٨٣٠ أن « إبراهيم الذى أصبح الآن على رأس الإدارة المدنية والعسكرية لا يمل من التفتيش على أعمال هذه الإدارة ؛ وكثيراً ما تراه مرتين أو ثلاثاً فى اليوم عند الخزانة يراقب

(١) محمد على وحملة الجزائر (١٨٢٩ — ١٩٣٠) تأليف جورج دون طبعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة سنة ١٩٣٠ ص ٣٣٠ .

(٢) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٣٢٩ .

(٣) المصدر عينه جزء ١ ص ٣٥٤ .

أعمال موظفيها . ولما وجد أن دار الحكمة التجارية لا تصلح لأن تكون مكاناً للقضاء ، أمر بأن تخرج منها الأرائك وتستبدل بها كراس ؛ وعُين كاتب خاص ليدون محاضر الجلسات ، وأصدر الأوامر إلى جميع الإدارات أن تكتب الحسابات بالطريقة المزدوجة (الدوبيا) ، وأن تستخدم الأرقام الأوربية »[(١)] .

لكن هذا القنصل عينه قد كشف عن جانب آخر قاتم من هذه الصورة ؛ إذ كتب فى تقرير آخر أن « السجون قد غصت بالمدينين البائسين ، زجهم فيها إبراهيم لأنهم عجزوا عن الوفاء بديونهم[(٢)] » . على أن الأثر السيء الذى تتركه هذه العبارة يخفف منه ، إن لم يمحه كله ، ما كتبه هـذا القنصل فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٢٩ :

« دعا إبراهيم أعيان البلاد والكشاف ورؤساء المصالح الحكومية ، ليعقد منهم مجلسا مؤلفا من أربعمائة عضو . وستكون مداولاتهم سرية . و يقال إن الغرض من دعوتهم هو أن يبحثوا فى الوسائل المؤدية إلى تحسين حال الشعب ووقف الهجرة وقطع دابر الفساد وتشجيع الأعمال الزراعية . و يرجى أيضا أن تؤدى مداولاتهم إلى تخفيف عبء الضرائب . وليس منا من لا يود معرفة الوسائل التى ستتم بها هذه الإصلاحات كلها » .

ودعا إبراهيم أيضاً أكابر رجال الدين . ولسنا نعرف بالضبط ما يقصده القنصل « بأكابر رجال الدين » ، ذلك أن رجال الدين الإسلامى هم جميع المسلمين ، وأن الإسلام لا يعترف بوجود سلطات دينية ، وليس من مبادئه أن يكون بين العبد وخالقه وسيط ، ولا وجود للقساوسة فيه . وأكبر ظننا أن الذين دعاهم إبراهيم

(١) المصدر عينه جزء ١ ص ٣٥٦ . لعله يقصد الأرقام الهندية . (المعرب)
(٢) المصدر عينه جزء ١ ص ٣٥٠ .

إلى الاجتماع هم العلماء أى المتفقهون فى الدين . ومهما يكن من ذلك فإن الشيء المهم هو أنه لم يبق شك فى أن إبراهيم كان لا ينقطع ساعة عن العمل . كما أن التقرير لم يغفل وصف غيرته وشدة بأسه ، فقد جاء فيه :

« يخشى الناس فى مصر إبراهيم وترتعد فرائصهم فزعاً إذا سمعوا اسمه ؛ ولذلك تشعر الدوائر القنصلية بأن هذا الخوف قد يرفع عن كاهل الأهالين شيئاً مما يعانونه من ظلم المديرين وحكام الأقاليم ، إن لم ينجهم من هذا الظلم كله » .

وكان هذا الرجل الذى يبعث الخشية من الله فى قلوب الخونة من الموظفين لا ينقطع عن الحركة ، بل كان دائب التنقل فى طول البلاد وعرضها ، فتراه يوماً يتفقد الجند عند الشلال الثانى ، وتراه فى اليوم التالى عائداً إلى الإسكندرية ينهب الأرض على راحلته ، ليشرف على إنزال بارجة إلى البحر . ولما كانت مصر بلداً زراعيا قبل كل شيء ، فقد كان للفلاح النصيب الأكبر من عنايته . ويؤكد جيمس أغسطس سانت جون James Augustus St. John الذى زار مصر فى الوقت الذى نتكلم عليه ، أن إبراهيم قد أدخل فى مصر الحديثة زراعة أشجار الزيتون[1] . ولما كانت الألسنة قد لهجت بذكر مظالم السخرة فإننا لا نرى بأساً من أن نورد هنا ما قاله عنها ذلك المؤلف :

« يحرص إبراهيم باشا على أداء أجور عماله فى أوقاتها ، فيدفع للطفل ثلاثين بارة ولمن يشتغلون بحفر الأرض والسائقين ورؤساء العمال والأقوياء من العمال أجراً متوسطه قرشان فى اليوم . ولما علم إبراهيم باشا بوجود اثنتى عشرة شجرة من خيار الشنبر[2] فى حدائق الشيخ إبراهيم رئيس طائفة الشيعة بالقاهرة ، أمر

(١) سانت جون فى كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ٤٤٥ .

(٢) شجر له ثمر كالخروب يتداوى به وهو من الفصيلة البقولية موطنه الهند ، وقد أسكنوه إفريقية الوسطى وأمريكا الجنوبية الخ . (المعرب)

فى الحال أن تغرس مئات من هذه الأشجار على جانبى إحدى طرق العجلات [١] .
وعنى إبراهيم عناية خاصة بزراعة القطن ، وحاول إدخال أشجار الأناناس إلى مصر . وأهم فى نظرنا من جده المتواصل وسرعة حركته وصلابته ، كياسته وحسن تصرفه ؛ ذلك بأن الكياسة ليست من الصفات التى توجد عادة فى المحارب الخشن المتأهب . وقد يكون سبب اتصاف إبراهيم بهذه الفضيلة الفذة القيمة ، أنه لم يكن جنديا من هذا الطراز .

والذى يجعلنا نهتم بهذه الصفة من صفات إبراهيم أنه وهو الرجل ذو الشخصية القوية ، الذى كان لا يتفق مع أبيه فى أهم مبدإ تقوم عليه سياسته الاقتصادية ، لم يجعل هذا الاختلاف فى الرأى سبباً لتعكير صفاء العلاقات بينهما . ولقد بقى إبراهيم متمسكا بآرائه ؛ وكان والده يعرف ذلك منه لأنه طالما أشار إليه فى التقارير الرسمية ، وكثيراً ما ذكر هذه الآراء الكتاب المعاصرون . ونحن نقصد آراءه فى نظام الاحتكار الذى كانت تسير عليه الحكومة المصرية فى ذلك الوقت .

وسنترك الآن مسألة الملكية العقارية لأنها مسألة معقدة شائكة ولا تمت بصلة إلى موضوعنا ، ونحصر اهتمامنا فيما يسميه ددول Dodwell « سياسة الباشا التجارية » ، وهى السياسة التى جعلته أعظم تجار القطر الذى كان يصرف شؤونه . فقد ذكر هذا الكاتب فى كتابه « منشئ مصر الحديثة » أنه « لم يكفه أن كان يرغم الفلاح على الزراعة ، بل كان يعين نوع ما يجب عليه أن يزرعه فى بعض الأراضى ، على أن يبيع المحصول لمخازن الحكومة بثمن معين . . . وقد نمت موارد القطر على يديه نماء لم يعهد له مثيل منذ قرون ، ولاح فى وقت من الأوقات أن

(١) سانت چون فى كتابه السالف الذكر ص ٤٤٦ .

الباشا قد حقق ناحية من نواحى الفكرة الاشتراكية على أقل تقدير[١] » . ويقول الدكتور وليم هولت ياتس Dr. William Holt Yates فى كتابه الذى نشره فى عام ١٨٤٣ :

« إن إبراهيم لا يوافق على كثير من آراء أبيه الاقتصادية ، ويعتقد أن نظام الاحتكار والاغتصاب لابد أن يؤدى إلى تدهور ثروة البلاد . ويُشَبِّه من يسير على هذا النظام برجل يقطع الشجرة الطيبة ، التى سوف تثمر ثمراً جنيا عظيما فى موسمها ، ليحصل منها فى العاجل على مقدار تافه من الفاكهة الفجة . ولكنه لا يجهل أن الباشا يمنعه عناده من الأخذ برأيه ؛ ولذلك اعتزم أن يحسم كل أسباب النزاع بينه وبين أبيه بالابتعاد عنه ما أمكنه ذلك ، مع خضوعه لسلطانه وإطاعة أوامره . ولكننى لا أخطئ كثيراً إذا قلت إن إبراهيم سيظهر فضله بعد وفاة أبيه ؛ ذلك بأن قواه العقلية سيكون نموها قد اكتمل ، وانطلقت من عقالها ، بعد أن ظلت حتى الآن معطلة لأن صاحبها مقيد غير طابق . ومع ذلك فالناس فى مصر يجلونه ويخشونه خشيتهم محمدا عليا نفسه فى بعض الشؤون التى أطلقت فيها يده ، وجعل له فيها الرأى الأعلى ، لا يتدخل والده فى أمرها . وقد عرف الناس ذلك وتهيأت عقولهم للاعتراف به رئيساً لهم بمجرد وفاة الوالى »[٢] .

وبينما كان إبراهيم يقوم بواجبه فى خدمة والده دون أن يمحو بذلك شخصيته ، كانت السياسة الفرنسية تسعى لتجرفه فى تيار دسائسها ومؤامراتها . وذلك أن صعابا قامت وقتئذ على ما يظهر بين فرنسا وداى الجزائر ، منشؤها ديون يستحقها بكرى وبوزناخ ، وهما رجلان من اليهود الجزائريين ، وردا غلالا للحكومة

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ٢١٨ .
(٢) ياتس فى كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ١٧٢ .

الفرنسية فى عهد الإدارة [١] ، ولم تكن هذه المسألة لتؤدى إلى قطع العلائق بين البلدين ، لولا أن حسينا داى الجزائر لطم القنصل الفرنسى ديڤال Deval فى وجهه بمذبته فى ٣٠ إبريل سنة ١٨٢٢ . ويلوح أن الحكومة الفرنسية لم تؤد الدين الذى عليها ، بل حصرت همها فى طلب التعويض عن هذه الإهانة ، وحاصرت ثغر الجزائر . ولولا معارضة رئيس وزراء فرنسا الكونت ده ڤليل Compte de- Villèle ، لأقدم وزير البحرية الدوق ده كلير مونت تنير Duc de Clermont Tonnèrre على إرسال حملة حربية . وكذلك أصر المسيو ده لافروناى M. de La Ferrornaye وزير الخارجية ، على أن تسوى المسألة بطريق المفاوضة . لكن إهانة أخرى وجهت إلى الحكومة الفرنسية ، فأثارت ثائرتها ودفعتها إلى العمل . وذلك أن النار أطلقت فى ٣ أغسطس سنة ١٨٢٩ على سفينة فرنسية تحمل راية المهادنة ؛ فقررت الحكومة إرسال حملة حربية إلى الجزائر . ولم يحل اليوم الرابع عشر من شهر يونية سنة ١٨٣٠ حتى نزلت الجنود الفرنسية فى سيدى فروخ [٢] .

ولقد يستنتج القارئ من بعد ما بين هذه التواريخ التى ذكرناها أن الحكومة الفرنسية قد أطرقت على المضض طويلا ؛ وذلك لأنه يلوح له أن جدالا قام فى ٣٠ إبريل سنة ١٨٢٧ بين القنصل الفرنسى وداى الجزائر ، منشؤه دين لتاجرين من يهود تلك البلاد يستحقانه منذ عام ١٧٩٩ ، وأن القنصل الفرنسى قد لطم على وجهه أثناء الجدال ، وأن النار أطلقت على سفينة فرنسية

---

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الثالثة عشرة تحت عنوان الجزائر المجلد الأول ص ٦٥٠ .

(٢) سيدى فروخ أو سيدى فاروش رأس وخليج صغير فى الجزائر على بعد ٢٥ كيلو متراً من مدينة الجزائر إلى غربيها انظر دائرة المعارف للبستانى . (المعرب)

تحمل راية المهادنة فى ٣ أغسطس سنة ١٨٢٩ ، وأن الجنود الفرنسية لم تنزل فى أرض الجزائر إلا فى الرابع عشر من شهر يونية سنة ١٨٣٠ . لكن الحقيقة أن الحالة الدولية فى أوربا فيما بين ٣٠ إبريل سنة ١٨٢٧ و ٣ أغسطس سنة ١٨٢٩ كانت مضطربة اضطراباً يمنع الحكومة الفرنسية من أن تتورط فى مجازفات جديدة . وهـذا الاضطراب لا يهمنا أمره ؛ وإنما الذى يهمنا فى قصتنا هذه أن وزارة الخارجية الفرنسية كانت فيما بين ٣ أغسطس سنة ١٨٢٩ و ١٤ يونية سنة ١٨٣٠ تدبر الخطط لتحمل إبراهيم على أن ينتقم لفرنسا من داى الجزائر .

وكان الذى أشار بهذا الرأى هو برناردن دروفتى . Bernardin Drovetti قنصل فرنسا لدى محمد على . ويلوح أنه فى أول يوم من سبتمبر سنة ١٨٢٩ ، أى وقت سماعه بمهاجمة السفينة الفرنسية ، كتب إلى البرنس ده پولنياك رئيس مجلس الوزراء الفرنسى بما يأتى :

« بين فرنسا وداى الجزائر نزاع تحتم عليها كرامتها أن ينتهى بطريقة تليق بها ؛ وقد دلت التجربة على أن الوسائل التى استخدمت حتى الآن لا تكفى لأن تنيلها هذا الغرض ؛ ودون إرسال حملة حربية إلى شواطئ بلاد المغرب صعاب جمة وأخطار عدة ؛ ومهما بلغ نجاح الحملة فإنها تكون كبيرة النفقة ، وقد تثير الغيرة فى نفوس إحدى الأمم المنافسة لنا . وقد يكون من المستطاع تخريب مكامن هؤلاء اللصوص المسلمين بأيدى طائفة من أبناء دينهم ، عرفوا شيئاً من النظام الحربى واتصلوا أكثر منهم بالمدنية . . . ولا يبعد أن يرضى محمد على بإرسال جيش إلى هذه الأصقاع يعاون فرنسا على إدخال هذه البلاد فى حظيرة المدنية الخ[1] . »

لكن الطمع والجشع والاستكلاب على المال ، وهى الصفات التى اتصف

(١) دون فى كتابه « محمد على وحملة الجزائر » ص ١ .

بها الجنرال بويبه Boyer رئيس البعثة الحربية التى أرسلها لويس الثامن عشر إلى محمد على ، كانت أكبر العوامل فى حبوط مشروعات دروڤتى . وإليك رسائله الرسمية تفصح عن هذا ، إذ يلوح أن دروڤتى رأى من واجبه أن يبلغ رئيسه فى ٧ أغسطس سنة ١٨٢٦ ما يأتى :

« لقد كان من واجبى قبل الآن أن أشرح لسعادتكم الخطة التى يسير عليها القائدان بويبه Boyer ولڤرون Livron ومن معهما من الضباط . لقد تمكنت فى نفوسهم من يوم مجيئهم فكرة خاطئة عن طبيعة مهمتهم التى وافقت عليها حكومة جلالة الملك ، والتى ترمى إلى تمهيد السبيل للحوادث التى تمكننا فى يوم من الأيام من الاستيلاء على هذه البلاد . لكن رئيس البعثة ما عتم أن أظهر أنه لم يأت إلى هنا ليخدم مصالح فرنسا بل لَيملأ خزانته بالمال . ولذلك ترك الأمر كله إلى الكولونل جودن Gaudin النشط الطموح(١) »

وجاء فى تقرير آخر كتبه دروڤتى فى ١١ يناير سنة ١٨٢٧ أن الجنرال بويبه قال : « إنه لم يأت إلى هـذه البلاد إلا ليحمل من المال ما يكفى لمهر بناته » . وقال القنصل بعد ذلك إن مرتبه الضخم وجشعه الشديد قد مكناه من بلوغ هذه الغاية(٢) . ثم دب دبيب البغضاء فى نفوس الضباط الفرنسيين ، وأدى التنافر بينهم إلى استقالة الجنرال بويبه وتسعة من زملائه الضباط من خدمة الحكومة المصرية فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٢٦ ، وعودتهم إلى فرنسا(٣) .

وكان من نتائج هذه الاستقالات والظروف التى تشرحها هذه التقارير القنصلية أن محمدا عليا وإبراهيم أصبحا شديدى الحيطة والحذر عندما فاتحهما فى هذا

(١) دربو فى كتابه « كريد والمورة » الذى نقلنا عنه من قبل ص ١٨٩ .
(٢) المصدر عينه ص ٢٢٩ .
(٣) المصدر عينه ص ١٩٣ .

الأمر ميمو Mimaut وهودر Huder فى نوفمبر سنة ١٨٢٩ . ومع أن إبراهيم لم يحضر الاجتماعات التمهيدية بين السياسيين الفرنسيين والباشا ، فإن اسمه يتردد كثيرا فى المذكرة التى بعث بها الموظفان الفرنسيان ؛ بل نستطيع أن نقول أكثر من هذا ، نقول إن شخصيته كانت المحور الذى يدور حوله الاقتراح كله ، حتى بلغ الأمر أن كتب بولنياك فى بعض التعليمات الإضافية التى بعث بها إلى ميمو وهودر فى ٧ يناير سنة ١٨٣٠ يقول :

« وقد يصبح هذا العمل (الاتفاق المقترح بين فرنسا ومحمد على) فى الوقت المناسب عاملا من أكبر العوامل فى قوة محمد على وإبراهيم . ويهمنا جدا أن لا يوقعه محمد على وحده ، بل أن يوقعه معه إبراهيم . ذلك بأن إبراهيم شديد الاحترام لكلمته ، ويعد نفسه شخصيا مرتبطاً بهذا العمل برباط قوى إذا أمكن الحصول على توقيعه . زد على ذلك أن من واجبنا أن نحتاط للمستقبل . ولكن الإشارة إلى ما عساه يحدث فى المستقبل أمر دقيق ؛ ولذلك يحسن أن يتولى الأمر المسيو هودر لأنه ليست له الصفة الرسمية التى للمسيو ميمو . وأهم ما يجب أن يحرص عليه هو أن يوقع إبراهيم هذا الاتفاق ، لأنه هو الذى سيعقد له لواء الحملة »(١) .

وقد صيغت المذكرة التى قدمت إلى محمد على فى أول اجتماع بينه وبين ممثلى الحكومة الفرنسية بحيث يفهم منها أن محمدا عليا كان صاحب الاقتراح الأول . فقد جاء فى مستهل هذه المذكرة أن « ملك فرنسا يوافق على أن يرسل محمد على حملة لإخضاع بلاد البربر والقضاء على القرصنة ؛ ثم تقول المذكرة بعد ذلك إن الحرب سيتولاها جنود الباشا وحدهم ، وإن الأسطول الفرنسى سيعاونه

(١) دون فى كتابه « محمد على وحملة الجزائر » السالف الذكر ص ٩٠ .

إذا طلب إليه ذلك . وفى المذكرة مواد أخرى ليست ذات خطر كبير ، إلا واحدة منها ورد فيها ذكر قرض تقدمه فرنسا لمصر ، ويبلغ مقداره عشرة ملايين من الفرنكات ، يدفع عند ما يبدأ سير الحملة . ويتبع المذكرة ملحق ينص بصريح العبارة على أن الحملة يجب أن يعقد لواؤها لإبراهيم (١) .

وتؤيد التعليمات المرسلة إلى المندوبين الفرنسيين هذا الإصرار على ذكر إبراهيم فقد جاء فيها :

« يجب أن تكون الحملة كبيرة العدد مهوبة ، ولا بد أن يتولى قيادتها إبراهيم نفسه لأن فى وجوده على رأسها أكبر ضمان لنجاحها » (٢) .

وكانت الوزارة الفرنسية تخشى أن يقودها رجل من الأتراك العاجزين الفاترى الهمة . ولذلك أصر البرنس ده بولنياك على أن يتولى إبراهيم قيادتها لوثوقه من شجاعته ولاعتقاده أن الجيش الفرنسى لا بد أن يشترك فى آخر الأمر مع الجنود المصريين . ولذلك كتب الأمير يقول : « إن الملك حين يضع كبار رجال البحرية تحت إمرة إبراهيم ليوليه ثقة لم يولها أحداً غيره » (٣) . وكما أن الفرنسيين أرادوا أن يعهدوا بشؤون الحملة العسكرية إلى إبراهيم ، فإن محمداً عليا وكل أمر المفاوضات إلى مهارة ابنه السياسية . وكتب بذلك مذكرة صيغت فى هذه العبارة القوية الموجزة :

« صديقى المحترم دروفتى : تسلمت خطابك ، وعرفت ما فيه ، وكلفت ولدى إبراهيم أن يجيبك عنه » (٤) .

---

(١) المصدر عينه ص ٢٩ .
(٢) المصدر عينه ص ٩١ .
(٣) المصدر عينه ص ٩٢ .
(٤) المصدر عينه ص ٣٣٠ .

ويلوح أن كل ما حدث عند ما استقبل محمد على ميمو وهودر فى الاجتماع الذى سبقت الإشارة إليـه ، هو تقديم أوراق الاعتماد وتبادل التحية وعرض المذكرة التى يحدد فيها الفرنسيون مقترحاتهم . فلما بدأ العمل الجدى فضل الباشا أن يتنحى عنه ويقدم عليه ابنه إبراهيم . وقد أظهر هـذا الجندى فى أداء تلك المهمة من المهارة والدراية ما تشهد به كل فقرة فى التقارير المرسلة إلى باريس .

وليس يخفى أن إبراهيم كان ألوفاً بطبعه ، وأنه لم يكن شىء يسره أكثر من اختلاطه بجنـده والتحدث إليهم . على أن المندوبين الفرنسيين مع ذلك يشيران فى تقاريرهما إلى « صمت إبراهيم وحزمه » ، ويقولان إنه فى أثناء الاجتماع الفاصل لم يكن ينطق بأكثر من قوله : « قال أبى وكتب أبى »[(١)] . وقبـل ثلاثة أسابيع من هذا اليوم السالف الذكر وصلت وزارة الخـارجية الفرنسية الأنباء عن النشاط الجم والإرادة[(٢)] القوية اللتين اتصف بهما ذلك السياسى المعقود اللسان ، الذى عرض على الدبلوماسيين فى يوم ٣ مارس سـنة ١٨٣٠ خطاباً كتبه لهم والده ، « وقرأه عليهم بنفسه كلمة فكلمة ، ثم أمر به فترجم لهم أثناء حضوره »[(٣)] . وانقطعت المفاوضات فى آخر إبريل سنة ١٨٣٠ . وربما كنـا مغالين فى تأكيد ما كان لجشع الجنرال بوييه من الأثر فى حبوطها . لقد عرفنا أن الفرنسيين كانوا يعلقون على العامل الشخصى فى الحملة أهمية كبيرة ؛ ولذلك أصروا على أن يتولى إبراهيم قيادتها . وليس ببعيد أن يكون الأثر السيئ الذى أحدثته البعثة العسكرية ، قد جعل القائد المصرى يبغض المشروع من أوله إلى

(١) المصدر عينه ص ٢٥٤ .
(٢) المصدر عينه ص ٢٥٢ .
(٣) المصدر عينه ص ١٩١ .

آخره . وقد يكون من أسباب حبوطها أيضاً أنه قد ساءه ما كانت ترمى إليه المذكرة من إفهام الناس أن صاحب الاقتراح هو محمد على ، فى حين أن دون يقول فى كتابه القيم عن هـذه الحملة خاصة إن برناردن ودروفتى هما صاحبا الاقتراح[١] . ومهما يكن السبب الحقيقى فى حبوط المشروع فإن السبب الرسمى لقطع المفاوضات لم تـكن له علاقة بهذه الأمور كلها ، و إلى القارئ هذا السبب :

ذكرنا من قبل أنه عرض على محمد على حسب نص المذكرة الأولى عشرة ملايين من الفرنكات ، تدفع له حينما تبدأ الحملة فى المسير . لكن الباشا أصر على أن تؤدى له على الفور أربعة ملايين من الفرنكات ، وأن تقدم له أربع بوارج حربية تحمل كل منها ثمانين مدفعا هدية خالصة[٢] . ويلوح أن المسألة المالية فى اقتراح الباشا كان يمكن تسويتها ؛ لكن مسألة السفن كانت العقبة الكؤود فى سبيل التسوية ؛ فقد دلت على أن محمدا عليا و إبراهيم لم يكونا يكتفيان بالإشراف على الأعمال الحربية البرية ، بل كانا يرغبان فى أن يكون لهما قسط وافر ، إن لم يكن لهما القسط الأوفر ، من المظاهرة البحرية . وقد يكون لهما غرض أبعد من هذا الغرض ؛ فلربما فكرا فيما يكون لهذا الحلف من أثر فى نواياهما فى سوريا . وذلك بأن إبراهيم كان على الدوام يطمح ببصره نحو الشرق لا نحو الغرب ، وكان يتطلع الى جعل مصر نواة لدولة عربيـة عظيمة ؛ وكان احتلال الشام متفقا مع هذه الآمال ، أما فتح الجزائر فإنه يحوله عن غرضه الأسمى .

وأيقن إبراهيم أن عداء بريطانيا سيقيم أمامه من العراقيل مالا يستطيع التغلب عليه ، وما يحول بينه و بين الغرض الذى تتوق إليه نفسه . ولولا أنه

(١) المصدر عينه ص ٥ .
(٢) المصدر عينه ص ١٧ .

لم يكن يشعر بأن « الفرنسيين لايفقهون شيئا فى بناء السفن أو إدارتها » ؛ ولولا أن سلوك بو بيه وزملائه قد هاج هائجه ، لجاز أن يغتنم هذه الفرصة التى أتاحها له البرنس ده پولنياك ، و يعقد حلفا مع فرنسا . قد يكون ذلك وقد لا يكون ، وكل الذى نعلمه علم اليقين أن ما يذكرونه من الأسباب لحبوط المفاوضات السياسية قلما يتفق مع الحقيقة كلها . وأكبر ظننا أن إبراهيم كان فى أثناء المحادثات التى امتازت « بسكوته الحازم » يخفى مقاصده شأن الدپلوماسى الواسع الحيلة والتدبير .

الفصل الحادى عشر

حروب الشام

إن أكبر ما تمتاز به الزعامة هو قدرتها على استرداد قوتها لتقضى بها بغيتها . وأكبر ما يميز القائد الماهر عن الجندى الموفق ، هو أن الأول إذا هزم تحمل الصدمة ولم تذهب ريحه . لذلك ترى الأمة الإنجليزية كثيراً ما تضطرب أمورها فى المراحل الأولى من حروبها ، وكثيراً ما تخسر جميع مواقعها إلا الموقعة الحاسمة الأخيرة . وليس أدل على أن محمداً عليا وإبراهيم كانا يمتازان بأعظم صفات الزعامة ، من أنهما أخذا يعملان ليمحوا أثر الهزيمة التى منيا بها فى نوارين ، كما أن انصرافهما إلى بناء أسطول جديد دليل على منتهى الحكمة وبعد النظر .

وقد كتب سماركو فى كتابه القيم « الأسطول المصرى فى عهد محمد على » وصفاً رائعا لما كانا يبديانه من الهمة والشجاعة فى إنشاء الأسطول الجديد . وأبلغت القنصلية الروسية فى الإسكندرية بطرسبرج فى ٢٨ مايو سنة ١٨٢٨ قبل أن يعود إبراهيم من بلاد المورة أن عدد وحدات الأسطول المصرى قد بلغ اثنتين وخمسين سفينة معظمها من الأباريق (ذات الشراع المربع) والبوارج الصغيرة من نوع الچيولت والكورڤت »(١) .

وبعد شهرين من هذا التاريخ كتب هذا القنصل نفسه يقول إن محمداً عليا اعتزم إنشاء أسطول ، وأعد العدة لاستيراد ما يلزمه من الخشب من كرمانيا

(١) فطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٢٢٣ .

والنحاس من توكات فى آسيا الصغرى ، وإنه شرع فى إنشاء دور لصناعة السفن فى مصر . وقد وضع للعمل نظاما محكما حتى أنه أدخل فى مصر نباتات جديدة ، لكيلا يضطر إلى استيراد المواد اللازمة لصنع الحبال والأشرعة [١] ، وعين فى شهر فبراير سنة ١٨٢٩ رجل فرنسى يدعى سريزى Cerizy ليشرف على إنشاء الأسطول الجديد [٢] .

ولم يكن محمد على ليجهل أن الحرب لا بد ناشبة بينه و بين عبد الله والى عكا حصن الشام الحصين فى يوم من الأيام . ولذلك أخذ يعد للأمور أقرانها لأن الدولة العثمانية بله البحر الأبيض الشرقى لا تتسع لمحمد على وعبد الله ؛ فكلاهما طموح يبغى مجالا واسعاً لمطامعه ؛ وتجاورهما لا بد أن يؤدى إلى قيام النزاع بينهما ، لأن كلا منهما حجر عثرة فى سبيل الآخر ، ولا بد أن يكون السيف هو الفاصل بينهما مهما تراخى الأمد . وجاءت الفرصة المرتقبة حينما ازدهى عبد الله على والى مصر . و يقال إنه حاول مرة أن يدس السم لمحمد على و إبراهيم ، و إنه جعل من البلاد التى كان يحكمها معششاً للمؤامرات على مصر [٣] . على أن الباشا وولده لم يأبها لهذه الدسائس ، لأن الأخطار التى كانا يتعرضان لها نتيجة لازمة لمنزلتهما السامية . فلما أن تحنى عبد الله بالمصريين الفارين من الجندية ، شعرا أن الوقت قد حان لامتشاق الحسام .

وأدرك السلطان أن الشر لا بد أن يستطير بين تابعيه القويين . ومع أن محمودا لم يكن من الحكام الأقوياء ، فقد كان يعلم من أحوال دولته ما يكفى

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٢٦٣ .
(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ٣٣٣ .
(٣) تاريخ الحرب بين محمد على والباب العالى تأليف كدلفين وبرو طبعة أرثر برتران باريس ١٨٣٧ ص ٤١ .

لإدراكه أن والى مصر أقوى الفريقين ، ولذلك اعتزم أن يضعف من شوكة محمد على بالتودد إلى إبراهيم لعله يستطيع أن يفرق بين الوالد الشجاع وابنه المدبر ، ولكن رجاءه خاب . وكانت الخطة التى دبرها ليصل بها إلى غرضه خطة ساذجة ، وهى أنه منح إبراهيم لقب « أمير مكة » اعترافاً بفضله فى الاستيلاء على الحرمين ، وهو اعتراف جاء بعد فوات الأوان . وكان هذا اللقب أعلى ألقاب الشرف التى يستطيع الباب العالى أن يمنحها إنسان ، وكان صاحبه يقدم على جميع وزراء الدولة العثمانية ، فأصبحت له بذلك الرياسة الدينية على محمد على . لكن إبراهيم أخاف مظنة السلطان ، فأخفق مسعاه فى إذلال باشا مصر وبذر بذور الشقاق بينه وبين ولده ؛ لأن « أعظم ما يمتاز به إبراهيم » كما يقول موريبه « هو إجلاله لوالده وخضوعه لرأيه على الدوام ، لأنه كان يرى أن أعظم مفاخره أن يكون عون أبيه وساعده الأيمن »(١) .

وكانت نتيجة هذا السعى للتفرقة بين محمد على وإبراهيم وبالا على محمود ؛ إذ نقلت إليهما عيونهما أن محموداً يعين عبد الله فى عدوانه عليهما . غير أنهما تقبلا هذه المناورات الخفية بصدر رحب ، لأن من عادة الشرقيين أن ينظروا إلى الدسائس تحاك حولهم وهم هادئون مطمئنون . لكنهما عند ما عرفا أن الآستانة تريد استذلال الباشا ، أجمعا أمرهما على أن يزجرا عبد الله زجراً تصطك له مسامع محمود . ولسنا فى حاجة إلى أن ننبه القارئ أنهما لم ينبذا طاعة الباب العالى أو يعلنا الحرب عليه ، بل كان كل ما اعتزماه أن ينكلا بوالى عكا تنكيلا يعرف منه مولاهما مبلغ استيائهما منه ، ويكون عربوناً لما سوف يلقاه منهما فيما بعد .

وكان أول ما فعلاه لتنفيذ هذه الخطة الحكيمة أن أرسلا رسولا إلى عبد الله مزوداً بأمر منهما يقضى :

(١) موريبه فى كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ١٤٩ .

(١) بأن يدفع ١١ مليون قرش يستحقها محمد على طرفه .
(٢) وأن يطرد من عنده الفلاحين المصريين .
(٣) وأن يعد وعدا صادقا بأن لا يسمح للمصريين بعد الآن بالهجرة إلى ولاية عكا .

فنظر عبد الله فى القانون ثم أجاب بقوله :

إنى مثلك وزير لمولانا المعظم السلطان محمود حفظه الله ونصره ؛ وليس من حقى أن أمنع الرعايا المخلصين لمولانا المعظم من الانتقال من مصر إلى الشام ، كما أنه ليس من حقك أن تمنع هؤلاء الرعايا من الهجرة من الشام إلى مصر . فإذا شئت أن أبادر بتسليم هؤلاء الفلاحين ، فما عليك إلا أن تستصدر لى أمراً بذلك من السلطان نفسه »[١] .

ولم يعجل محمد على بغزو الشام لانتشار الطاعون والكولرا فى مصر . ولم تمنعه عنايته بمكافحته الوباء من أن يكمل استعداده البرى والبحرى . وكان إبراهيم فى الوقت نفسه دائب الحركة والنشاط ، لا يسهو عن شىء مما يحتاجه حتى عصير العنب الخمر اللذيذ . لقد عرفنا من قبل أنه فى أثناء زيارته مكة ألقى بما كان معه من الروم فى النار ؛ أما الآن وهو يستعد لغزو الشام فقد قال فيه القنصل الروسى إنه « أصبح أكثر مدنية لأنه كان يشرب كثيراً من النبيذ من غير أن يضيف إليه الماء ، وكانت تعلو ثغره ابتسامة لطيفة على الدوام ، وكان إذا حادث إنساناً وضع يده على كتفه مبالغة فى اللطف والرقة . ومجمل القول أن آدابه هى آداب الجندى »[٢] .

---

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٤٧ .
(٢) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٣٦٢ .

وكان الجيش والأسطول الجديدان على قدم الاستعداد فى خريف سنة ١٨٣١ حينما فرغ إبراهيم باشا من ملء خزائنه بطيبات الحضارة الغربية . ثم أقلع الأسطول فى الرابع من نوفمبر وسافر إبراهيم بحراً فى السفينة قوله ، وهى فرقاطة بنيت فى ميناء أركنجل Archangel ، ميمما ثغر يافا ، حيث اتفق أن ينضم إليه قائد الفرسان سليم بك ، وعباس باشا وغيرهما من الضباط ومعهم ثمانية آلاف من الجمال والجند . وسار مع إبراهيم بطريق البحر سبعة آلاف من المشاة[١] . وكانت عمارته تتألف من إحدى وعشرين سفينة . على أن تقريراً من تقارير القناصل الروس قد ذكر أنها كانت تتألف من فرقاطة بها عشرة مدافع ومائة مدفع ومن أربع فرقاطات بها ستون مدفعاً ، واثنتين بكل منهما أربعة وأربعون مدفعاً ، وأربع عشرة أخرى أصغر منها ، عدا سفن النقل والحراقات[٢] . ويقول هذا القنصل نفسه إن هـذه الحملة سيرت من غير أن يأذن لها السلطان بالسفر[٣] . ولربما كانت يافا هى المكان الذى اختير ليجتمع فيه إبراهيم بالحملة التى سافرت إلى الشام برا ؛ لكنه التقى أولا بالقبائل الوطنية الضاربة حول حيفا . وكان قد نزل عندها إلى البر دون أن يكون معه سوى ستمائة من رجاله ، لأن الرياح عاقت سير سفن النقل . وقد وجد بجوار معسكره قوة كبيرة من العرب ، لم يقرر قوادها أينضمون إلى عبد الله أم إلى إبراهيم ، بل كانوا ينتظرون حتى تنجلى لهم حقيقة الموقف فينضوون تحت لواء أقوى القائدين . فلما رأوا العمارة المصرية أيقنوا أن إبراهيم أشد بأسا ، فجاءوا إليه يعرضون عليه خدمتهم فى الظاهر ويتبينون حقيقة أمره فى الباطن . ولكن إبراهيم أدرك مخبئات صدورهم ، فنظر

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٤٨ .
(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٤٦ .
(٣) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٤٧ .

إليهم نظرة ثاقبة لم يستطيعوا معها أن يحاجزوه عن ذات أنفسهم ، بل نمت عليهم وجوههم ، فنكسوا أبصارهم ونظروا إلى موطئ نعالهم ، فأدرك إبراهيم ما كانت توسوس به نفوسهم من غدر وخيانة . وكان من أقواله المأثورة « إن الرجل الشريف لا يستحيي أن يلقاك بوجهه » . وقال فى نفسه : « ها قد أخذت يتنفس هؤلاء الأدنياء » ثم أحدق فيهم بنظره و بش فى وجوههم وتبسم ابتسامة لطيفة وقال : « لا مانع لدى من أن تكونوا فى خدمتى ، ولكننى سأحتفظ بأولادكم رهائن عندى حتى أتثبت من إخلاصكم » . فنظروا إليه لحظة كأنهم يريدون أن يجيبوه عن قوله هذا ، ولكنهم رأوه لا يزال محدقاً فى وجوههم فأيقنوا أنه قد أخذ عليهم مذهبهم ، فاستسلموا للقضـــاء وانضووا هم وجيرتهم تحت لواء إبراهيم (١) .

وإذا كان علم إبراهيم بالطبيعة البشرية قد أكسبه معونة هذه الطوائف الإسلامية ، فإن تسامحه عاد عليه بصداقة المسيحيين من أهل البلاد المقدسة . من ذلك أنه قدم عليه بعد بضعة أيام من استيلائه على حيفا جماعة من رهبان الكرمل كانوا يريدون أن ينشئوا لهم ديرا على ذلك الجبل القريب من هذا البلد . و يظهر أنهم بعد أن جمعوا بعض مواد البناء اللازمة لهم وعلم عبد الله بما انتووه ، رأى أن موضع الدير يصلح لأن يبنى فيه لنفسه قصرا جميلا ؛ فاستولى على مواد البناء ليبنى بها ذلك القصر . وطلب الرهبان إلى إبراهيم أن يأذن لهم بتنفيذ غرضهم الأول ، فأجابهم إلى ما طلبوا وقال لهم : « خذوا كل ما تجدونه من مواد البناء واهدموا القصر إذا كان هدمه يتفق مع أغراضكم » . وقبل أن يبرح الرهبان المكان قال أحدهم إن عبـد الله قد قسا عليهم وظلمهم فلم يترك لهم مكانا جافا يخزنون فيه

(١) باتس فى كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ١٨٢ .

خبزهم وأغذيتهم القابلة للتلف . فأجابهم القائد المسلم : « هيا بنا نبحث عن مكان يصلح لهذا الغرض » . وسرعان ما وجدوا أن ليس في حيفا مكان يقى الأطعمة من المطر إلا المسجد التركي وكنيسة الروم الكاثوليك ، فتفقدهما إبراهيم ثم التفت إلى الكبتن پرسك Captain Prissick أحد الضباط الإنجليز الذين كانوا معه ، وإلى راهب ملطى مسن وقال لهما : « إنى إذا أخذت كنيستكم لم تجدوا مكانا تعبدون الله فيه ، وقال الناس عنى إننى همجى . أما رجالى فإنهم يستطيعون أن يؤدوا صلاتهم فى الجامع وفى العراء على السواء ، ولذلك يجب أن يكون المسجد مخزنا لطعامكم . ثم أتبع القول بالفعل ، فأخذ فأساً وفتح به منفذا فى الجدار المواجه للبحر » . ويقول الدكتور ياتس الذى نقلنا عنه هذا الحديث والذى يذكر أنه جمع هذه الحقائق فى حيفا نفسها : « واشترك إبراهيم بنفسه فى نقل أول كيس من الخبز[١] » .

ولذلك لا نعجب من قول هذا المؤرخ نفسه بعد ذلك « وكان لهذين العملين السياسيين أثر فى فتح الشام لا يقل عن أثر جيشه ، وذلك لأن لرجال الدين فى هذه البلاد نفوذ عظيم . ولم يفتهم أن يذيعوا هذين الخبرين بين السوريين المسيحيين . ويجدر بنا أيضا أن نذكر حادثا آخر كبير الأهمية ؛ ذلك أنه لما اقتربت قواه من عكا أرسل إلى عبد الله قبل أن يبدأ الهجوم عليها يحثه على أن يسمح للنساء والأطفال جميعا بأن يغادروا المدينة[٢] » .

لكن عبد الله لم يعمل بهذا الاقتراح ، وأحدق إبراهيم بالمدينة وهاجمها من البر والبحر . ولم يكن الاستيلاء عليها بالأمر اليسير ، فهى التى وقفت فى وجه

---

(١) المصدر عينه فى نفس الموضع .
(٢) المصدر عينه جزء ٢ ص ١٨٣ .

نابليون ، وهى التى كان يدافع عنها عبد الله وهو رجل صارم القلب ثابت الجنان ، وإن لم يكن حكيما مدبرا حر الفكر شريف النفس . وحاول إبراهيم فى اليوم التاسع من ديسمبر عام ١٨٣١ أن يأخذ المدينة عنوة بالهجوم عليها من البر والبحر ، ولكنه كان يروم مراما بعيداً . ويقول القنصل الروسى فى الإسكندرية فى رسالة بعث بها إلى رئيسه فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٣١ إن الهجوم لم يخفق فحسب بل أصبح من المستحيل أن يتنبأ الإنسان بما كان للمهاجمين فى ذمة المستقبل[١] .

على أن الصعاب التى قامت بعدئذ لم يكن منشؤها مناعة عكا الطبيعية ، ودفاع عبد الله المجيد عنها فحسب ، بل كانت أيضاً نتيجة الخطة التى سلكها الباب العالى . فبينما كان إبراهيم يدك حصون هذا البلد المنيع بمدافعه ، كان السلطان يصب عليه اللعنات ويسلط عليه سيلا من الفتاوى الدينية ؛ فمن ذلك أنه أصدر خطا شريفاً يرمى فيه مصر بالمروق ، ويعلن حصار ثغورها ، وأشيع أن الأوامر صدرت إلى الجنود التركية بالزحف على بلاد الشام[٢] ؛ ومنها أنه أصدر فى الرابع من مايو سنة ١٨٣٢ فرماناً شاهانيا بتجريد محمد على وإبراهيم وإباحة دمائهما[٣] .

ومر الأسبوع يتلو الأسبوع وعكا مستعصية على الجيش المصرى ، لا يستطيع أن ينال منها منالا . وقلقت الأفكار فى القاهرة والإسكندرية ، ولكن محمداً عليا بقى مطمئنا مشبع الجنان موقناً بالفوز ؛ وكان يقول على الدوام « ستستقيم الأمور بعد سقوط عكا » . لكن عكا لم تسقط ، وقلقت أفكار الشعب

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٥٣ .
(٢) « حكم محمد على من وثائق دبلوماسية إيطالية لم تنشر بعد » تأليف أنجيلو سماركو طبع فى روما على نفقة الجمعية الجغرافية الملكية المصرية سنة ١٩٣٢ جزء ٩ ص ٢٠٥ .
(٣) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٧٩ .

فأصدر الباشا فى ٨ مارس سنة ١٨٣٢ أوامر مشددة تحرم إذاعة أنباء الحرب فى مصر.

وأرسل نائب القنصل الروسى فى القاهرة فى ٣٠ مارس إلى رئيسه فى الإسكندرية ، يبلغه أن أربعة من أهل المدينة قد ضربت أعناقهم جزاء لهم على ثرثرتهم ، وأن عشرين من زملائهم زجوا فى غيابة السجون لينتظروا فيها ما قدر لهم من خير وشر.

وعلقت على أجسام رجلين من هؤلاء الثرثارين أوراق كتب عليها « هذا جزاء الذين لا يستطيعون أن يمسكوا لسانهم » ، وفى اليوم السابع من إبريل سنة ١٨٣٢ عرضت على الجمهور جثتان أخريان كتبت عليهما العبارة الآتية : « هذا هو العقاب الذى يحل بمن يقولون السوء عن الحكومة خفية »[1] .

ولو طال الانتظار أكثر من ذلك لأعدت أوراق خاصة لمن يذيعون أخبار السوء عن الحكومة وهم نائمون . وفى اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٣٢ حمل إبراهيم على المدينة حملة شديدة ، لكنه عجز عن اقتحامها ؛ فاستقر رأيه على أن يترك حولها خمسة آلاف من رجاله ، ويزحف بمن بقى منهم ، ليواجه جيوش أعدائه المحتشدة . فالتقى بالجيش التركى الذى سيره السلطان لقتاله ، وانقض عليه وحصده حصد الهشيم[2] ، وعقد له النصر أينما حل ، ولما وصلت هذه الانتصارات إلى القاهرة والإسكندرية ، ارتفع شأن إبراهيم ووثق الناس من قدرته وبسالته ، وتبدل قنوطهم أملا واستبشاراً ، وانطلقت الألسن من عقالها ، وأجيز للثرثارين أن يجهروا أو يخافتوا بأنباء الحرب ، ولم يعد منخوبو القلوب

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١١٠ .
(٢) سماركو فى كتابه السالف الذكر جزء ٩ ص ١٢٦ .

يخشون أن تذيع أزواجهم ما كانوا يرددونه من الأقوال فى منامهم .

و بعد أن اتقى إبراهيم الخطر الذى كان يهدد قواته المحاصرة ، عاد إلى عكا فى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٣٢ ، وحمل عليها حملة صادقة أشرف عليها بنفسه . وكان إذا حمى وطيس القتال فى مكان ، رأيته فيه يخوض غماره ويصطلى ناره ، وكان يتطلب من ضباطه أن يكونوا مثله صناديد لا يرهبون الردى . ويقال إنه قتل بيده نفراً من الضباط لأنهم أرادوا أن يرتدوا إلى آخر صفوف المهاجمين .

وطالت المعركة واشتد سعيرها وعبد الله لم يتضعضع ركنه . فلما آذنت الشمس بالمغيب حمل إبراهيم على المدينة حملته النهائية ؛ وأبدى المهاجون عند مغيب الشمس من ضروب الجرأة والحماسة والإقدام مثل ما أبدوه فى مطلع الفجر . ودافع عبد الله دفاع الأبطال ، لكن شجاعته لم تغن عنه شيئاً ، وسقط هذا الحصن المنيع بينما كان الليل يرخى سدوله على جدران المدينة وأسوارها .

وجاء أعيان المدينة يطلبون الرحمة . ولما كان الشجاع دائماً يعظم الشجعان ، رأى إبراهيم فى فلول الجيش المنهزم أعداء له يفخر بمحاربتهم ، فلم يسمه إلا أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم ؛ وبلغ منه أن سمح لهم بأن يحتفظوا بأسلحتهم . أما عبد الله نفسه فلم يعده بأكثر من تأمينه على حياته ، لكنه تلقاه بما هو خليق بمقامه كوزير من وزراء الدولة من الحفاوة ، وبما توجبه مصائبه من الإجلال »[1] .

وسلك عبد الله فى ساعة المحنة مسلك البطل المقدام . فقد استولى إبراهيم على الحصن الحصين الذى امتنع على بونابرت فارتد عنه خائباً ، لكن هذا الحصار لم يكن فيه سدنى سمث Sydney Smith يطوف بأسطوله قرب الشاطئ ،

(١) كدلڤين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ١٥٥ .

يحول دون وصول المدافع الثقيلة إلى المدينة ويصد عنها الهجوم من البحر . فلما أعوزها هذا المدد وما يبعثه فى قلوب أهلها من الشجاعة والأمل ، حاق بها الخطر ، فهزم عبد الله بعد أن دافع عنها دفاع الليث عن عرينه . ولما طلب إليه إبراهيم أن يأتيه بأموال الدولة عملا بشروط التسليم أجابه عبد الله :

« لقد كان لى أسوار وجنود وأموال أدافع بها عن عكا . فأما الأسوار فقد دكت ، وأما الرجال فقد كان معى منهم ستة آلاف هلك منهم خمسة آلاف وستمائة ، وأما الأموال فلم يبق منها إلا جواهر قليلة »(١) .

وكان عبد الله قد خر راكعاً أمام إبراهيم عند ما عبر عن شعوره بهذه الألفاظ . لكن القائد المظفر لم يسمح له بالركوع وقال له :

« إنى لا ألومك على مقاومتك إياى لأننا صنوان ؛ ولكنك قد عدوت طورك إذ أردت أن تقف فى وجه محمد على » . فأجابه عبد الله على الفور : « إن إرادة الله هى التى أوقعتنى فى يديك » . وبعد أن تبادلا أطراف الحديث هنيهة وهم إبراهيم بالانصراف مساه وقال له :

« أرجو أن تنام الليلة نوما هادئاً » . فأجابه عبد الله : « سأنام كما كنت أنام من قبل ، لكننى أطلب أن لا تعاملنى كما تعامل النساء ، فإن موقفى فى الدفاع لم يكن موقفهن . إن الخطأ الذى وقعت فيه هو أننى بالغت فى الاعتماد على السلطان ، لكن حظ السلطان من الشرف ليس أكثر من حظ النساء . . . ولو أننى عرفت خلقه لاختططت لنفسى خطة أخرى ؛ ولو فعلت لما كنت الآن أسيراً فى يديك »(٢) . وأرسل عبد الله وأفراد أسرته إلى مصر ، ويظهر

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١١١ .
(٢) صبرى فى كتابه السالف الذكر ص ١٩٧ .

أنهم قد أحسنت معاملتهم و إن بقوا فى ذل الإسار .

ونهب الجند عكا رغم ما قطعه إبراهيم لأعيانها من الوعود ، وما أصدره لجنوده من الأوامر ؛ إذ يلوح أن الجند أفلتوا من يده برهة قصيرة من الزمان ، فانطلقوا فى المدينة فى أثناء الليل ينهبون ذات اليمين وذات الشمال . لكن النظام لم يلبث أن أعيد فى صباح اليوم التالى ؛ وبذل إبراهيم كل ما فى وسعه ليكفر عن خروج الجند عليه ، فأذاع فى الناس أن كل من فقد متاعه سيرد إليه إذا وجد ، وأمر جنوده أن يعيدوا كل ما كان فى حوزتهم من الأسلاب .

وانتهز أحد القناصل الأجانب فرصة هذا الاضطراب ، فجعل من نفسه سمساراً وجمع بذلك مالا كثيراً ؛ فقد كان يبتاع أقوم الأشياء بأبخس الأثمان ثم يعود فيبيعها بأغلاها ، ويجنى من وراء ذلك أرباحا طائلة ، مستظلا براية الامتيازات(١) . وقد نقلنا هذه الحقائق عن كدلفين وبرو Cadalvéne and Barrault اللذين استقياها من أماكنها ، ونشرا كتابهما فى عام ١٨٣٧ . . . .

وسار إبراهيم من عكا متجهاً نحو دمشق ، تلك المدينة التى لا يزال يخترقها الزقاق الذى سماه القدّيس بولس « المستقيم » . والمدينة واقعة فى واد مرع وغير منيعة الحصون ، وكانت فى ذلك الوقت من المدن التى يصح أن تسمى مدنا عالمية . ولم يحاول أحد أن يدافع عنها بل تركت تحت رحمة الغزاة . ولما دخلها إبراهيم لم يقم فيها إلا ريثما يملأ مخازن ميرته ؛ فلما فصل واصل الزحف إلى حمص ؛ ولولا

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ١٣٦ ؛ سماركو وثائق إيطالية لم تنشر المجلد التاسع ص ٢٧١ وفيها تقرير رسمى يثبت لين إبراهيم فى معاملة المهزومين

ذلك لأثرت فيهم بترفها ورذائلها وكانت لهم كما كانت كپوا Capua [1] لجنود قرطاجة .

وكان والى طرابلس ينتظر قدومه ومعه ثلاثون ألفاً من الجند هم مقدمة الجيوش العثمانية التى نزلت إلى ميدان القتال . ولو تأخر إبراهيم عن الزحف لوصل المدد إلى الجيش التركى فزاد عدده ، ولذلك تقدم نحوه لا يلوى على شيء ، وتمكن فى اليوم الثامن من شهر يولية سنة ١٨٣٢ من الإحداق بالعدو ، لكنه لم يبدأه بالهجوم . فلما هجم عليه القائد العثمانى بعساكره أصلاهم المصريون من بنادقهم المسددة ناراً حامية ، قطعت نظامهم وأدبارهم . ولم تدم المعركة إلا قليلا ولكنها انتهت بنصر إبراهيم نصراً مبيناً [2] . وتدل محفوظات القنصلية الروسية بالقاهرة على أن إبراهيم أسر من الأعداء ٢٥٠٠ واستولى على عدد عظيم من المدافع وكثير من « الأمتعة » [3] . وكتب إبراهيم إلى أبيه فى ١١ يولية سنة ١٨٣٢ تقريرا ينبئه بهذا النصر ويؤيد تلك الأرقام ، ولكنه يرفع عدد الأسرى إلى ثلاثة آلاف . وقد جاء فى هذه الرسالة الرسمية « أن الجيش المنهزم كان يشتمل على ثمانية من الباشوات وأربعة آلايات من المشاة ، وثلاثة من الفرسان ، وخمسة عشر ألفاً من الجنود غير النظاميين ، وأن خسائره بلغت ألفى قتيل وألفى جريح بخلاف الأسرى » . وقد نقل الجرحى والأسرى إلى عكا [4] .

(١) مدينة حصينة قرب نابلى دعا أهلها هنيبال فى أثناء غارته على إيطاليا ليقضى فيها الشتاء هو وجيشه فى عام ٢١٦ ق . ب ، وفيها انغمس الجنود فى الترف والملاذ فضعفت قواهم واستردها منهم الرومان بعد ذلك . وقد دمر العرب المدينة القديمة فى عام ٨٤٠ م وقامت المدينة الحديثة فى مكانها . (المعرب)

(٢) تاريخ الثورة المصرية تأليف ا . ا . باتن . لندن تربنر وشركاؤه ١٨٦٣ ص ٩٦ .

(٣) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٥٢٢ .

(٤) مجموعة رسائل محمد على المطبعة الأهلية ١٩٣ الوثيقة رقم ٤٦١ .

ولم يقنع إبراهيم بهزيمة العدو بل وجه عنايته إلى تنظيم إدارة البلاد التى فتحها ، فاختار فى ١٤ يولية عشرين من أعيان دمشق وألف منهم مجلساً لحكم الولاية . وصيغ بلاغه لهذا المجلس فى العبارة الآتية :

« يجب على الراعى أن يعنى بأمر رعيته ؛ ولذلك رسمت الخطط لإصلاح حال السكان الذين أؤتمنت على مصالحهم ، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بنشر العدالة بينهم والعمل لخيرهم .

« وتنفيذاً لهذا العزم ألفت مجلساً من أعيان البلاد وتجارها ، وعهدت إليه النظر فى شؤون الأهالى . وستكون جلساته علنية ، ويدخل فى اختصاصه جميع المسائل المدنية العادية . أما المسائل القانونية فسيرجع فيها إلى رأى علماء القانون » [1] .

لكن إبراهيم رغم تفكيره فيما عليه من التبعة للمغلوبين ، لم ينس قط أنه جندى فى الميدان ، وأن واجبه الأول هو أن يسحق قوة أعدائه . فوجه همه كله إلى هذه الغاية وظفر بالنصر تلو النصر ، واستسلمت له المدن واحدة بعد الأخرى ، فسقطت حلب فى ١٥ يوليه ، وفى التاسع والعشرين منه أباد جيشاً تركيا آخر عند ممر بيلان . ولما رأى القائد العثمانى العام أنه لم يبق له فى النصر رجاء ، ولى مدبراً نحو أطنه تاركا بلاد الشام كلها لإبراهيم يتصرف فيها كيف شاء . وجاء فى تقرير رسمى مرسل إلى وزير الخارجية فى حكومة الصقليتين [2] أن الرعب قد تمكن من قلب القائد التركى ، فترك الخيام والأمتعة والمدافع والذخائر وغيرها وراءه ، وفر مسرعاً نحو أنطاكية .

---

(١) المصدر عينه الوثيقة رقم ٤٦٤ .
(٢) سماركو فى كتابه السالف الذكر ص ٩٧ .

الفصل الثاني عشر

قونيـــة

قلقت أفكار الدول لهذه الانتصارات المتوالية ، واختلفت آثار هذا القلق باختلاف الطباع . فأما الطبقة الحاكمة من الإنجليز فإنها تدربت في المهد على ضبط أعصابها وكبح جماح شعورها ، حتى قيل إن الطفل منهم لا يفطم حتى يعرف الدرس الأول في كبت عواطفه . وذلك هو سبب اتزان عقولهم وهدوئهم في أوقات الخطر . ومع ذلك فقد قلقت الحكومة الإنجليزية وهالها تقدم جيش إبراهيم ؛ لكنها لم تضطرب ، بل ظلت محتفظة بهدوئها ، لأن الذين يقودون زمامها رجال مرنوا على هذه الأخلاق التي وصفناها من قبل . ولذلك ظلت ترقب الأمور وتنتظر ما تتمخض عنه الأيام .

أما الصقالبة فليس في مقدورهم أن يضبطوا شعورهم ، وذلك لأنهم قوم سريعو التأثر مندفعون ومعاندون ، تعودوا أن يندفعوا حيث يخشى الملائكة أن يمشوا على مهل[1] . ولذلك لا نعجب إذا استولى الرعب على مستشاري القيصر عند ما هزم الأتراك في ممر بيلان ، فأصدروا أوامرهم إلى رجال القنصلية[2] بأن يقطعوا صلاتهم بمحمد علي[3] . ولما اجتمع قنصل الروسيا العام بالباشا اجتماعه الأخير ، بسط له محمد علي آماله بصراحة فقال :

(١) يشير إلى قول پوپ الشاعر الإنجليزي « إن الحمقى يندفعون حيث يخشى الملائكة أن يمشوا على مهل » . (المعرب)

(٢) لم يكن للروسيا بعثة دبلوماسية في مصر .

(٣) قطاوي في كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٥٣٧ .

« بيني وبين عبد الله خصومة حقة ، ولكنها لا تتعداه إلى الأسرة السلطانية ، وإن كان أهل ديار بكر ولواء بغداد ، والولايات الجنوبية من آسيا الصغرى وبلاد من تركية أوربا ، يهمهم أن تعظم قوتي ويتسع ملكي . وقد صرح كثير من أولئك الأقوام برغباتهم ؛ ولكنني لا أسعى للجلوس على عرش السلطان رغم علمي بما يدور في الآستانة ، وبمقدرة الباب العالي الحقيقية .

« إن في استطاعتي أن أنزل السلطان عن عرشه بهجمة موفقة يقوم بها أسطولي ، ولكني لا أحب أن أعتدي على حقوق أبنائه ، لأنهم خلفاء النبي . وليس معنى هذا أنني أرهب جيوش السلطان ، فقد وصل ولدي إبراهيم في زحفه إلى أطنة ، وستكون أعماله فيها أبلغ أثراً من جميع المناورات السياسية ؛ وذلك لأننا نعيش في عصر تترك السياسة فيه للظروف حل كثير من المشكلات ، ولا يتحرك فيه الناس إلا بعد وقوع الحادثات .

« وجدير بجلالة السلطان الأعظم أن يتدبر عواقب هذه الحرب التي لا تستطيع قواته أن تخوض غمارها . إنه يسميني عاصياً وينسى أنني استوليت على مصر بسيفي ، وأن أحداً لا يستطيع أن يخرجني منها إلا بحد السيف . فأنا تابع السلطان ، ولكنني أحتل مصر بحق الفتح ، وإني وإن فتحت الشام سأظل تابعاً له ودعامة لعرشه »[1] .

لقد فرغنا من وصف طباع الإنجليز والصقالبة . أما الفرنسيون فقد امتزجت طباعهم اللاتينية الأساسية بطباع من صنف آخر . فكما أنهم في مطابخهم تطغى التوابل على الأطعمة حتى تكاد تكون هي كل شيء ، كذلك هم في سياستهم يغلبون مصالحهم على عواطفهم ، وإن كانوا يهتمون بهذه العواطف التي تشرفهم وتعلي

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٥٤٢ .

قدرهم . وعلى هذا فلما سمعت باريس بأن عكا قد سقطت ، وأن فيالق إبراهيم تكتسح بلاد الشام كالسيل الجارف ، كتبت وزارة الخارجية الفرنسية إلى قنصلها العام فى الإسكندرية بما معناه :

« إذا كان الوالى يسره أن يعترف بما لرجال الفن والمهندسين والجنود الفرنسيين من فضل عليه ، فإننا نحن أيضاً نفخر بأننا قد ساعدنا على إنشاء دولة وإنماء قوة جديرة بالتعاون معنا ، ويهمها كما يهمنا أن تعمل لرخاء بلاد البحر الأبيض المتوسط . وستكون الحكومة الفرنسية فى المستقبل كما كانت فى الماضى ، دائمة الاستعداد لأن تبرهن للباشا على صداقتها وحسن نيتها »(١) .

وليست هذه الرسالة إلا مثلا من الرسائل السياسية البارعة التى لا تدل عبارتها على شىء ، وقد يفهم منها أى شىء . وقد قال ميمو فى رده عليها :

« إننا الآن نواجه أزمة من الأزمات العظيمة التى تتحكم فى مصائر الدول ... لقد نشأت فى العالم دولة عربية لها السيطرة على البلاد المقدسة ، وفيها مقر الخلافة (كذا) وهى دولة مركزها لا يرام ، بل تتقطع دونه الأعناق ؛ وليس فى مقدور جنود السلطان محمود وأساطيله أن تقف فى وجه محمد على »(٢) .

وهكذا وقفت الروسيا موقف المتوعد ؛ وأخذ القنصل الفرنسى العام يستقصى ويبحث ، ونفض الإنجليز أيديهم من الأمر كله . وكان لهذا الموقف الذى وقفته تلك الدول الثلاث أثره فى الخطة التى سار عليها محمد على .

لقد كان فى حربه مع السلطان يعمل بالقول المأثور عن الأصحاب المسيحيين (Quakers) « لن أوذيك أو أمسك بسوء ، وكل ما سأفعله أن أشعر رأسك بشىء

(١) « بعثة البارون بوالكنت » : مصر والشام فى عام ١٨٣٣ تأليف جورج دوت طبعته الجمعية الجغرافية الملكية بمصر سنة ١٩٢٧ ص ١ .
(٢) دون فى كتابه « بعثة البارون بوالكنت » السالف الذكر ص ١١ .

من التعب » . ذلك أنه كان يؤكد دائماً أنه تابع أمين لمولاه ، وأنه لا يحارب الباب العالى ، وإنما يسعى للدفاع عن نفسه بتقوية تخومه .

وكان فى قوله هذا صادقاً إلى حد ما ، كان صادقاً فى أنه لم يكن يحاول خلع السلطان محمود ، أو يطمع فى عرش السلطنة ، أو يرغب فى تقطيع أوصال الدولة العثمانية . وكل الذى كان يسعى إليه فى رأينا هو أن يؤسس فى مصر دولة تحكم نفسها بنفسها ، عزيزة الجانب متسعة الرقعة ، تشمل مصر والشام وبعض الأقاليم المجاورة لها ، وأن تكون ولاية هذه البلاد الواسعة المستقلة له ولأسرته من بعده .

لقد كان محمد على أصيل الرأى إلى درجة تقرب من أصالة الاسكتلنديين ، نافذ البصيرة فى شؤون العالم إلى درجة منقطعة النظير . وكان طموحا لا تقف به همته عند حد ، ولا تعوزه صفة من الصفات التى كان يبغضها ولزى Wolsey [1] ، لكنه كان قبل كل شىء رجلاً عمليًا حاذقا فطنا قوى الإدراك ، صرف كل جهده إلى ما يستطيع نيله . وكان حكيما بعيد النظر لا يتعلق بالآمال الخداعة العزيزة المنال ، تسمو به نفسه إلى أعلى الدرجات ، ولكنه لا يبنى آماله على شفا جرف هار . لا يخطو خطوة إلا بعد تدبر وإمعان ، يتبع فى سياسته ذلك المبدأ المعروف « تبصر وقف واستمع » . وكان دائم الاتصال بكل ما يجرى حوله .

---

(١) الكردينال ولزى (١٤٧٥ — ١٥٣٠) وزير هنرى الثامن ملك إنجلترا . ظل هذا السياسى يسيطر على شئون بلاده الدينية والسياسية ست عشرة سنة كاملة تمتع فيها بسلطة لم يتمتع بها إنجليزى غيره قبله أو بعده إلا بعض الملوك . وقد استخدم فى الوصول إليها والاحتفاظ بها كل وسيلة مستطاعة ومنها الكذب والرياء والخداع والقسوة والشراسة وشراء الضمائر . وكانت مطامعه لا تقف عند حد . أما الصفات التى يبغضها فهى التى يشير إليها شيكسبير فى آخر الفصل الثانى من رواية هنرى الثامن والتى يذكرها ولزى بعد سقوطه ويحذر منها صديقه كرمول وهى التى كان يتصف بها أيام مجده وأهمها الطموح وحب النفس وبغض الأعداء والحاسدين الخ .
(المعرب)

وكان له وزير أرمنى يدعى بوغوص بك من أفراد الأسرة التى أنجبت أولئك الساسة الشرفاء الأفذاذ ، والتى كان منها نوبار باشا وزير الخديو إسماعيل . ولربما كان بوغوص « رائده وفيلسوفه وصديقه »[1] ، لكنه هو كان على الدوام يقظا لا يفوته شىء مما يقال أو يحدث حوله ، عرف حقيقة قرقرة الوعيد الصادرة من القنصليتين الروسية والفرنسية ، وأدرك ما يمكن أن يتمخض عنه سكوت الإنجليز .

أما إبراهيم فكان بينه وبين دور تلك القنصليات مئات الأميال ، ولم يكن فى مقدوره أن يتعرف منها نيات الدول ؛ وكل ما كان يراه أمامه هو سهول الأناضول توحى إليه أن يجتازها مسرعا إلى الآستانة . وكان يرى العمارة المصرية تخوض عباب البحر الأبيض المتوسط ، وتتحدى أسطول الدول العثمانية ؛ وترتسم فى مخيلته دولة عربية موطدة الأركان ، تعتز بما تعتز به الدول الإسلامية ، وهو امتلاك الحرمين ، ويصون استقلالها جيش مظفر . لقد نشأ إبراهيم فى جبل غير الذى نشأ فيه أبوه ، فلم يكن لاسم تركيا فى عقله تلك الروعة السحرية ؛ فلو أنه دك أسوار الآستانة بمدافعه لدكها وهو آمن من وخز الضمير ؛ ولو أنه أراد أن يسوق السلطان إلى المنفى ، لفعل ذلك دون تردد ؛ ولو طلب إليه أن يشترك فى تقطيع أوصال الدولة العثمانية ، لما أعرض عن هذا الطلب أو ونى فى إجابته .

ولربما كان إبراهيم أنفذ بصيرة من أبيه العظيم ؛ وليس من شأننا نحن أن ندلى برأينا فى ذلك الموضوع ، فقد يكون هذا وقد لا يكون ؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن ما يسميه الساسة « بالأمر الواقع » قد أتى بأعجب النتائج وأبعدها

(١) من قول بوب فى مقالته الشهيرة فى الإنسان Essay on Man فى السطر ٣٩٠ من الرسالة الرابعة .

عن الظنون ؛ وأكبر ظننا أن الجيش التركى والأسطول ما كانا يقويان على منع إبراهيم من الوصول إلى أسكدار[١] . ولو أنه وصل إليهما لاستفتح باب الفتنة فى الآستانة ، ولانتشرت الفوضى فيها ؛ وليس يبعد فى هذه الحال أن يضطر محمود إلى اعتزال الملك . ولسنا نجزم أن الدول كانت تمنع هذه الحركة ، بل نشك كثيراً فى أنها كانت تفكر فى وقفها . نقول ذلك وأمامنا تقرير كتبه القنصل النمساوى فى الإسكندرية إلى مترنيخ فى ١٨ يونية سنة ١٨٣٢ يقول فيه :

« تسيطر الروسيا فى الوقت الحاضر على السلطان ، وفرنسا وإنجلترا تحسدان القيصر من أجل ذلك ، وتفضلان أن تريا محمداً عليًّا على عرش السلطنة ، لأنه يستطيع أن يحيى موات الدولة العثمانية ، ويجعلها حصناً قويا فى وجه الروسيا »[٢] .

ولقد أوضح إبراهيم رأيه فى رسائله لأبيه . فكتب أولى هذه الرسائل فى ٥ شعبان سنة ١٢٤٨ وهو يقابل ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ . وكان محمد على وإبراهيم يؤرخان رسائلهما بالتاريخ الهجرى دائما ، وقد حولنا نحن هذا التاريخ وغيره إلى ما يقابله فى التقويم الجريجورى لمنع اللبس والاضطراب . وسنضرب صفحاً عن هـذه الرسالة الأولى ، وننتقل إلى رسالة أخرى بعث بها إبراهيم فى ٢٠ يناير سنة ١٨٣٣ إلى محمد على ، يبلغه أن إدارة مخابراته نقلت إليه أن طريق الآستانة مفتوح أمامه ، وأنه لا توجد فى هذا الطريق قوة حربية تقف فى وجهه . ثم انتقل من هذا الكلام إلى السياسة العليا فقال :

« فى استطاعتنا أن نعقد صلحاً شريفاً بوساطة رفعت باشا ، ولكن أكبر

---

(١) تقرير مرسل من الآستانة إلى وزارة الخارجية فى حكومة بيدمنت ومؤرخ ٢٥ أغسطس سنة ١٨٣٢ وقد جاء فيه بصريح العبارة أن لا شىء يستطيع أن يمنع إبراهيم من الزحف على الآستانة . انظر سماركو فى كتابه السالف الذكر جزء ١٠ ص ١٦٢ .

(٢) سماركو فى كتابه السالف الذكر جزء ٩ ص ٣٥٤ .

ظنى أننا لا نستطيع أن نحسم هذا النزاع القائم بيننا حسما نهائيا ، أو نضع قواعد صلح دائم ما بقى السلطان محمود ، ذلك الشيطان الخبيث ، جالساً على العرش . . . لذلك لا أرى بدا من الرجوع إلى عزمنا الأول ، فنخلع ذلك الرجل الشرير ، ونستبدل به ولى العهد . وإذا فعلنا ذلك فسيهز هـذا القرار الخطير تلك الأمة هزا عنيفاً يوقظها من سباتها » .

وفى هذا دليل على أن إبراهيم كان يرى أن يتذرع بأشد الوسائل لتحقيق مطالب أبيه ، ولـكنه لم يكن يشير على محمد على بأن ينتزع صولجان الملك من يد السلطان ، بل كان يرضى كل الرضا أن تظل الآستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وأن يبقى بنو عثمان جالسين على العرش . غير أنه كان يدعو إلى العمل السريع الحاسم . ومما يدل على حـذقه السياسى الفقرة الآتية التى تلى الفقرة السالفة فى رسالة إبراهيم :

« ولرب معترض يقول إن أوربا لا توافق على اقتراحى هذا . وجوابى أننا يجب علينا أن نقدم على العمل دون إبطاء ، قبل أن تدرك أوربا شيئاً من أغراضنا . فخطتى كلها قائمة على الإسراع فى العمل حتى نتمه قبل أن تتدخل أوربا فى الأمر ؛ وإذا وجدت الدول الأوربية نفسها وجهاً لوجه أمام النتائج التى سنصـل إليها ، ثم تذرعت بهذه النتائج لتقسيم الدولة العثمانية ، فهل نلام نحن على ذلك ؟ وهل فى وسعنا أن نحول بينهم وبين تحقيق حلمهم الذى ظل ماثلا أمام أعينهم أربعة وثمـانين عاما كاملة ؟ وقانا الله السوء ! ومع ذلك أليس الخير أن يتحقق الآن ما لا بد أن يتحقق فى يوم من الأيام ، حتى يسهل حل تلك المشكلة التى تمسنا فى الصميم ؟ »(١) .

(١) المحفوظات الملـكية المصرية بسراى عابدين بالقاهرة القسم التركى .

هذا ما كان يفكر فيه إبراهيم . أما محمد على فكان يرجو المستحيل ، كان يرجو أن يسوى أمره مع السلطان ؛ ولذلك كان من رأيه أن لا يتعجل إبراهيم الحوادث ، وبخاصة لأن تقدم الجيش المصرى السريع كان يحتم عليه الآن أن يتريث حتى تنظم ثمار الفتح . ولو أن سيل الانتصارات الجارف ظل متدفقاً فى سيره دون تمهل ، لما كان ثمة حاجة إلى هذا التريث . ولكن رغبة الباشا فى أن لا تتعسر الأمور على رجال السياسة ، بسبب أعمال ولده ، جعلت إبراهيم يقف موقف الدفاع أربعة أشهر كاملة بعد موقعة ممر بيلان (٢٩ يولية سنة ١٨٣٢) .

وبينما كان هذا القائد النشيط واقفاً موقف الانتظار ، وجه عنايته إلى المسائل الإدارية ؛ فقسم الشام ثلاث مناطق جعل مراكز الحكم المدنيـة والعسكرية فيها حلب وصيدا ودمشق [1] . واستتب الأمن والنظام فى أنحاء البلاد بفضل سياسته المتنورة . وخير شاهد على هذه السياسة إعلانه المؤرخ ٥ أغسطس سنة ١٨٣٢ الذى نشره على أهل الشام لما دخلت جنوده بيت المقدس والذى يقول فيه :

« فى القدس من المعابد والآثار ما يجعلها كعبة يحج إليها المسيحيون واليهود من أبعد الأقطار . ومن حق جموع الحجاج أن يشكوا من الضرائب الفادحة التى تفرض عليهم وتجبى منهم فى الطرقات العامة . وقد صحت عزيمتى على إلغاء هذه العادة ، ولذلك آمر الحكام المسلمين فى ولاية صيدا ومراكز القدس وطرابلس وما جاورها من المناطق الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، أن يمتنعوا عن جباية الضرائب على اختلاف أنواعها ، سواء منها ما كان يجبى فى الطرق أو فى غيرها من الأماكن .

(١) سماركو فى كتابه السالف الذكر جزء ١٠ ص ٢٣١ .

« وكذلك أدعو جميع الحكام المحليين أن لا يفرضوا ضرائب غير مشروعة على رجال الدين المسيحيين ، الذين يؤمون الأماكن المقدسة ليؤدوا شعائر دينهم » [(١)] .

ولو أن مرسوماً كهذا أصدر بعد أن ساد السلام واطمأن الناس شهوراً عدة ، لكان دليلا على أن صاحبه قد أشبعت نفسه روح التسامح والحرية ؛ فما بالك وهو صادر وسط دوى المدافع وقعقعة السلاح ؟ إنه ليدل على أن الذى أصدره كان رجل حرب وسياسة ، يدبر الحركات الحربية بعقله ، ويعطف على الناس بقلبه .

ولم يغفل إبراهيم عن الضرب على أيدى رجال الحكم فى الشام ، ومنعهم من سلب أموال الناس . وذلك لأنه كان يشعر أن احتلال الشام سيكون احتلالا أبديا ، فعمل على إنقاص الفوائد الباهظة التى كان يتقاضاها الجباة ووكلاء الأعمال والصيارفة . وخصص جزءا من النهار لاستقبال الناس وتلقى ملتمساتهم . وجاءه يوماً من الأيام رجل مسن من أهل الجبال وألحف فى السؤال ، فقال له إبراهيم فى آخر الأمر : « لقد قرأت اليوم نحو مئتى ملتمس ، فمن حقى أن أتمتع بقسط من الراحة ؛ ولكن ثق بأنى سأعنى بفحص ملتمسك » .

واغتنم أهل الناصرة عطف إبراهيم وشكوا إليه قسوة حاكمهم ، فأمره إبراهيم أن يقدم حسابه ؛ ولما ثبت له أنه قد ابتز منهم ستة آلاف قرش فوق ما يجب عليهم أداؤه ، حكم عليه فى الوقت والساعة بالسجن مع الأشغال الشاقة اثنى عشر شهراً فى قلاع عكا [(٢)] .

(١) المصدر عينه جزء ١٠ ص ١١٤ .
(٢) ياتس فى كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ١٧٧ .

ويخيل إلينا أن إبراهيم فى خلال الشهور التى قضاها فى النظر فى أمور أهل البلاد التى أخضعها الله لسلطانه ، كان هو ومحمد على يرجوان أن تتمكن العمارة المصرية من تحطيم الأسطول العثمانى . ولقد سبق القول أن محمداً عليا كان شديد الدهاء واسع الحيلة ، ولذلك لا نستبعد أن يكون قد هداه تفكيره إلى هـذه الخطة التى سنعرضها هنا ، لا على أنها حقيقة مقطوع بصحتها مؤيدة بالدليل ، بل على أنها مجرد ظن منا قد يكون صحيحاً وقد لا يكون : يخيل إلينا أن الباشا لم يكن يشك فى أن الباب العالى حصر كل همه وتفكيره فى جيش محمد على ، واعتقد أنه ما دام هو قادراً على منع إبراهيم من التقدم ، فإن السلطان يقبل التفاوض معه . ولذلك رأى أن ينتهز فرصة انهماك الآستانة فى أمر إبراهيم وشدة بطشه ، فتباغت العمارة المصرية الأسطول العثمانى وتحطمه ، فيزداد بذلك مركزه قوة على قوته . والذى يجعلنا نعتقـد بصحة هذا الرأى أن محمدا عليا كان شديد الإيمـان بفائدة القوة البحرية ، ولذلك لا نستطيع أن نتصور أنه كان يقنع ببقاء أسطوله معطلا فى هـذا الوقت الخطير . وتدل أوراق سماركو على أن القنصل النمساوى العام فى الإسكندرية كتب إلى مترنيخ فى ٢٠ يونيه سنة ١٨٣٢ يبلغه أن :

« تفوق أسطول محمد على على أسطول الأتراك أصبح أمراً لا شك فيه ، وأن ضباط أوربا البحريين كلهم مجمعون على ذلك . فإذا نظرنا إلى مصـير الحرب من هذه الناحية لم يخالجنا شك فى أنها ستكون وبالا على الأتراك »[١] .

وفى الرسائل التى بعث بها القناصل إلى بلادهم إشارات كثيرة إلى حركات الأسطولين[٢] . ومثال ذلك التقرير المؤرخ ١٠ سبتمبر سنة ١٨٣٢ فإنه يؤكد

(١) سماركو فى كتابه السالف الذكر جزء ٩ ص ٣٣٧ .
(٢) المصدر عينه جزء ١٠ ص ٤٥ ، ٨٣ ، ١١٣ ، ١٢٠ .

هذه الحقيقة البادية للعيان وهى أنه « لو أظهر الأسطول المصرى ما أظهره الجيش لقضى على الدولة العثمانية »(١). وذكرت فى تقرير آخر تلك العبارة الخطيرة وهى أن « الأسطولين يرقب كلاهما الآخر ولا يجرؤ على مهاجمته »(٢). وإذا قلبنا صحف كدلقين وبرو وهما كاتبان معاصران دقيقا الملاحظة يقول فيهما جان مارى كريه Jean-Marie Carré إنهما « سائحان منزهان عن الهوى واسعا الاطلاع »(٣)، إذا قلبنا صحفهما وجدنا فيها تفسيراً لهذا المسلك الغريب الذى سلكه أمير البحر المصرى، ورأينا فيها صورة تكاد تمثل لنا الشرق القديم أصدق تمثيل.

وكان هذا الضابط الذى تلقى الأمر بالبحث عن العدو ومهاجمته(٤)، ولكنه لم ينفذ ما أمر به، هو عثمان نور الدين ابن أحد خدام محمد على الخاملى الشأن. وقد نال نور الدين بذكائه النادر المبكر حب محمد على، فعنى بتعليمه وعينه بعد ذلك كاتبا فى القلعة. ثم صار فيما بعد مدرساً، ولكنه ارتكب ذنبا خطيرا أحفظ عليه محمداً عليًّا فحكم عليه كما تقول إحدى الروايات بالموت غرقا. ويقال إنه وضع فى زكيبة وجىء به إلى نهر النيل، فرآه رجل فارسى من موظفى المطبعة الأهلية، فرشا القواص الذى عهد إليه بتنفيذ الأمر، وأخذ منه نور الدين وأخفاه عنده، ثم شفع له عند الباشا فعفا عنه وضمه إلى إحدى البعثات المدرسية، وأرسل إلى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ليتم تعليمه.

(١) المصدر عينه جزء ١٠ ص ١٩٧.
(٢) المصدر عينه جزء ١٠ ص ٢٩٨.
(٣) السياح والكتاب الفرنسيون فى مصر مطبعة معهد الآثار الفرنسى الشرقى بالقاهرة ١٩٣٣.
(٤) سماركو فى كتابه السالف الذكر جزء ١٠ ص ٦٤. انظر أيضاً تاريخ الحرب بين محمد على والباب العالى طبعة أرثر برتران بباريس ١٨٣٧ ص ٢٢٠.

ولما كان فى أوربا كسب عطف جميع من عرفوه ، واستطاع أن يتقن بسهولة مظاهر الثقافة الغربية الخلابة ، وتعلم اللغات الأوربية بسهولة أثارت الإعجاب . ثم عاد إلى مصر وكان بعد عودته يعد نابغة فى علم الغرب ومثلاً أعلى للشرق المتصف بصفات أهل أوربا وفتحت أمامه أبواب الرقى ، وأصبح ماجأ الناس فى المهمات ، ومازال يرقى فى مناصب الدولة رقيا سريعا لا يكاد يصدقه العقل ، حتى وصل فى قليل من الزمن إلى رتبة القائد الأكبر للقوات البرية والبحرية ، لا يعلو عنه فى المرتبة إلا إبراهيم . ثم عين بعدئذ أميرا للأسطول المصرى ، فتهيأت له بذلك الفرصة ليبرهن على كفايته . لكنه لأمر ما أضاع الفرصة التى سنحت له للاشتباك مع العدو ، وقنع بالإحداق به والترصد له ، ورغب عن منازلته وأسره . ولا ندرى أكان ذلك راجعاً إلى قلة اكتراثه بخطط ولى نعمته ، أم لعدم كفايته ، أم خور عزيمته ، أم غدره وخيانته »[1] .

إن النبات الدخيل لا يقوى على احتمال ما يحتمله النبات الأصيل . ولقد كان إبراهيم شرقيا أصيلا ، تربى تربية شرقية ، وكان يتكلم اللغات التركية والعربية والفارسية ، وكان ملما بتاريخ الشرق ومثقفاً ثقافة شرقية خالصة ، وإن كان يلوح أنه تعلم شيئاً من اللغة الفرنسية فيما بعد[2] . لذلك لم تفتنه المظاهر الخلابة ، واختبر فكان صادق المخبر ، بعكس نور الدين فقد كان هو الرجل الذى لا يتورع عن قبول الرشا .

وقد أشار موريبه إلى « الغدر الكامن فى صدر نور الدين[3] » ، ولكنه

---

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٢٣٣ .
(٢) بريس دافن وآرمن فى كتابهما السالف الذكر ص ٣٨ .
(٣) موريبه فى كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ١٩٧ ، انظر تاريخ نور الدين فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن بك الرافعى (المعرب)

لا يورد دليلا يؤيد به هذه التهمة ، مثله فى ذلك مثل كدلقين وبرو ؛ ويؤكد كذلك أن هذا القائد كان جباناً ، وقد يكون صادقا فى هذا التأكيد ؛ ويروى أن إبراهيم كان يزدريه أشد ازدراء ، ولم يغفر له قط تمكينه الأسطول العثمانى من الهرب [١] .

ويخيل إلينا ، فى ضوء ما لدينا من المعلومات ، أن الباب العالى أدرك ما يرمى إليه محمد على ، وعرف كما عرف الوالى أهمية انتصار الأسطول المصرى فى البحر ، ولذلك أخذ يغرى نور الدين حتى رأى من مصلحته أن يكون جباناً .

وفى الخامس والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٣٢ كتب السفير النمساوى فى الآستانة إلى وزير خارجيته يبلغه أن الأسطول العثمانى قد ألقى مراسيه فى الدردنيل ، وأن السلطان أخذ يجيش جيشاً جديداً بقيادة الصدر الأعظم رشيد محمد باشا . ومعنى هذا أن هزيمة الحرب البحرية قضى عليها ، وأن المسألة المصرية تطورت تطوراً جديداً . وجاء فى رسالة أخرى أن القائد العثمانى العام رجل فى منتهى النشاط والذكاء والشجاعة . ولسنا نشك فى صدق هـذا القول ؛ فلو أن رشيداً باشا كان ينازل خصما أقل من إبراهيم يقظة وبأساً وكفاية ، لأثبت بالفعل صحة هذا الوصف . لـكن قاهر عبد الله لم يستطر له روعاً حينما نزل الصدر الأعظم إلى الميدان وزحف برجاله نحوه ، بل قابل إبراهيم هـذا الزحف الشبيه بزحف رتشمند Richmond [٢] بإصدار الأوامر إلى جيشه بأن يتقدم نحو قونية حيث تلتقى الطرق الآتية من الشام وآسيا الصغرى ، ثم تسير إلى الآستانة على بعد مائة فرسخ إلى غربها [٣] .

(١) المصدر عينه جزء ٣ ص ١٩٨ .

(٢) هنرى تيودر إرل رتشمند (١٤٥٧ — ١٥٠٩) من النبلاء الانجليز أيام حرب الوردتين هاجم الجيوش الانجليزية وانتصر عليها فى موقعة بزورث واستولى على العرش وسمى هنرى السابع وهو مؤسس أسرة تيودر الانجليزية . (المعرب)

(٣) فى الأصل الإنجليزى إلى الشرق وذلك سهو من غير شك .

وبدا أن لا بد من اشتباك الفريقين فى موقعة فاصلة ؛ وأرسل قيصر الروسيا فرقاطة روسية تدعى العلم إلى الآستانة ، تقل سفيراً خاصا هو الجنرال مورافيف General Muraviev ، ليعرض على السلطان معونة القيصر الحربية .
ولكن إبراهيم لم ينتظر حتى تتم هـذه الدسيسة السياسـية ، بل خف من فوره وزحف على عدوه ، حتى أقبل عليه فى ٢١ ديسمبر سـنة ١٨٣٢ . فرأى الجيش التركى جيشاً عرمرما يفوق جيشه فى كثرة العدد . وحدث أن تلبدت السماء بالسحب فانتهز إبراهيم هذه الفرصة ليخفى عن العدو حركاته ؛ ولم ينقشع الضباب إلا بعـد أن حاقت الهزيمة بالجيش العثمانى ، وأمسى المساء وإذا بالقائد العثمانى رشيد محمد باشا أسير فى أيدى المصريين ، وإذا الطريق إلى الآسـتانة مفتوح أمام إبراهيم .

ولم يغفل إبراهيم حتى فى ساعة النصر عن خطة والده السياسية . ومع أنه رأى الصدر الأعظم أسيراً فى يديه فإنه لم ينس واجبه لأبيـه . فنظر إلى أسيره نظرته إلى ممثل جلالة السلطان رئيس الدولة الأعلى ، ورد إليه سلاحه الذى كان قد انتزع منه فى خلال النهار ، ثم سار بنفسه نحو عدوه المغلوب ليقدم له واجب الإجلال ؛ وأصر على أن يكون للمشير العثمانى المكان الأول . ولما كان القائد المصرى قد أظهر نحو عدوه إجلالا لا يتفق بحال مع موقفه فى ذلك الوقت ، فقد ظن رشيد باشا أن فى الأمر مكيدة مدبرة له . فلما قدمت له القهوة قال إنه فى حاجة إلى المـاء ، وإنه يفضل تناول قدح منه . فلمـا عرض عليه شراب محلى رفضه وكرر طلب المـاء ، وذلك لأن المـاء يتغير لونه إذا وضع فيه السم . وعندئذ أمر إبراهيم أحد رجاله بأن يحضر الشراب ؛ فجىء بالشراب المثلوج الملون على الفور وقدم للصدر الأعظم ؛ فشعر عندئذ بأن المنية قد وافته ، ومد يده

وهو رابط الجأش . فمنعه إبراهيم من تناوله ، وأخذ القدح بيده ، ورفعه إلى فمه وشرب مما فيه ؛ وعلت شفتاه ابتسامة الظفر والازدراء ؛ وكذلك ظل القائد التركى ثابتاً رزيناً . ولما شرب إبراهيم نصف ما فى القدح ناوله إلى الصدر الأعظم ، فشرب بقيته . ولم يتبادل الرجلان حديثاً فى أثناء هذه الحفاوة حتى إذا ما فرغا منها كان كل منهما قد وثق بصاحبه واطمأن له[١] .

وبلغ من شدة حرص إبراهيم على جميع مظاهر الخضوع للصدر الأعظم أنه أصر على اعتباره القائد الأعلى للجيش المصرى ، حتى أنه لما أصدر الأمر لجيوشه فى اليوم الثانى بعد الموقعة بأن تتعقب العدو المنهزم أصدرها باسم أسيره . وما كان أجدر الصدر الأعظم أن يردد فى ذلك الحين هذا القول المأثور : « الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو »[٢] .

---

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٣١٥ .
(٢) تكوين ٢٧ : ٢٢ .

الفصل الثالث عشر

كوتاهية

اشتهرت قونية بأنها « مهد الدولة العثمانية القديم[١] » . وقد عرف إبراهيم ذلك ، وشعر بأهمية النصر الذى أحرزه فيها ، ومبلغ تأثيره فى شعور العثمانيين . ولـكنه لم يضرب على هذه النغمة فى الخطاب الذى كتبه إلى محمد على فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ ، بل حصر اهتمامه فى الناحية السياسية لهذا النصر . وكان يعرف أن القناصل يضيقون الخناق على أبيه ، ولذلك اغتنم هذه الفرصة ليكرر له وجهة نظره فكتب إليه يقول :

« إن الصدر الأعظم الآن مع الجيش ، وفى وسعنا أن نزحف على الآستانة ونخلع السلطان على الفور من غير عناء ؛ ولـكننى أحب أن أعرف بأسرع وقت هل ترغبون حقاً فى تنفيذ هذه الخطة ، لأن تنفيذها يتطلب الاستعداد له من الآن . أما أنا فأعتقد أن مشاكلنا يجب أن تسوى فى الآستانة لا فى غيرها من الأماكن ؛ ففى الآستانة إذن يجب أن نكون لكى نملى إرادتنا ونحقق مطالبنا ؛ وأرجو أن تسمحوا لى بأن أصرح الآن بأن الدعاية ليست هى السبيل إلى الوصول إلى هذه المطالب ؛ فإذا كان فى نيتكم أن نهدد الآستانة ، فلا فائدة من الوقوف عند قونية ومنعنا من الزحف عليها .

« ذلك بأن قونية بعيدة عن الآستانة ؛ وأن أولى الأمر فيها لا يجنحون للسلم

(١) دون فى كتابه « بعثة البارون بوالـكنت » السالف الذكر ص ٦ .

ويعقدون الصلح معنا إلا إذا دخلنا العاصمة . ولا أخالكم قد نسيتم أنهم لم يعقدوا الصلح مع الروسيا إلا بعد أن وصلت جيوش القيصر إلى چكمه جه[1] فى جوار الآستانة ؛ ولذلك يجب علينا أن نسرع بالتقدم إلى بروصة على الأقل ونحتل البلاد الواقعة على ساحل بحر مرمرة ، ونتخذها قواعد بحرية لتموين جيشنا . وإذا وصلنا إلى ذلك المكان سهل علينا نشر الإشاعات التى تؤدى إلى إسقاط السلطان . وحتى إذا عجزنا عن خلعه فإننا لن نعجز عن إملاء شروط الصلح التى نرغب فيها » .

وقد أفرغ إبراهيم فى هذه الرسالة من قلبه على قلمه ، ولم يمنعه إجلاله لأبيه من أن يضيف إليها هذه العبارة :

« لولا الأمران اللذان صدرا إلىّ منكم أخيرا ووقفتم بهما زحفى لكنت الآن على أبواب الآستانة ؛ ولطالما سألت نفسى عن سبب هذين الأمرين أهو خوف أوربا أم سبب آخر لا أعلمه ؟

« وأرجو أن يصلنى رأيك فى هذه المسألة الأخيرة قبل أن تضيع الفرصة السانحة ؛ وإنى لفى انتظار أوامركم الصريحة »[2] .

ولم تقف الحكومات الأوربية مكتوفة الأيدى حينما كان إبراهيم يدافع عن رأيه هذا الدفاع ؛ بل بدأت هذه الدول حملتها قبل أن يهزم رشيد باشا فى موقعة قونية . فاستقبل السلطان فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٣٢ رسول القيصر الخاص الجنرال موراڤيف Muraviev فى جوسق يلدز ؛ وأبلغه فى هذا الاجتماع أن القيصر نيقولا Nicholas يضع أسطوله تحت تصرف الباب العالى ليرجع به محمداً

(١) إحدى ضاحيتين بهذا الاسم وهما بيوك چكمه جه (الكبيرة) وكوچوك چكمه جه (الصغيرة) . المعرب

(٢) المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين بالقاهرة القسم التركى .

عليا إلى صوابه ؛ ويظهر أن الآستانة لسبب لا نعرفه كانت تجهل وقتئذ أن الصدر الأعظم قد هزم . كذلك يلوح لنا أن هناك خطأ فى التواريخ ، ولكنها تواريخ رسمية لا يسعنا إلا قبولها . ومهما تكن حقيقتها فإن السلطان قد ظل حتى يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ يجهل أن جيشه قد ذهبت ريحه ، وأن لا قوة عثمانية تستطيع أن تمنع إبراهيم من أن ينقض على الآستانة .

ومع أن محموداً مسلم يؤمن بقضاء الله وقدره ، فقد استولى عليه الرعب حتى ظن أنه سيسمع عما قليل دوى المدافع تطلق على إسكدار . وكتب متولى أعمال السفارة الفرنسية إلى وزارة خارجيته فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ يقول إن السلطان قد ارتعدت فرائصه فزعا ، فألقى بيديه إلى التهلكة[1] ، إذ أرسل من فوره رسولاً إلى السفارة الروسية ينبئها بقبول ما عرضه عليه القيصر ، دون أن يستشير رجال ديوانه . وجاء هذا القرار ضغثا على إبالة ، فتعقدت الأمور بسببه ، واستاء منه الوزراء وعدوه ماسا بكرامتهم ، لأنهم لم يستشاروا فيه قبل صدوره . وقد يكون سبب استيائهم أن السلطان أضاع عليهم فرصة تمكنهم من أن يهدئوا مشاعرهم الثائرة بنفحة من الروبلات الروسية .

وهاج هائج القائم بأعمال السفارة الفرنسية حتى كاد يطير لبه من شدة الغضب ؛ وعرف أن أمير البحر روسن Roussin قد عين سفيرا فى الآستانة ، وخشى أن تعزو وزارة الخارجية الفرنسية عمل الروسيا إلى إهماله ، فيضر ذلك بمستقبله ، لاسيا وهو يوشك أن يستبدل به غيره . وكان هو وطنى النزعة ، وكانت وطنيته هى الوطنية الفرنسية أى الوطنية الحادة المتطرفة ؛ ولذلك أخذ هو أيضاً ينظر إلى المسألة نظرة واسعة ويفكر فى المصالح الفرنسية الهامة التى تتأثر بهذا الموقف ؛

(١) دون فى كتابه « بنغة بوالكنت » ص ٩ .

فرأى أن شخصية محمد على أصبحت فى المكانة الثانية ، وأن المسألة المصرية قد غطت عليها مسألة أخرى أعظم منها خطرا ، تلك هى : « هل يسمح للروسيا بأن تكون الحاكمة بأمرها فى الآستانة ؟ » .

وسرعان ما وافقت الحكومة الفرنسية على هذه الفكرة التى ارتآها على عجل البارون ده ڤرن Baron de Varenne الشاب الذى كان يتولى مؤقتاً حماية المصالح الفرنسية لدى الباب العالى . وأسرع الدوق ده بروجلى الذى كان يعرف الأمور فى الكى دور ساى[١] فكتب إليه يقول :

« إن الدولة العثمانية تمحى من الوجود إذا دخل الجيش الروسى أرضها وانتشر فيها ، بحجة رد محمد على عنها ؛ وأطلقت الحرية للأسطول الروسى يخوض عباب الدردنيل والبسفور ، ويرسو تحت أسوار السراى . ولا تستطيع الدول الأخرى وبخاصة فرنسا وإنجلترا أن تقف مكتوفة الأيدى ، تنظر إلى السلطان وهو يتخلى عن سيادته ، دون مبالاة أو مقاومة »[٢] .

وفى الوقت الذى كانت فرنسا تبلغ فيه محموداً بأنها لا تسمح للروسيا بأن تكون صاحبة الأمر والنهى فى الآستانة أمر ميمو قنصل فرنسا العام فى الإسكندرية أن يبلغ محمداً عليا :

« أن الدول لا تتردد فى أن تقف قواتها مجتمعة فى وجه محمد على لترغمه على أن يبحث مع الباب العالى شروط الصلح ؛ وذلك فى نظرها خير من سماحها للروسيا بأن تتدخل فى شؤون الآستانة ، فتستطيع بذلك جيوش القيصر أن تتوغل فى آسيا الصغرى ، وتمكن نفوذه فى السراى السلطانية »[٣] .

(١) مقر وزارة الخارجية الفرنسية .
(٢) بعثة بوالكنت ص ٤ .
(٣) بعثة بوالكنت فى نفس الصفحة .

ولم يقف الفرنسيون عند هذا الحد ، بل فعل ده ڤرن أكثر من هذا بفضل ما أوتى من مقدرة وكفاية ، وإن كان من الصعب على الرجل الدبلوماسى أن يبرم أمراً فى الوقت الذى ينتظر فيه قدوم خلفه ، وذلك لأن موظفى وزارات الخارجية لا يرمقون بأعينهم إلا صاحب المنصب الجديد ، أما الموظف القديم فإنهم لا يأبهون له . وكان كل من فى الآستانة وقتئذ يعلم أن أمير البحر روسن سيحل محل ده ڤرن ؛ ومع ذلك فقد أوتى ده ڤرن من الكياسة والمهارة فى أعمال منصبه ما جعله يُفهم الوزراء الأتراك أن الواجب عليهم أن يحاولوا إقناع السلطان برفض ما عرضته عليه الروسيا . وبلغ من إلحاح السر عسكر خسرو باشا على محمود ونصحه له بأن لا تفتح تركيا أبوابها لعدوتها الوراثية ، أن جثا على ركبتيه أمام مولاه وأخذ يؤيد مطلبه بقوله إنه يتكلم باسم الديوان كله[(١)].

وأكبر الظن أن موراڤيف وصلته أنباء هذه الدسائس كلها ؛ فأراد أن لا تفوته الفرصة السانحة . ولذلك أسرع فى الذهاب إلى الإسكندرية لكى يبلغ محمداً عليا أن الروسيا ستتدخل فى الأمر إذا واصل إبراهيم الزحف ، أو أبت الإسكندرية أن تذعن لما لا بد من الإذعان له . وأرسل موراڤيف قبل سفره أحد رجاله المدعو الكولونل دوهامل Duhamel إلى معسكر إبراهيم ليبلغه نفس هذه الرسالة[(٢)] . ولكن هذا العمل لم يفل من عزيمة ده ڤرن والسر عسكر والوزراء الآخرين ، بل قابلوا هجوم موراڤيف بهجوم آخر مثله ليحبطوا به عمله . وما زالوا بالسلطان حتى أرسل من قبله رسولاً خاصاً إلى محمد على . وكان هذا الرسول هو خليل باشا ، القبطان باشا السابق ، وهو رجل ذو شخصية رائعة ؛ وكانت مهمته أن

---

(١) المصدر عينه ص ١٦ .

(٢) كدلقين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٣٣٨ .

يبلغ التابع الصنديد عفو السلطان عنه ، واعترافه بولايته على عكا وملحقاتها .

ولم ييأس ده ڤرن قلمه فى ذلك الوقت ، بل كتب إلى محمد على رسالة شخصية أكد له فيها أن « خليلا باشا قد فوض إليه رسميا أن يسوى المشاكل جميعها ، وأن يعمل على إزالة ذكريات الماضى السيئة[١] » . ولم يغفل ده ڤرن أمر إبراهيم بل كتب إلى بطل قونية يقول :

«لم يبق الآن ما يبرر مواصلة القتال ، ولذلك أرجو أن تعلموا أن تبعة مايسفك من الدماء ستقع على من يبدأ بالعداء . ولما كانت الحرب ستضاعف الصعاب القائمة فى سبيل التسوية المعروضة على بساط البحث الآن ، فإنكم سترون من المناسب أن تقفوا زحفكم وتأمروا الضباط التابعين لكم ، بأن يحذوا جميعاً حذوكم[٢] » .

وتسلم ده ڤرن رد إبراهيم فى السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٣٣ . ولم نطلع على الصورة الأصلية لهذا الرد ، ولكنا نعلم من التقرير الذى أرسل إلى باريس أنه أجاب بقوله إنه لا يستطيع أن يقرر شيئا حتى يتلقى أوامر أبيه ، وإنه يرجو الباب العالى أن يسمح له بأن يقضى الشتاء فى بروصه ، وإن هدفه الثانى هو كوتاهية[٣] . وارتعدت فرائص السلطان فزعاً لهذا الرد ، فلجأ إلى وسائله القديمة ، وأرسل من فوره رسالة إلى السفير الروسى ليطلب إلى القيصر أن يستعد بجيوشه فى بلاد القرم وعلى ضفاف الطونة ، لتقديم المعونة له إذا تقدم إبراهيم بجيشه . وقد فعل ذلك من تلقاء نفسه ومن غير أن يستشير وزراءه . وقابل ده ڤرن هذه الحال الطارئة بنشاطه المعهود . ولما تباحث فى الأمر مع الريس أفندى

(١) دون فى كتابه « بوالكنت » ص ١٦ .
(٢) المصدر عينه فى نفس الموضع .
(٣) المصدر عينه فى نفس الصفحة .

الذى كان محمود قد ضمه إلى رأيه ، أجابه هذا الجواب المربك :

« إما أن تضمن لى عدم تقدم إبراهيم وإما أن توافق على أن نلجأ من فورنا إلى الروسيا . وليس فى الوقت متسع للأخذ والرد ، فإن فى استطاعة إبراهيم أن يصل إلى أبواب الآستانة بعد خمسة عشر يوماً ، ولا يستطيع الروس أن يبلغوها فى أقل من هذا الوقت »[١] .

ولما رأى دى ڤرن نفسه فى هذا المركز المستصعب ، وكان يعرف أن أمير البحر روسن يوشك أن يصل إلى الآستانة ، دفعته شجاعته إلى أن يضمن للريس أفندى طلبته ، أو بعبارة أصح وعد أن يكتب إلى إبراهيم رسالة لا يشك فى أنها ستؤدى إلى الغاية المطلوبة . وبادر إلى ذلك من فوره فأرسل مذكرة إلى إبراهيم مؤرخة ٣٠ يناير سنة ١٨٣٣ ، أوضح له فيها أنه إذا لم يقف الجيش المصرى عن التقدم فإن « الباب العالى سيضطر وهو آسف كل الأسف إلى أن يقبل المساعدة التى تعرضها عليه الروسيا » .

وقد أخطأ ده ڤرن خطأ كبيراً حين كتب هذا الخطاب . ولا شك فى أن الذى دفعه إلى ذلك هو حرج مركزه ؛ فقد كان إبراهيم وروسن كلاهما يجد فى السير إلى الآستانة ، وتلك حال توقع فى الخطأ كل إنسان ، حتى الرجل الدبلوماسى الذى حنكته تجارب المنصب ، ولذلك يجب علينا أن لا نفرط فى لومه . لكنه كان يجب عليه أن يعلم أن إبراهيم لا يخشى القيصر ولا ترهبه جيوشه ، وأن القوة الوحيدة التى تستطيع وقفه هى أوامر أبيه . فإذا قيل له إن الروسيا توشك أن تتدخل فى الأمر ، كان ذلك بمثابة أمر له بالإسراع فى زحفه ، وإشعاره بأن تباطؤه يعرضه لأشد الأخطار ، وأن الواجب يقضى عليه بأن يصوب مدافعه

(١) المصدر عينه ص ١٧ .

إلى قصر السلطان قبل أن يصل الروس إلى الآستانة .

على أن إبراهيم بدأ زحفه قبل أن يصله هذا الخطاب . فلما وصل نبأ هـذا الزحف إلى السلطان اصطكت له مسامعه ، فاتصل بالسفارة الروسية وطلب فى هـذه المرة إلى المسيو ده بوتنيف M. de Boutenieff سـفير القيصر فى الآستانة أن يمده بأسطول عليه خمسة آلاف من الرجال ، يلقى مراسيه فى القرن الذهبى ، وأن يعد فوق ذلك حملة حربية يتراوح عددها بين خمسة وعشرين وثلاثين ألفاً[1] ؛ وأمر محمود الرسول بأن يبقى فى السفارة حتى تصدر الأوامر لإحدى السفن بالسفر حاملة تلك الطلبات المستعجلة .

و بينما كانت هذه الرسالة رسالة « أدركنى ولما أمزق »[2] تمضى فى طريقها إلى الروسيا لا تعطف على شىء ، كان إبراهيم على بعـد خمسين ساعة أو نحوها من الشاطئ الأسيوى المواجه للآستانة . وهناك كتب رده على الرسالة التى بعث بها إليه ده ڤرن فى ٣٠ يناير . وهاك ما كتبه إلى القائم بأعمال السفارة الفرنسية :

« صديقى النبيل العالم المحب الفطن المسيو ده ڤرن » . و بعد أن قال له إبراهيم إنه تلقى رسالته المؤرخة ٣٠ يناير سنة ١٨٣٣ وعرف ما انطوت عليه من محبة وصداقة ، ذكر له أن السبب فى رحيله من قونية وسيره إلى بروسة أن أول المكانين لا يصلح لقضاء فصل الشتاء ، ثم ختم خطابه بقوله : « وقد وصلنا الآن إلى كوتاهية حيث تطيب لنا الإقامة فى الشتاء ، وسأبقى بها إطاعة لأمر أبى وولى نعمتى ، حتى أتلقى منه أوامر أخرى . وقد أبلغت ذلك إلى الباب العالى ، ورجائى

(١) كدلفين وبروس ص ٣٥٠ .

(٢) فى الأصل الإنجليزى « أدركنى يا كسيس ولما أغرق » وهى مأخوذة من وصف كاسيس ليوليوس قيصر فى رواية شيكسبير . (المعرب)

أن أكون قد حققت رغائب سعادتكم لأن ذلك يبعث السرور فى نفسى »[(١)].

وتبين من هذا الخطاب أن لا فائدة ترجى من مفاوضة إبراهيم . نعم إنه كان رجل حكم وإدارة ، كما كان رجل حرب وكفاح ، لكن موقفه من الأعداء والمحايدين كان موقف الجندى فحسب ، شعاره الوحيد « الطاعة » تلك الطاعة العمياء الصماء التى لا تشوبها شائبة ، والتى كان يعنيها شلر بقوله : « على واجب أؤديه لا رأى أبديه » . فكان الواجب على ده ثرن والحالة هذه أن يحرك من سكون محمد على ، وإلا سارت الأمور سيرها الطبيعى .

ولم يكن ذلك ليغيب عن عقل الدبلوماسى الفرنسى ، ولذلك لم يدخر وسعاً فى الضغط على الباشا . ولكن الباب العالى لم يكن مع الأسف مخلصاً صادقاً فى عمله ؛ وآية ذلك أن التفويض الذى أعطاه خليلا باشا لم يكن التفويض الشامل الذى لابد منه فى مثل هذه الأحوال . فلما تمكن خليل ومحمد على من وضع مشروع للتسوية ، كان لابد أن يقره السلطان ، لأن المهمة التى انتدب لها قد حددت تحديداً لا يجيز له قبول تلك التسوية . ولكن على الرغم من هذا لم ير ده ثرن حرجا فى أن يكتب بتاريخ ١٣ يناير سنة ١٨٣٣ من الإسكندرية إلى وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية فى الآستانة يقول :

«لقد وضعت الحرب أوزارها ، وخبت نيران القتال فى كل مكان ، ولا يخالج الناس كلهم أدنى شك فى قبول الشروط التى اقترحها محمد على وأرسلها خليل باشا إلى الآستانة »[(٢)].

وقبل أن تصل صورة هذه الرسالة إلى السفارة الفرنسية ، قدم أمير البحر

(١) كدلفين وبرو ص ٣٥٠ .
(٢) بوالكنت تأليف دون ص ٢٠ .

روسن وتقلد مهام منصبه ، ثم قدم أوراق اعتماده فى ١٧ فبراير سنة ١٨٣٣ . ولم يكن ده ڤرن قد أبلغ أن السلطان عدل عن رأيه مرة أخرى ، وأنه احتاط هذه المرة فأرسل رسولا خاصا إلى الروسيا يستقدم جيشها وأسطولها على الفور . وقدم أمير البحر الذى أصبح الآن سفيراً مزهوا بلباسه الجديد المحلى بالذهب البراق زهوه يوم لبس حلة الضابط الأولى . وخيل إليه أنه قد بدأ مهمته فى ظروف طيبة موفقة ، وكان لاينفك يقول : «نعم هذا أمر حسن يسرنى كل السرور . حقا إن هذا ينشر بالخير . » وأكبر ظننا أنه كان يعتقد أنه بلغ ما يصبو إليه ، حينما تلقى فى مساء اليوم الثامن عشر من فبراير سنة ١٨٣٣ مذكرة من الباب العالى يقول فيها :

« لما كان صاحب الجلالة الشاهانية قد قبل المساعدة التى عرضتها عليه دولة الروسيا ، فإنه لا يشترط للصلح غير انسحاب الجيوش المصرية »[١] .

عند ذلك استشاط السفير غضباً ، فأرسل فى صباح اليوم التالى يطلب مقابلة الريس أفندى[٢] فى الحال . ومع أن دواوين الحكومة كانت كلها معطلة لأن اليوم يوم عيد ، فقد تمت المقابلة ؛ وهدد ده ڤرن بأن يطلب جواز سفره ، وثار ثورة اضطرت وزير الخارجية التركية أن يعده بأن يرسل على الفور تعليمات إلى السفارة الروسية وإلى أودسا وسباستيول بإلغاء طلب النجدة السابق إرساله . ولم يكتف الريس أفندى بذلك ، بل وافق على أن يعرض على روسن نص الشروط التى تقبل تركيا بمقتضاها أن تتفاوض مع محمد على[٣] .

وعاد السفير الفرنسى إلى مقر عمله مغتبطاً بالنتيجة التى وصل إليها فى

(١) المصدر عينه فى نفس الموضع .
(٢) وزير الخارجية .
(٣) بوالكنت ص ٢١ .

حديثه الرسمى الأول مع وزارة الخارجية العثمانية . وخيم الضباب فى تلك الليلة على شواطئ البسفور ، فلما انقشع تـكشف عن ثمان بوارج حربية روسـية ألقت مراسيها فى الليل على بعد خطوات من « سراى فرنسا » . وفى ذلك يقول روسن لرئيسه : « لقد تملك قلبى وعقلى فى هذه اللحظة شعور من الألم لم أشعر بمثله من قبل . وكان الطريق الذى على أن أسلكه فى هذه الظروف واضحاً أمامى كل الوضوح ؛ فأمرت ترجمان السفارة أن يذهب إلى الباب العالى ليعلن أن تدخل الروسيا بهذه الصورة جعل وجود السفير الفرنسى أمراً لا داعى له ، ولذلك فإنى سأصدر أوامرى بعدم إنزال أمتعتى إلى البر »(١) .

وأيقن روسن أن بلاغه النهائى قد أوقع الرعب فى قلوب الأتراك ، بدليل ما جاء فى رسالته التى كتبها إلى باريس يقول فيها :

« و بعد ثلاث ساعات أقبل الرسل يقولون إنهم جاءوا من عند السلطان والسر عسكر ، يطلبون مساعدة فرنسا فى هذه المشكلة الخطيرة ، و إنهم يقبلون فى الحال رسميا ومن غير قيد ولا شرط أن يرفضوا مساعدة الروسـيا إذا ضمنت لهم عقد الصلح على أساس القواعد التى اقترحها خليل باشا »(٢) .

و بعد أن أفاض روسن فى أهمية هذه الشروط ومقدار ما نزل عنه الباب العالى بموجبها ، أخذ يصف ما حدث بلغة ارتفع بها إلى أسمى درجة من الاعتداد بمنصبه فقال :

«ثم نظرت أخيراً إلى من كان حولى فألفيت ممثل إنجلترا كأنه غارق فى سباته ، ولـكنه يريد أن يشترك فى أى عمل يمنع تدخل الروسيا فى المسألة .

(١) المصدر عينه فى نفس الموضع .
(٢) المصدر عينه ص ٢٢ .

وأما فى دور السفارات الأخرى فلم أجد إلا ترددا ، بل وجدت فى بعضها وبخاصة فى السفارتين النمساوية والبروسية أدلة الجفاء نحونا ظاهرة جلية » .

واستمر بعد ذلك فى وصفه جاعلاً نفســه مدار الحديث كما فعل من قبل فقال : « وكان لا بد من أن نصل فى المسألة إلى قرار حاسم ؛ ولاح لى أن هــذا القرار يجب أن يكون القرار الذى توحى به مصالح فرنسا ومصالح معظم الدول ؛ وخيل إلىّ أن الغرض الأساسى الذى يجب أن نسعى إليه هو المحافظة على كيان تركيا واستقلالها ، باخراج الأسطول الروسى من مياهها . ولم أتردد قط فى الاضطلاع بالتبعة التى ألقتهــا الظروف على عاتق بالرغم من العوائق والعواقب التى كان يخبئها لى المستقبل » .

واستمر يضرب على هذه النغمة نفسها فقال :

« وعلى هذا الأساس استقر قرارى . ولما تأكدت أن الرسولين يمثلان السلطات التركية حقا قلت لهما :

« إنى أقبل اقتراحكما ، وأضمن لكما باسم حكومة الملك أن يعقد الصلح بين الباب العالى وباشا مصر على الأساس المقترح ، بشرط أن تصدر الأوامر على الفور بنقض الأوامر الأولى الخاصة بطلب مساعدة الروسـيا ، وبشرط أن يرحل الأسطول الروسى من البسفور بمجرد اعتدال الريح »[(١)] .

وأتبع السفير الفرنسى هذا القرار بثلاث رسائل ، بعث بإحداها إلى محمد على وبالثانية إلى إبراهيم باشا وبالثالثة إلى ميمو . ولم يكن فى مقدوره أن يرسل تلك الرسائل بالبرق لأن الآستانة فى ذلك الحين لم تكن تعرف مثل هذه الكمايات ؛ ولم يطلب روسن فى الخطاب الذى أرسله إلى إبراهيم فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٣

(١) المصدر عينه فى نفس الموضع .

وقف الزحف فحسب ، بل طلب إليه أيضاً أن يرتد إلى الحدود المصرية الجديدة ، لكي يعرف الناس أن الحرب التى اصطلوا نارها قد وضعت أوزارها حقا [١] .

وكان الروح الذى كتبت به هـذه الرسالة روحا طيباً بقدر ما يمكن أن يكون فى مثل هـذه الرسائل من روح طيب . ولكننا قد عرفنا من قبل أن إبراهيم لا يهمه قط ما يقوله القنصل الفرنسى أو غيره من الناس ، وأنه لا يعير هذا القول أدنى التفات ، وإنما الذى يهمه ويتأثر به هو رغبة محمد على . ولذلك دل روسن على جهله المطبق بالطبيعة البشرية حينما سلك مع الباشا هذا المسلك .

لكن اغتباط أمير البحر بنجاحه الدبلوماسى فى إخضاعه الأتراك لإرادته ، جعله يظن أنه يستطيع أن يفرض إرادته أيضاً على المصريين . ولذلك أرسل خطابه إلى ميمو قنصل فرنسا العام بالإسكندرية مع رسول خاص ، وأمر الكابتن أوليفييه ياوره أن يسلمه إلى القنصل يداً بيد . وقيل له مع الأسف أن يبقى فى الإسكندرية ويشيع فيها ، إذا ما أظهر محمد على شيئاً من التردد : « أن الضباط الفرنسيين الذين فى خدمة الحكومة المصرية سيعتزلون مناصبهم عند أول إشارة من فرنسا ، وأن أميرى البحر الفرنسى والبريطانى على اتصال دائم بمجرى الحوادث ، وأنهما قد تلقيا أوامر واحدة وحشدا قوتيهما وأصبحا متأهبين للظهور تجاه الشواطئ المصرية عند أول إشارة تصدر إليهما » [٢] .

وأكبر ظننا أن العالم ما كان ليعرف شيئاً عن هذه التعليمات الغريبة لو أن الذى أصدرها عرف حقيقة الاتفاق الذى تم بين خليل باشا ومحمد على . ولكن روسن مع الأسف عجز عن معرفة ما يفهمه الباشا من هذا الاتفاق ، ولما هم ميمو

(١) المصدر عينه ص ٢٥ .
(٢) المصدر عينه وفى نفس الموضع .

بأداء واجبه بأمانة وإخلاص وأراد أن يُنَفِّذ ما حمّله السفير من التعليمات ، لم يوافقه محمد على بطبيعة الحال على ما أراد . فلما رأى الكابتن أوليڤييه منه هذا التردد لم يسعه إلا أن يطيع الأوامر الصادرة إليه ، كما يقضى به الواجب عليه ، وأخذ يذيع ما أمر بإذاعته .

وبلغ ذلك مسامع الباشا فلم يطق صبراً عليه . ولما تأكد أن مصدر الإشاعة هو الكابتن أوليڤييه أملى على ميمو خطاباً قال فيه : « إنه لا يستطيع قبول اقتراحات تعد بمثابة الحكم عليه بالموت السياسى ، وأنه يترك الأمر لله ، ويفضل الموت الشريف على النقيصة والعار »(١) . ثم أرسل بلاغاً نهائياً إلى الباب العالى يطلب إليه أن يتخلى له عن بلاد الشام جميعها ومنطقة أطنه ، وأمهله خمسة أيام ليقبل فيها طلبه ؛ فإذا لم يصله الرد فى خلالها صدرت الأوامر إلى إبراهيم بالزحف على الآستانة (٢) .

ثم استدعى بعدئذ خليلا باشا وشرح له ما حدث . ولم يفارقه فى هذا الشرح ما اشتهر به دائماً من الحيطة الشديدة وتعرُّف عقبى ما يفعل .

ولما عرف المندوب التركى حقيقة الأمر استطير لبه روعا ، وأكد أن الآستانة لم تغدر به ، ولم تنكث عهدها أو تنقض الأوامر التى أصدرتها له بنصها أو روحها ؛ وطلب أن يسمح له بإرسال رسول خاص إلى الباب العالى ليعرف جلية الأمر ؛ فوافق الباشا على هذا الطلب ، ولكنه لم يسحب بلاغه النهائى ، ثم كتب إلى إبراهيم بهذا المعنى :

« قد أنبتك عنى فى كل شىء ، وخولتك بذلك الحق فى أن توقع باسمى

(١) موريبه فى كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ٢٢٦ .
(٢) المصدر عينه جزء ٣ ص ٢٢٧ .

معاهدة للصلح إذا قبلوا شروطى ؛ فإذا تأكدت بالدليل القاطع أن هذه الشروط قد قبلت ، وجب عليك فى هذه الحال أن تنسحب إلى حدود البلاد التى أعطيت لى . أما إذا أصروا على حصرى فى داخل الحدود التى لا أراها محققة لرغبتى ، فعليك أن تواصل زحفك كما يتراءى لك ، متبعاً فى ذلك الخطة التى تراها ملائمة للظروف المحيطة بك »[١] .

ومما زاد الأمور تعقيداً أن باريس لم ترض عما فعله السفير الفرنسى[٢] ، إذ تبين لها أنه تخطى الحدود التى رسمت له . لكنها لم تنكر عليه عمله جهرة ، لأن الأسطول الروسى لم يبرح البسفور . وكان سبب بقائه أن السلطان قد بر بوعده فأبلغ سفير القيصر فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٣٣ أنه أصبح فى غير حاجة إلى معونته ، وأن انسحاب قواته أصبح الآن أمراً لازما[٣] ، وأظهر ده بوتنيف منتهى اللطف شأنه فى ذلك كشأن سائر الدبلوماسيين الرسميين ، فهم رجال قد تخصصوا فى ذلك ومرنوا عليه ، فلم يرفض أن يسحب قواته ؛ وقال إنه دعى فلبى الدعوة ، وأنه لا يفكر قط فى البقاء حتى ينبو به موضعه . وفى الحق أنه وعد أن يبرح البلاد بمجرد اعتدال الريح . ويقول دون إن يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٣ كان يوما ريّحاً ، وكذلك كان غيره من الأيام ، ولكن القائد الروسى لم ير هذا الرأى ولم يبرح بلاد الأتراك ، وأخذ السفير الروسى يبدى أسفه الشديد لأن الريح تعانده وتأتى بما لا تشتهى سفنه .

---

(١) دون فى كتابه السالف الذكر ص ٣٦ .
(٢) موريبه فى كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ٢٣٠ .
(٣) دون فى كتابه السالف الذكر ص ٣٧ .

الفصل الرابع عشر

معاهدة كوتاهية

لما منح محمد على إبراهيم السلطة التامة لوضع شروط الصلح ، كان يعلم حق العلم آراء والده التى شرحها شرحا وافيا فى خطابه المؤرخ ٣ فبراير سنة ١٨٣٣ ، والذى يقول فيه :

« لاشك فى أن الفرض الذى ترمى إليه بعثة الجنرال موراڤيڤ وخليل باشا ، هو تحديد شروط الصلح ؛ ولما كان مصير مصر ومستقبلها معلقين على الموقف الذى تقفونه من هذه البعثة ، فإنى أرى من الواجب علىّ لنفسى ، ولما أدين به من عواطف الولاء والإخلاص لذاتكم الجليلة ، أن أعرض بكل خضوع آرائى فى الموقف الحالى ؛ و إن كنت أعلم حق العلم أنكم قد أوتيتم من الحكمة ما يجعلكم فى غنى عن آراء غيركم من الناس » .

و بعد أن أدى بهذه المقدمة واجبه نحو والده قال :

« والآن يلوح لى أن أول الموضوعات التى يجب أن تطرح على بساط البحث وتسوى بينكم و بين المتفاوضين ، موضوع الاستقلال . ذلك بأن الاستقلال هو المسألة التى لا تعادلها فى نظرنا مسألة أخرى . و يجب علينا بعد ذلك أن نطالب بالمناطق الثلاث أضاليا وعلائية وكليكيا[١] وجزيرة قبرص ، وعلينا أيضاً أن نضم إلى مصر بلاد تونس وطرابلس إذا استطعنا » .

(١) تقع هذه المناطق الثلاث فى جنوب بلاد الأناضول وتطل على البحر الأبيض المتوسط فكليكيا جهة الشرق مجاورة لسوريا وتليها علائية إلى الغرب وبها مدينة صغيرة بهذا الاسم =

وبعد أن ذكر مطالبه شرع يؤيدها فقال :

« هـذا هو الحد الأدنى لمطالبنا ، ويجب أن لا نتزل عن شيء منها لأن مصالحنا تتطلب الاستمساك بها ؛ فأما استقلالنا فيجب أن نصر عليه ولا نتحول عنه قيد شعرة ، وعلينا أن نقوى مركزنا ونفكر فى المستقبل . . .

« وأما أضاليا وعلائية وكليكيا فيجب التمسك بها لأننا فى حاجة إلى غاباتها ، لنتخذ منها الأخشاب اللازمة لبحريتنا . وقد عرفتم أننا لما منعت إنجلترا تصدير الخشب لجأنا إلى النمسا فلم يفدنا ذلك شيئاً ، إذ رفض طلبنا ووقع هذا الرفض من نفوسنا وقعاً مؤلماً لا يمحى أثره أبد الدهر . وهل يشك أحد فى أن مصر فى أشد الحاجة إلى قدر وافر من الخشب ؟ وأما قبرص فلا بد لنا منها لنجعلها قاعدة بحرية لأسطولنا ، ولنمنع بها الباب العالى من الوصول إلى شواطئنا .

« فهل تسمحون لى بأن أتقدم إليكم بكل إجلال فألفت أنظاركم الكريمة إلى هذه المسائل ؟ »[١] .

هذا خطاب لا يمليه إلا خيال رجل سياسى ، وهو دليل على أن محمداً عليًّا كما قلنا من قبل كان يعرف بالضبط ما يفعل حين أناب عنه إبراهيم فى المفاوضة . وقد شعرت وزارة الخارجية الفرنسية بمعنى هذه الإنابة كما شعرت بها لندن ، ولربما كان روسن قد تخيل فى السفير البريطانى « شعورا يشبه الخول » لما ذاع

= واقعة على رأس بارز فى البحر . وتلى هذه منطقة أضاليا وبها مدينة بهذا الاسم واقعة على منحدرات تل يشرف على خليج أضاليا ؛ وبيوتها وشوارعها يعلو بعضها بعضاً على سفح التل على شكل دوائر تشبه المدرج . وتقع جزيرة قبرص فى البحر تجاه هذه المناطق الثلاث وقد سماها المؤلف أناضوليا ولا شك فى أن أضاليا هى المقصودة بالذات لأن لفظ أناضوليا أو الأناضول يطلق على جميع آسيا الصغرى وليس ذلك بالطبع هو ما كان يقصده إبراهيم . (المعرب)

(١) المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين بالقاهرة القسم التركى .

خبر قدوم الأسطول الروسى إلى البسفور ؛ ولكن الحكومة البريطانية لا تدع للحيرة والارتباك سبيلاً إلى نفسها . ولربما كانت صورة الإدارة الدبلوماسية فى إنجلترا هى التى كانت ماثلة فى عقل بوب Pope[١] حين قال : إن ما يظنه الناس أغلاطاً هو فى الواقع خطط مدبرة ؛ فليس هومر بغافل ولكننا نحن الواهمون .

وتبعاً لهذه القاعدة أصدرت الأوامر إلى قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط بأن يتصل بالقنصل البريطانى العام فى الإسكندرية ، وأن يستمد لإنزال قوة من البحارة إلى البر إذا تطلبت ذلك المصالح البريطانية[٢] . ورأت وزارة الخارجية الفرنسية أن من الحكمة أن لا تجعل لأمير البحر روسن الإشراف على العلاقات الدبلوماسية ، لأن هذه العلاقات لا يصلح للإشراف عليها بحار فقط ، بل تحتاج إلى ظرف الرجل الفاتن الخلاب . ولذلك شعر ده بروجلى بحاجته إلى القيام بعمل حاسم ؛ ولكنه مع ذلك لم يكن يرغب فى إبعاد روسن لئلا تسىء الروسيا والباب العالى فهم هـذا العمل ، وقد يسىء فهمه أيضاً محمد على . فهداه تفكيره إلى أن يرسل من قبله مندوباً خاصا إلى بلاد الشرق الأدنى ، وتطلب اختيار هذا المندوب غير قليل من التفكير والأناة ؛ لأن وزير الخارجية الفرنسية كان فى حاجة إلى رجل ناضج الفكر ، سريع البت ، كيساً لبقاً فى جميع الأحوال ؛ وكان لابد مع ذلك أن يقع الاختيار على شاب لا يبدو لصغر سنه كأنه سفير ، ولكن له من العقل ما يمكنه من إصلاح الخطأ الذى ارتكبه بحار فى لباس سفير .

(١) الكسندر بوب شاعر إنجليزى شهير عاش فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ومن أعماله أنه ترجم الياذة هوميروس إلى اللغة الإنجليزية . (المعرب)

(٢) صورة سجلات الوثائق الدبلوماسية الخاصة بشؤون مصر فى سنة ١٨٣٣ محفوظة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة وثيقة رقم ٣٩ .

وقد رأى شارل چوزف إدمند Charles Joseph Edmond بارون ده بوالكونت Baron de Boislécomte موضعاً لثقته ، فاختاره لهذا المنصب . ولد البارون فى سنة ١٧٩٦ وعرف دخائل الدوائر الدبلوماسية وأسرارها فى مؤتمر ويانه Vienna ، وكان تلران Talleryrand هو الأشبين الروحى لهذا الشاب . وقد أرسله ده برجلى إلى الآستانة والإسكندرية مزوداً بتعليمات مؤرخة ٨ إبريل سنة ١٨٣٣ (١) . وهى جديرة بأن يطلع عليها القراء ، لكننا لا نريد أن نحلل محتوياتها ، لأن روسن جعل السفارة الفرنسية فى ذلك الوقت قبلة الأنظار وموضع الاهتمام . وقد سبق القول إن الباب العالى أبلغه أن الأوامر صدرت إلى الأسطول الروسى بمغادرة المياه التركية ، وأنه ينتظر اعتدال الريح لينفذ تلك الأوامر . ولكنه عاد فأبلغه فى ٢٣ مارس سنة ١٨٣٣ أنه « لا يستطيع أن يرفض تدخل الروس فى الأمر ، ويخرج أسطولهم من المياه التركية ، إلا بعد أن يتأكد أن إبراهيم سينسحب من الأراضى التى لم يتخل له عنها الأتراك » (٢) . ولما رأى روسن هذا التحول من جانب الأتراك ، سعى ليقنعهم بأن فى مقدور إبراهيم أن يدمر الأسطول الروسى تدميراً ؛ وقال لهم إنهم لا يستطيعون أن يقاوموا الجيش المصرى بأقل من أربعين ألف مقاتل ، وإن الروسيين لن يصلوا إليهم إلا بعد أربعين أو خمسة وأربعين يوماً (٣) :

وأعجب السلطان ومستشاروه بهذا المنطق ، لأنهم تبينوا فيه الصدق ؛ فلما اقتنع الباب العالى بما فيه من قوة ، ولى وجهه مرة أخرى نحو فرنسا ورجا السفير

(١) بوالكنت تأليف دون ص ٣٩ من المقدمة .
(٢) المصدر عينه ص ٤٦ من المقدمة .
(٣) المصدر عينه ص ٤٩ من المقدمة .

أن يخبره بما يجب عليه أن يتخلى عنه لمحمد على ؛ فعل ذلك فى ٢٩ مارس سنة ١٨٣٣ قبل أن يتلقى بوالـكنت تعليماته النهائية .

واعتقد السفير الفرنسى أنه إذا بادر إلى العمل من ساعته ، استطاع أن يقرر مصير الدولة العثمانية قبل وصول المندوب الخاص . وكان يعهد فى ده ڤرن القدرة وأصالة الرأى والإخـلاص والوطنية والصبر وسعة الحيلة ، ولذلك أقنع الريس أفنـدى بأن يدون له شروط الصلح . ولما كتبها وقرر فيها أن السلطان يرضى بأن يتخلى عن جميع بلاد الشام لمحمد على ، بعث ده ڤرن مسرعا إلى معسكر إبراهيم فى ٣٠ مارس سـنة ١٨٣٣ ، وزوده بتعليمات شفهية أوصاه فيها أن يعرف أقل ما يرضى به القائد المصرى ، إذا كانت الشروط المعروضة عليه لا ترضيه ، وكانت أوامر أبيه تحتم عليه أن لا يكتفى بها [(١)] .

وبعد خمسة أيام من سفر ده ڤرن وصل قسم آخر من الأسطول الروسى إلى مياه القرن الذهبى ؛ فتعقدت الأمور بسبب مجيئه فوق تعقدها الأول . وبينا كان روسن يظن أنه استطاع أن يجد مخرجاً من هـذه الورطة الجديدة ، إذا بده ڤرن يعود من مركز القيادة المصرية ليبلغه أن إبراهيم مستعد للنزول عن بعض مطالبه ، لـكنه لا يرضى بالتخلى عن أطنه . وكتب روسن إلى وزيره وأمامه مذكرة ده ڤرن يقول : « وعلى ذلك فقـد تخلى الباب العالى عن بلاد الشام ، ولـكنه لا يستطيع أن يسلم فى أطنه ، لأن الباشا إذا استولى عليهـا استحوذ على ثروة غابات كرمانيا ، وسيطر على ممرات جبال طوروس ، وعلى الطريق المؤدى إلى الآستانة . ولـكن إبراهيم مع إصراره على امتلاك أطنه ، بدأ يسحب قواته ،

(١) المصدر عينه ص ٥٠ من المقدمة .

ولذلك أشرت الآن على السلطان أن يصدر فرماناً يؤكد فيه نزوله عن هذه الأراضى التى تخلى عنها لإبراهيم[١] . »

ولا شك فى أن السفير الفرنسى شعر بأن ده ڤرن مساعده القدير الصبور قد حل المسألة كلها قبل وصول بوالكنت . ولربما كان ده ڤرن محقا فى ظنه أن العقدة قد حلت قبل أن يبدأ المندوب الجديد عمله ؛ ولكن الفضل فى هذا الحل لم يكن راجعاً لده ڤرن وقوة حجته ، بل إلى الأوامر التى أصدرها محمد على ، وهى أوامر أوحى بها احترامه لقوة الأسطول البريطانى الفعالة ، لا اقتناعه بمنطق الدبلوماسى .

وذلك أن وزارة الخارجية — كما قلنا من قبل — قررت أن يكون أسطول البحر الأبيض المتوسط رهن إشارة القنصل البريطانى العام بالإسكندرية . ولسنا نعلم علم اليقين متى حبا الملك الكولونل كامبل Colonel Campbell بهذه الثقة ، ولكننا نعرف عن ثقة أن القنصلية البريطانية العامة قدمت فى اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٨٣٣ إلى ناظر الخارجية المصرية بوغوص يوسفيان[٢] بك مذكرة شفوية جاء فيها ما يأتى :

« إن الحالة السائدة فى شرق البحر الأبيض المتوسط تحتم على الحكومة أن تعزز الأسطول البريطانى فى هذا البحر ، وأن تأمره بالمجيء إلى ميناء الإسكندرية ،

---

(١) المصدر عينه ص ٥٥ من المقدمة .

(٢) بوغوص بك يوسفيان (١٧٦٨ — ١٨٤٤) مدير الأمور التجارية والشؤون الخارجية فى أيام محمد على باشا . ولد فى أزمير وأحسن والده تعليمه ، فتعلم عدة لغات هى الأرمنية والتركية واليونانية والإيطالية والفرنسية . وكان يتقن اللغة الأخيرة حديثاً وكتابة . ولما نظم محمد على شؤون الحكومة على النمط الحديث ، وثق به كل الثقة وعهد إليه بالإشراف على أعماله التجارية والشؤون الخارجية ، فظل يشرف عليهما نحو عشرين عاماً حتى توفى فى عام ١٨٤٤ فى الثانية والسبعين من عمره . ويكتب اسمه أحياناً (باغوص) بالألف ولكن علمنا أن خاتمه قد نقش عليه اسمه بالواو . وقد سماه المؤلف بوغوص يوصروف ، ولكن حقيقة اسمه هو بوغوص يوسفيان . (المعرب)

ليرقب سير المفاوضات المنتظرة بين سمو الباشا ومندوب الباب العالى .

« فإذا وجد قائد الأسطول عنـد قدومه إلى الإسكندرية أن الطرفين قد وصلا إلى اتفاق نهائى ، وأن وجود الأسطول البريطانى أصبح لا ضرورة له ، فسوف يتبع الأوامر التى لديه . أما إذا عرف أن المفاوضات لم تبـدأ بعد ، فإنه سيقدم للـكولونل كامبل ما يستطيع تقديمه إليه من المعونة . وقد وصلت إلى يد الـكولونل كامبل التعليمات التى صدرت إليه فى هذا الموضوع .

« و إنا لترجو أن يكون ما لبريطانيا العظمى وحلفائها من النفوذ الأدبى ، وما يعرفه الباشا من أن الدول الـكبرى لا تسمح بتجزئة الدولة العثمانية ، ترجو أن يكون ذلك كافياً لإقناع محمد على بقبول ما يعرض عليه من الشروط المقبولة . أما إذا لم تصل المفاوضات إلى نتيجة نهائيـة ، فإن أمير الأسطول قد أذن له أن يمنع كل اتصال بالبر أو بالبحر بين مصر وجيش إبراهيم ، حتى يصل الطرفان إلى اتفاق يرتضيانه ، كما أنه سيمنع أيضاً البوارج الحربية المصرية ، وكل السفن التى تحمل الراية المصرية ، من مغادرة الإسكندرية ، إذا كان على ظهرها جنود أو ذخائر حربية »(١) .

وفى اليوم السابع من مايو سنة ١٨٣٣ أجابه بوغوص بك يوسفيان بما يأتى :

« قد اطلع سمو مولاى الوالى على ترجمة تعليماتكم وعرف المقصود منها . ولما كانت هـذه الأوامر تتعلق بفصل من تاريخ مصر قد انتهى الآن ، فليس ثمة ما يدعو إلى النظر فيها . ذلك بأن الباب العالى قد منحه باشوية الشام وملحقاتها ، وقد تلقى الفرمانات التى تؤيد ذلك »(٢) .

(١) صور سجلات الوثائق الدبلوماسية الخاصة بشؤون مصر فى عام ١٨٣٣ المحفوظة بدار الـكتب المصرية بالقاهرة الوثيقة رقم ٣٩ .

(٢) المصدر عينه وثيقة رقم ٤١ .

وليس فى استطاعتنا أن نعرف السبب الذى دعا القنصل البريطانى العام إلى البحث مع ناظر خارجية محمد على فى ٥ مايو فى هـذا الموضوع . ولسنا نشك فى صحة التاريخ الذى ذكرناه هنا ، لأن الذى أمامنا الآن ونحن نكتب هذه السطور هو النص الأصلى لهذه المذكرة الشفوية ، لا صورة مطبوعة منها . على أننا نعلم أن بوالكنت قدم إلى الإسكندرية فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٣٣ ، وقت أن كانت المدافع تطلق معلنة نبأ التصديق على شروط الصلح[١] . ويقول صبرى وهو من الثقاة الذين لا يخطئون فى ذكر الحقائق التاريخية ، أن الآستانة لم توافق على شروط الصلح بصفة رسمية قبل اليوم الرابع من شهر مايو سنة ١٨٣٣ ، وأما الكونت ڤون بروكش أستن Prokesch-Osten ، الذى أرسله مترنيخ ليضغط على محمد على ، فقد وصل إلى الإسكندرية فى ٣ أبريل من تلك السنة[٢] .

وأكبر ظننا أن المستر كامبل القنصل البريطانى العام أنبأ الباشا بمعنى الأوامر الصادرة إليه بطريقة غير رسمية ، وأن مجئ المندوب النمساوى حمله على تقديم المذكرة الرسمية فيما بعد . ولما كان دوى المدافع لا أهمية له فى نظر الموظف الدبلوماسى ، فقد أبى أن يعترف بأن الحرب قد خمدت نارها ، إلا إذا ثبت له ذلك بالدليل الكتابى . ولما كان يعرف أن الضغط البريطانى هو الذى ألان عريكة محمد على ، فقد أجمع أن لا يمكن النمساويين من أن يستثمروا شروط الصلح لمآربهم السياسية . هذا هو ما نفسر به ذلك اللبس فى التاريخ ، وللقارئ أن يقبله إذا شاء أو يرفضه . ومهما يكن ذلك فإن أمرا واحد لا يمكن الشك فيه ، ذلك أن الذى ألان شكيمة محمد على لم يكن منطق ده ڤرن وقوة حجته ؛

(١) بوالكنت تأليف دون ص ٥٠ من المقدمة .

(٢) «محمد على والى مصر من مذكراتى اليومية» للكونت ڤون بروكش أستن طبع فى ڤيانة سنة ١٨٧٧ ص ٣٩ .

ودليلنا على هـذا أن رسول روسن لم يغادر الآستانة إلى مقر القيادة المصرية إلا فى ٣٠ إبريل سـنة ١٨٣٣ ، وأن دوى المدافع يرجع تاريخه إلى اليوم التاسع والعشرين من ذلك الشهر (١) .

و بينما كان الرجال الدبلوماسيون فى الشرق الأدنى يتفننون فى تدبير الحيل ، و يسعى كل منهم ليكون هو الظافر بنشر لواء السلام ، فإن المعاهدة التى أثمرتها جهودهم لم يرض عنها أحد . فأما السلطان فلأن واليآً صخابا من ولاته قد أذاقه ذل الهزيمة . وأما محمد على فلأنه لم ينل الاستقلال (الذى كان يطمح إليه إبراهيم) ولم يعترف بحق جعل باشوية مصر وراثية فى عقبه ، ولم يصبح صاحب الأمر والنهى فى الآستانة . وغضبت الروسـيا لأن القيصر لم يقو مركزه لدى الباب العالى . وساء الدول الغربية أن بطرسبرج أصبحت صاحبة الكلمة الراجحة فى شؤون الدولة العثمانية . ولـكن معاهدة كوتاهية كانت فى حقيقتها نصرا أدبيا لمحمد على رغم كل ما فيهـا من العيوب . وقد لخص صبرى ما تنطوى عليه من المعانى بقوله :

« يرجع معظم الفضل فيما اشتملت عليه معاهدة كوتاهية من المزايا إلى خطة إبراهيم ، الذى جعل مصير الآستانة معلقاً فى كفة الميزان ، والذى أطار قلب السلطان وأذله لتابعه . ولـكن هذا الصلح لم يكن هو الصلح الخليق بهذا النصر المبين ، بل كان صلحاً مزعزعا واهى الأساس تنقصه جميع عوامل الثبات » (٢) .

ولـكن الثناء الذى يغدقه على إبراهيم هـذا الكاتب المصرى الممتاز ، لا يعجب المسيو أثنازى بوليتس Athanase Politis الدبلوماسى الإغريقى المظيم ،

(١) بوالـكنت تأليف دون ص ٤٩ من المقدمة .
(٢) صبرى فى كتابه السالف الذكر ص ٢٤٩ .

والمؤرخ الذى أخذت شهرته تطبق الآفاق . ذلك بأن المسيو بوليتس يرى أن إبراهيم قد جاوز حدود مقدرته ، وأظهر خطل رأيه حين أعطى المسألة صبغة دولية ؛ وقد كان مستطاعا أن تبقى مسألة عثمانية داخلية محضة . وقد صدر المسيو بوليتس كتابه « النزاع بين تركيا ومصر من سنة ١٨٣٨ إلى سنة ١٨٤١ » بمقدمة قيمة ، تقع فى نحو مائة صفحة ، لخص فيها تاريخ مصر منذ أن جاءها محمد على إلى آخر حكمه تلخيصاً مقطوع النظير ، ومما جاء فيها :

« ولو بقى النزاع بين السلطان وتابعه القوى محصورا فى مسألة امتلاك الشام ، لبقيت له صبغته القومية المحضة . ذلك بأنه نزاع لا تتأثر به المصالح الكبرى لأية دولة من الدول ؛ ولهذا لم تكن إحداهن لتتدخل فيه ، لأنه نزاع داخلى مجرد من كل صبغة دولية .

« فلو أن محمداً عليًّا لم يتعد حدود الشام لكان من المحتمل جدا أن لا تتدخل الدول فى الأمر ، وأن يمنحه الباب العالى حق إدارتها عاجلاً أو آجلاً »(1) ؛ ويقول أيضاً :

« يعجبنا من إبراهيم جده وصدق عزيمته ، وهاتان صفتان من خير الصفات وألزمها فى إدارة الحروب ؛ ولكننا نظن أن الحكمة السياسية كانت تقضى عليه بأن يبذل كل جهده ليمنع تدخل الدول فى الأمر مهما كلفه ذلك . وليس ثمة شك فى أن زحفه على الآستانة كان لا بد أن يؤدى إلى هذه النتيجة »(2) .

وقصارى القول أن إبراهيم قد اشتهر ببطشه وشجاعته ، كما اشتهر محمد على بدهائه وسعة حيلته . لكن بوالكنت يفضل الدهاء وسعة الحيلة

(١) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ١٦ من المقدمة .
(٢) المصدر عينه ص ١٩ من المقدمة .

على الشجاعة وقوة البطش ، وقد كتب فى ذلك يقول :

« لو كان إبراهيم فى مكان محمد على لشككنا فى قدرته على إنجاز ما أنجزه أبوه ؛ ذلك بأن الله لم يهبه تلك العبقرية التى لابد منها لإنشاء الدول الكبيرة ، وإن وهبه الصفات اللازمة لتثبيت العروش وتقوية دعائمها »[١] وسنكتفى بهذا القدر فلا نزج بأنفسنا فى هذا الجدل طويلا .

ومهما تكن مقدرة إبراهيم أو عجزه فإنه كان يعرف كما يعرف غيره من الناس أن معاهدة كوتاهية ليست إلا هدنة لا أكثر ولا أقل . ولكنه مع هذا شرع يحكم بلاد الشام على أنها بلاد قد ضمت نهائيا إلى مصر ، لا على أنها بلاد محتلة ؛ يدل على ذلك ما كتبه نائب القنصل البريطانى فى يافا إلى القنصل العام فى ١٦ فبراير سنة ١٨٣٤ يقول : « إن موقف الحكومة من الأهالى هو موقف المحب لهم المشفق عليهم » ؛ والرسالة مكتوبة بالفرنسية ، وقد استعمل فيها هذين اللفظين doux et humain[٢] ، وكذلك كانت التقارير الفرنسية التى بعث بها بوالكنت تشتمل على هذا المعنى بعينه فهو يؤكد أن :

« إبراهيم عند ما دخل الشام أعلن فى كل مكان مبدأ الحرية والمساواة الدينية ، ونشر المنادين فى الطرقات يبلغون الناس أن العدل سيشملهم كلهم على السواء ، لا فرق بين دين ودين ، وأن من يظلم مسيحيا سيحل به من العقاب ما يحل بمن يظلم مسلماً »[٣] .

كذلك أبلغ بوالكنت وزارة الخارجية الفرنسية أن السياسة التى اتبعها إبراهيم هى أن يحكم البلاد عن طريق ولاة الأمور المحليين . وسنرجئ الكلام

(١) بوالكنت تأليف دون ص ٢٤٧ .
(٢) صور السجلات الرسمية الخ سنة ١٨٣٤ وثيقة رقم ١
(٣) بوالكنت تأليف دون ص ٢٠٥ .

على ما صادفته هذه الجهود من النجاح ، وحسبنا الآن أن نشير إلى قول مندوب وزارة الخارجية الفرنسية أنه مهما قيل عن قسوة القائد المصرى فى الأيام الخالية :

« فإن الحرب الأخيرة قد كشفت عن شيء جديد قلما يراه الناس فى جيش أوربى ، ويندر أن يوجد فى جيش إسلامى . وأقصد بهذا أنه كان يسيطر كل السيطرة على علاقة جيشه بالأهالى الملكيين ، ويحتم على جنده أن يدفعوا ثمن كل ما يأخذونه منهم فى مسيرهم »(١) .

وكان إبراهيم بطبيعته زارعا قبل كل شيء ؛ ولذلك كانت الزراعة محببة إليه ، وقد سعى إلى إدخال أنواع جديدة من النباتات فى بلاد الشام . وأما عن اختلاطه برجاله ، فقد سبق أن نقلنا ما يقوله الدكتور ياتس Dr. Yates فى ذلك المعنى ؛ ونزيد عليه هنا قول بوالكنت بصريح العبارة إنه كان يطبق على جنوده المبدأ الأوربى الذى يحرم على الضباط أن يعاقبوا رجالهم من تلقاء أنفسهم ، غير خاضعين فى ذلك إلى قانون . ولكن بوالكنت النبيل ابن النبيل لم يكن يستحسن كل الاستحسان مبادئ ابراهيم الدمقراطية لأنه يقول :

« وكان إبراهيم كثير الاختلاط برجاله ، يعيش معهم ويلعب معهم ويثنى على الأمة التى أنجبتهم ، حتى صاروا يحسبونه درعا يحتمون به من ضباطهم . وبلغ من أمرهم أنهم كانوا يرفضون تنفيذ أوامرهم ، ويقولون أنهم سيرفعون أمرهم إلى إبراهيم »(٢) .

لكن هذا القول يكذبه تاريخ إبراهيم . فليس يستطيع إنسان أن يقود جنوده من نصر إلى نصر ، ويكتسح أعداءه أمامه كما اكتسحهم إبراهيم ، إذا

(١) المصدر عينه ص ٢٤٩ .
(٢) المصدر عينه ص ٢٣٩ .

لم يكن شديد الحرص على النظام . وإنما الذى أنطق بوالكنت بهـذا القول هو أنه من آل بربون ، وأن دم آل بربون يجرى فى عروقه ؛ وقد اضطر إلى اعتزال الخدمة فى وزارة الخارجية الفرنسية ، لأنه أبى أن يعمل تحت سلطان الجمهورية الثانية ؛ وبلغ من أمره أنه كان يعارض فى رفع لوى فليب إلى العرش ، لأن طباع هذا الملك « الشعبية » لا تتفق مع ميوله الأتوقراطية (١) .

إن النجاح الذى لقيه إبراهيم فى قيادته سيبقى خالداً مدى الدهر (٢) . أما ما قام به من الأعمال المدنية ، فنستطيع معرفته من وثيقة رسمية مؤرخة ١٥ أبريل سنة ١٨٣٤ عنوانها « مذكرات عن أحوال الشام التجارية والزراعية والسياسية ، مرفوعة إلى القنصلية البريطانية العامة » وهى وثيقة مطولة نقتبس منها ما يأتى :

لقد كان كبار الأتراك فى الشام فى العهـد البائد يحتمون بحماية ذلك العهد ، ويسومون الأهالى ضروب العسف والإرهاق ؛ أما الآن فقد فقدوا جميع ما كانوا يتمتعون به من السلطة ؛ ولذلك تراهم يحقدون على إبراهيم باشا ، لأنه لا يسمح لهم أن يظلموا أهل البلاد ، ولأنه قد حرمهم فوق ذلك كثيراً من الامتيازات الظالمة التى كانوا يتمتعون بها من قبل .

« على أن الباشا مع ذلك قد رتب معاشاً لكل من حرم منصبه منهم » .

واختتم هذه المذكرات بهذا الوصف العام للحالة القائمة وقتئذ وهو :

« ويستدل من هذا على أنه لا يوجد الآن سبب للشكوى من حكومة

(١) المصدر عينه ص ٣٧ من المقدمة .

(٢) فى الأصل الإنجليزى « يمثله قول سرفنتيز » وقد راجعنا أقوال سرفنتيز كلها فوجدنا أكثرها انطباقاً على هذا المعنى قوله المأثور الذى أثبتناه هنا وهو وارد فى الجزء الثانى من دن كيشوت . وسرفنتيز Cervantes جندى وكاتب قصصى وروائى وشاعر خلد اسمه كتاب دن كيشوت المشهور . وقد اشترك فى موقعة ليبانتو البحرية الشهيرة التى هزمت فيها أوربا الأتراك وجرح فى هذه الموقعة .

الشام ، و إن كان يوجد من غير شك طائفتان من الناس لا ترضيان عن إبراهيم باشا : أولاهما تتكون من أولئك الذين كانوا فى عهد الباشا السابق يتمتعون بالمنصب أو السلطان ، وهم قليلون ويسكن معظمهم فى المدن الكبيرة ؛ والطائفة الأخرى قوامها الفئة المتعطلة المشاغبة ، ويوجد غالب أفرادها فى دمشق وحلب . وفيما عدا هاتين الطائفتين فمبلغ علمى أن الأهالى راضون بوجه عام .

« وقد أخذت الحكومة تفكر فى إنشاء الطرق الجديدة ، وفى خير الوسائل المؤدية إلى تسهيل سبل الاتصال فى بلاد الشام ؛ واستخدم الباشا بعض رجال التعدين من الإنجليز ، ليعرف هل فى البلاد مناجم للفحم أو المعادن الأخرى »(١) .

وكتب رقيب آخر إلى القنصل البريطانى العام يقول :

« إن مصالح هذا القطر كلها هى موضع عناية حكومة إبراهيم باشا . ولقد جلست إليه أحدثه بضع ساعات ، فوجدته ممتعاً كأبيه بل أكثر منه ؛ وجدته صريحا نزيها حازما وأشد من أبيه رغبة فى العمل لخير هذا الشعب . ووجدت جنوده فى أحسن حال من النظام ، وتبلغ عدتهم ٢٥ ألفاً من المشاة ، وخمسة آلاف من الفرسان معهم اثنتا عشرة بطارية من مدافع الميدان ؛ والناس يهابونهم و إن كان سلوكهم طيبا بوجه عام »(٢) .

وقد لا يكون من الفضول أن نضيف إلى هذا الوصف العام لحكومة إبراهيم شيئاً عن مظهره الخارجى فى ذلك الوقت . لقد قال بعض الكتاب إنه لم يكن يعنى بملبسه ولا بمظهره ، ولكن هذا القول لا يتفق مع ما كتبه عنه بوالكنت ، فقد قال إن أسنان إبراهيم كانت على درجة كبيرة من الجمال . و إذا عنى موظف

(١) صور السجلات الخ سنة ١٨٣٤ وثيقة رقم ٢٦ .
(٢) المصدر عينه الوثيقة رقم ٢٤ .

دبلوماسى فرنسى فى سنة ١٨٣٤ بإثبات هذه الصفة فى تقرير رسمى ، ولم يقل شيئاً عن ملبس إبراهيم ، فإنه لا يفهم من قوله أنه يؤكد جمال أسنانه فحسب ، بل أنه يقول للقارئ إن هيئته لم يكن يبدو عليها شىء من الشذوذ . وليس أدل على أن بوالكنت كان قوى الملاحظة من قوله : « إن إبراهيم كان قصير الذراعين جداً »[1] .

وقد يكون مما يلذ للقارئ معرفته فى هذا القرن العشرين ، الذى تقف فيه البنات موقف الرقيبات على الكتب التى يسمح بقراءتها لأمهاتهن ، والذى محيت فيه كلمة « الاحترام » من قاموس الشبان ، نقول قد يكون مما يلذ للقارئ معرفته أن إبراهيم كان شديد التأدب فى حضرة أبيه ؛ لا يسمح لنفسه بأن يضطجع أمامه ولا يفكر فى التدخين فى مجلسه[2] . ويؤكد بوالكنت أن أهل الأناضول كانوا على بكرة أبيهم يحبون أن يروا هذا الابن البار يجلس على سرير الملك فى الآستانة . وكان إبراهيم يعرف ذلك منهم ، ولكنه لم يكن يعير حركتهم أقل اهتمام . وكل الذى كان يريد أن يجنيه من حبهم له ، أن يزيده قدرة على خدمة أبيه . ومن أقواله المأثورة « إن الإرادة التى تحكم فى القاهرة يجب أن تحكم أيضاً فى الآستانة »[3] .

وبينما كان إبراهيم يجاهد فى إحلال النظام محل الفوضى والاضطراب ، كان الروس يكيدون له . وقد بدءوا كيدهم ولما يجف المداد الذى كتبت به معاهدة كوتاهية . وليس أدل على ذلك من أن السفير البريطانى فى الآستانة اضطر إلى إرسال مذكرة شخصية إلى الكولونل كامبل ، يصف فيها الحال التى نشأت من

(١) دون فى كتابه « بوالكنت » ص ٢٤٤ .
(٢) المصدر عينه ص ٢٤٧ .
(٣) المصدر عينه ص ٢٩٢ .

هذا القدر . وقد كتب على هذا الخطاب كلة « خاص » وهو بخط لورد بنسنبى Lord Pansonby نفسه ، ويشمل سبع صحائف من أوراق المذكرات ؛ ويستطيع الإنسان أن يتبين أهميته من كلة « خاص » المكتوبة عليه ، ومن هذه الجملة التى جاءت فى أوله :

« سأبلغك أمراً ، ولكننى أرجوك ، وألح عليك فى الرجاء ، أن تكون فيما يتطلبه منك من العمل حذراً غاية الحذر ، نافذ البصيرة ما أمكنك ، وأن تذكر أولاً أن ما أخبرك به قد يكون خاطئاً ، وأن لا يعزب عنك ثانياً أنه إذا كان صواباً ، فإن من أوجب الواجبات عليك أن لا تسلك فى عملك طريقاً يدنى أعداءنا من مقصدهم » .

وبعد أن أيقظ بهذه الطريقة فى القنصل العام رغبته الشديدة فى معرفة ما سيقصه عليه قال :

« إن الذى أقصه عليك هو أن لدى من الأسباب ما يحملنى على الظن بأن الروس يحرضون السلطان أو يشجعونه على التفكير فى مهاجمة محمد على ، كما أخبرتك من قبل . ولا يخفى عليك أن السلطان عاجز كل العجز عن مهاجمة محمد على ، إلا إذا جاءه العون من قبل الروسيا ؛ ولذلك لا يبعد أن تكون الخطة التى رسمتها بطرسبرج ، هى أن تحرض السلطان على مهاجمته فى هذا الوقت ، لأن شروط المعاهدة الجديدة تخول للروسيين أن يساعدوه على جميع أعدائه »[1] .

---

(١) صور السجلات الخ سنة ١٨٣٣ الوثيقة رقم ٩٨ .

الفصل الخامس عشر

خونكار اسكله سى

قبل أن توقع معاهدة كوتاهية بعدة أسابيع أمر صاحب الجلالة الإمبراطورية قيصر الروس الكونت أرلوف Count Orloff أن يسرع إلى الآستانة . وقد أوفده إليها فى مهمة خاصة ، يدل على مداها اللقب الذى لقب به وهو « السفير فوق العادة والقائد العام للقوات الروسية فى الإمبراطورية العثمانية »[١] .

ودخل السفير العاصمة العثمانية باحتفال مهيب فى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٨٣٣ . ولم يقلل من جلال الاحتفال وهيبته أن محموداً ومحمداً عليًّا كانا قد سويا ما بينهما من النزاع ، بل ربما زادته هــذه التسوية فى الحقيقة جلالاً فوق جلاله .

ولم يكن الباعث على هذا التباهى هو الغرور وحب المظاهر ، بل كان هذا الجنون يسير على نظام مرسوم وخطة مقررة . ولما عرف الكونت أرلوف بأن معاهدة الصلح قد وقعت بحث عن حجة يتذرع بها لتبرير مجيئه إلى الآستانة ، فأعلن من فوره أن مقامه على شواطئ البسفور ليس إلا دليلاً محسوساً على الوفاق التام السائد بين السلطان وقيصر الروسيا[٢] . ثم أطال المكث ليمهد السبيل إلى جلاء القوات الإمبراطورية عن الآستانة . وأثار وجوده غيظ روسن الشكس الغضوب ، كما أن پنسنبى Ponsonby الهادئ الرزين علق عليه فى رسائله التى

(١) المسألة المصرية تأليف المسيو ده فريسنيه طبع كلمان ليقى بباريس ص ٢٧ .
(٢) المصدر عينه فى نفس الموضع .

بعث بها إلى لندن . ولم يلبث الرجلان أن أدركا حقيقة ما ينطوي عليه كل هذا الدهاء الروسى من معان ، إذ عرفا أن معاهدة وقعت فى اليوم الثامن من شهر يوليه سنة ١٨٣٣ بين أرلوف والريس أفندى جاء فى المادة الثالثة منها ما يأتى :

« لما كان جلالة إمبراطور الروس جميعاً يرغب رغبة صادقة فى المحافظة على استقلال الدولة العثمانية التام ، إذا ما أجبرت الظروف الباب العالى على طلب المعونة الأدبية والمساعدة الحربية من الروسيا — وإن كان هذا الاحتمال بحمد الله غير متوقع — فإن جلالة الإمبراطور يتعهد بتقديم القوات البرية والبحرية التى يرى الطرفان المتعاقدان وجوب إرسالها » .

وكانت هناك مادة سرية ملحقة بهذا الاتفاق تحتم على تركيا أن تقفل مضيق الدردنيل فى وجه سفن جميع الدول ، إذا اشتبكت الروسيا فى حرب خارجية .

ولما وصل نبأ هذا الاتفاق إلى مسامع روسن ثارت ثائرته . ويقول لنا المسيو ده فريسنيه M. de Freycinet وهو الذى كان على رأس الوزارة الفرنسية حينما احتلت إنجلترا مصر فى عام ١٨٨٢ : « إنه رغب فى أن يبلغ الباب العالى أنه إذا تمسك بشروط المعاهدة ، فإن عمله هذا يثير عداء فرنسا لا محاله . لكن السفير البريطانى اللورد بنسنبى أبى أن يسلك هذا المسلك رغم مشاركته روسن فى شعوره »(١) .

ولسنا نريد أن نطيل القول فى هذا الموضوع لأن إبراهيم لم يشترك فى المباحثات التى استتبعها هذا الاتفاق ؛ وإنما نريد أن نقول إن هذه المعاهدة هى التى أشار إليها اللورد بنسنبى فى خطابه السرى إلى الكولونل كامبل ، وهو الخطاب الذى اقتبسنا منه فى آخر الفصل السابق . وعلى أثر هذه المعاهدة ازداد

(١) المصدر عينه ص ٢٨ .

تدخل الروسيا فى بلاد الشام ، وهو التدخل الذى كشف أمره السفير البريطانى فى مذكرته السالفة الذكر ؛ ونشطت فيها الدسائس ، وأخذ الرسل يحرضون المسلمين والأرثوذكس المسيحيين على الثورة . ولم يعن رسل القيصر بطبيعة الحال بدس الدسائس بين المسلمين ، بل تركوا ذلك للأتراك . ولنفصل أسباب هذه الثورة فنقول :

ذكرنا من قبل أن القنصل البريطانى العام بالإسكندرية أبلغ فى ١٥ إبريل سنة ١٨٣٣ أنه « لا يوجد فى الوقت الحاضر سبب صحيح للشكوى من الحكومة القائمة فى بلاد الشام » . وذكرنا أيضاً أن المبدأ الذى سار عليه إبراهيم فى حكمه هو مبدأ المساواة الدينية بين جميع السكان . وقد رأى عمال القيصر والساخطون من الأتراك فى هذه الحرية الفكرية أنجع وسيلة لإثارة نقع الفتنة فى تلك البلاد .

فأما سبب اعتراض الرجعيين من المسلمين على حرية إبراهيم الدينية فأمر بديهى لا يحتاج إلى شرح أو إيضاح . ذلك بأن فى هذه الحرية قضاء لا مرد له على تعصبهم وآرائهم الرجعية . وأما سبب استياء إحدى الطوائف المسيحية من هذه الحرية فليس واضحاً بل هو فى حاجة إلى الشرح والبيان .

من مبادئ الإسلام الأساسية ، الذى هو من أكثر الأديان حرية من وجوه عدة ، أنه لا يسوى بين الناس جميعاً من الوجهة الدينية ، بل يقسمهم طائفتين إحداهما أحب إلى الله من الأخرى . فأما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله فهم أحب الناس إلى الله ، وأما الطائفة الثانية فتنقسم قسمين : الكتابيين وهم المسيحيون واليهود ، وغير الكتابيين وهم أقل الناس درجات عند الله . وقد قال الله فى هذه الطائفة الأخيرة :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١)

ومعنى هذه الآية واضح . وقال فيهم أيضاً :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ »(٢)

أما الكتابيون فيقول الله فيهم :

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »(٣)

ويقول أيضاً :

« فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »(٤)

والحقيقة التى نتبينها من هاتين الآيتين الأخيرتين من آيات القرآن الكريم أن الإسلام وهو دين الحرية والرقى يقرر فى عام ٦٢٣ أن الذين أوتوا الكتاب يستطيعون أن يبقوا على دينهم بشرط أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . فى حين أن الذى قرره العالم المسيحى فى معاهدة أوجزبرج Augsburg التى عقدت فى عام ١٥٥٥ عند انتهاء حرب السنين الثلاثين ، هو أن يكون للدولة الحق المطلق فى تعيين دين رعاياها ؛ ولم يخفف من وطأة هذه السلطة إلا سماح الدولة لمن

(١) التوبة : ٧٢ .
(٢) الأنفال : ٣٨ .
(٣) التوبة : ٢٨ .
(٤) التوبة : ٣ .

لا يقبلون هذا الشرط بأن يغادروا بلادهم [١] .

وكانت نتيجة تسامح الإسلام أن المسيحيين واليهود لم يمسهم أذى ، ولم تهدم كنائسهم أو معابدهم ؛ وكل الذى فرض عليهم أن يدفعوا الجزية وهم صاغرون . وقد استفاد هؤلاء من صغارهم ، فآثروا لوداعتهم ؛ وكان ذلك مصداقا لما جاء فى الإنجيل « طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض » [٢] ، ولا يظنن القارئ أن فى هذا شيئاً من المبالغة ، ولا يشك فى أنه هو الحق بعينه . ذلك بأن « المؤمنين » لم يسمحوا لأهل الكتاب بأن يحملوا السلاح ، بل أعفوهم من الخدمة العسكرية ، فأقام هؤلاء فى ديارهم يرعون أنعامهم ، ويهتمون بشؤونهم ، ويمارسون شعائر دينهم ، حيث كان يمارسها آباؤهم وأجدادهم .

وبذلك أضحى المؤمنون فى الشرق هم الطبقة المحاربة ، وأضحى غير المؤمنين يسيرون وراء الصفوف يجنون من الحرب الأرباح الطائلة ، ويجمعون المال الكثير ، ولا يؤدون إلى الدولة إلا النزر اليسير من هذه الأرباح ، على هيئة جزية خاصة . فلما فرض إبراهيم مبدأ المساواة فى الدين والمساواة أمام القانون ، وأعفى أهل الكتاب بذلك من هذه الضرائب الخاصة ، كان لابد أن يطالبوا بالخدمة العسكرية فيما بعد .

ولم يكن فى هذا التغيير ما يخشاه المسيحيون أو اليهود ، فقد كان فى القانون منافذ تنجيهم من التجنيد ؛ وكان فى وسعهم أن يبتاعوا هذا الإعفاء بالمال ، وإنما الذى ساءهم وحز فى نفوسهم ، هو أن المساواة لابد أن يعقبها فى العاجل أو فى الآجل القضاء على احتكارهم للتجارة ؛ فكأنهم والحالة هذه رضوا بأن

(١) محاضرات فى التاريخ الحديث لجون إمرك إدورد دالبرج أكتن بارون أكتن الأول طبعه مكملان بلندن سنة ١٩٢٠ ص ١٣٧ .

(٢) متى ٥ : ٥

يعفوا من الضرائب الخاصة ، بل سرهم هذا الإعفاء ، ولكنهم لم يرضوا بما يقابله من الواجبات . وذلك لأنهم ظلوا اثنى عشر قرنا يجنون فى أثناء الحروب طائل الأرباح ؛ فلما رأوا حقوقهم المكتسبة تتعارض مع مبادئ العدالة والإنصاف التى نشرها إبراهيم فى البلاد ، ساءهم ذلك كثيراً .

وكان الموقف الذى وقفته أوربا من هذه المسألة مجحفاً كل الإجحاف بإبراهيم . ولسنا نريد أن ندخل فى روع القارئ أن الغرب قد وقف هذا الموقف الظالم عن قصد وعمد ، بل الذى نقوله ونصر عليه أنه كان موقفاً ظالماً بالفعل ، وإن كان قد أعجب بمبدأ المساواة أمام القانون . وقد حدد اللورد بلمرستون هذا الموقف بتصريحه الذى قال فيه :

« لأوربا الحق فى أن ترجو أن يعفى رعايا الباب العالى المسيحيون ، الذين وضعهم السلطان مؤقتاً تحت حكم محمد على ، من نظام التجنيد الجديد ، الذى يرى الباشا من حقه أن يثقل به كاهل السكان المسلمين ، بعد أن وكل إليه النظر فى مصالحهم والعمل لخيرهم » .

ومعنى هذا أن وزير الخارجية البريطانية لم يكن يعارض فى التجنيد من حيث المبدإ ؛ ويلوح أنه لم ير عيباً فى إعلان المساواة أمام القانون ؛ وكل الذى يبدو لنا أنه يرغب فيه هو أن يسمح للمسيحيين أن يجنوا الخير ويستمتعوا به ، وهذا بعينه هو ما سمح لهم به إبراهيم . والدليل على ذلك ما أجاب به الكولونل كامبل القنصل العام فى الإسكندرية عن الانتقادات التى احتواها تصريح اللورد بلمرستون إذ قال إنه :

« طاف منذ زمن قريب فى بلاد الشام ، فرأى فيها الحجاج وقد نقش الصليب على ذراعهم ، وأخبروه أنهم لم يجروا على هذه العادة ليتازوا عن

المسلمين فحسب ، بل ليطمئنوا أيضاً إلى أنهم لا يدعون إلى الخدمة العسكرية الإلزامية »[(١)] .

وأثرى كثير من السوريين المسيحيين فى أيام العهد البائد ، حين كانوا يعطون الجزية وهم صاغرون ، فرأوا من مصلحتهم والحالة هذه أن يوجهوا قوارص ألسنتهم إلى إبراهيم . وأنت إذا اعتديت على قدسية الاحتكار ، وانتهكت حرمة الحقوق المكتسبة ، واجترأت على معاقل الامتيازات التى تتمتع بها الطبقات ، إذا فعلت ذلك فقد سعيت إلى حتفك بظلفك . ولذلك لم يمض إلا القليل من الزمن حتى وقع ما كان لا بد من وقوعه ، فاستحال الاستياء قلقاً ، والقلق ثورة ؛ فخرج الأرثوذكس على إبراهيم ، ولكن خروجهم هذا كان من أكبر الأسباب التى دعت إلى انضمام الكاثوليك أو الموارنة السوريين إلى جانبه . وكان مثلهم فى ذلك مثل الإرلنديين ، فإن الروح التى تدفع أهل ألستر والكاثوليك الإرلنديين إلى أن يعارض كلا الفريقين الفريق الآخر فى كل مسألة تعرض لها ، ولا يتفقون إلا فيما جبلوا عليه من حب القتال ، هذه الروح هى نفسها التى دفعت الطائفتين السوريتين المسيحيتين إلى أن تقف كلتاهما من الأخرى موقف العداء . ولما كان الدروز هم أعداء الموارنة على الدوام فقد انضموا بطبيعة الحال إلى أعداء إبراهيم .

وكان عداء الدروز من أوخم العواقب التى ترتبت على معاونة المارونيين للحكومة الجديدة . ونحن نعتقد أن إبراهيم قد تنبأ بهذه النتيجة ووطن نفسه عليها ، لأنها نتيجة محتومة ؛ ولكن الذى لم يقدره أن عداء الدروز قد ضم إلى معسكر أعدائه السيدة هستر لوسى استانهوپ Lady Hester Lucy Stanhope[(٢)] ،

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١٥٩ .
(٢) هى الابنة الكبرى لتشارلس استانهوپ (إرل استانهوپ الثالث) وأمها السيدة =

ابنة أخت وليم پت William Pitt ، وحفيـــدة لورد تشاتام الأول Lord Chatham . وكانت هذه السيدة من أعظم النساء وأجلهن قدراً ، كانت تجلس فى صدر مائدة پت ، وتحيى ضيوفه ، وتزين مجالسه بجمالها البارع ، وتشرح الصدور بقريحتها الوقادة وبديهتها السريعة . ولما مات خالها سكنت فى ميدان منتاجيو Mantague Square بلندن ، ولكنها لم تطق الحياة فى إنجلترا دون أن تمتع بلذة الاختلاط بكبار الساسة من حزب المحافظين . ولما ضاقت ذرعا بهذه الحياة المملة فرت منها إلى معاقل ويلز Wales ، وأخذت بعد ذلك تتنقل فى أقطار العالم ، حتى استهوتها بلاد الشرق الأدنى ، فألقت عصى التسيار بين دروز جبال لبنان .

وصار لها فى موطنها الجديد سلطة تكاد تكون مطلقة من كل قيد ، وأصبح حكمها مطاعاً ، وكلمتها نافذة فى جميع الجهات المجاورة لهذه البلاد ؛ ورجاها إبراهيم أن تقف على الحياد ، ولكن الحياد لم يكن من شيمتها ، بل كانت تؤمن بحكمة الإنجيل « من ليس معى فهو على »[1] فأضحت لذلك من أشد الناس طعناً على الحكم المصرى . وكان لطعنها هـذا أثر عظيم ، لأن اسمها وخلقها كانا يزيدان أقوالها قوة على قوتها ، ولأنها لم تكن تعرف « للتراضى » معنى . وكان إخلاصها الشديد ونبل عواطفها لا يعادلها فى الشدة إلا تطرفها فى تشيعها .

وقد اطلعنا فى ملفات القنصلية البريطانية العامة على شكوى عليها توقيع رجلين من أهل الشام ؛ يظهر من اسميهما أنهما من أصل مارونى ، وإن كنا لا نجزم بصحة هذا الاستنتاج . ولما كانت هذه الوثيقة هى مثال من الوثائق

= هستر أخت وليم پت الشهير ، ولدت فى سنة ١٧٧٦ وتوفيت فى سنة ١٨٣٩ . وهذا الوصف الذى وصفها به المؤلف مأخوذ بنصه من دائرة المعارف البريطانية . (المعرب)

(١) متى ١٢ : ٣٠ ، لوقا ١١ : ٢٣ . (المعرب)

التى يكتبها أهل البلاد الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وكانت فوق ذلك مما يميط اللثام عن خفايا سياسة ذلك الوقت ، فقد آثرنا أن ننقل بعض ما جاء فيها . والشكوى مكتوبة باللغة الإنجليزية وعليها توقيع « جبريل وفرانسس حمصى » ، وقد جاء فيها :

« نحن الموقعين على هذا نقدم ملتمسنا فى خضوع إلى سموكم ، لنعرض عليكم أننا قد أقرضنا السيدة إستر استانهوپ (كذا) Esther Stanhope ، من رعايا بريطانيا ومقيمة فى سوريا بجوار صيدا ، مبلغ خمسة آلاف وثلثمائة ريال نقداً على أن ترد هذا المبلغ كمبيالات فى خلال ثلاثة شهور . وكل ذلك ثابت من صك بخطها تحت يد مقدمى هذا الملتمس . وقد مرت علينا تسع سنين من غير أن ينالا من السيدة إستر شيئاً غير الوعود الجوفاء . . . . ولهذا فهما يركعان بين يدى سموكم ، يلتمسان من عدالتكم أن تطلبوا إلى البعثة البريطانيــة فى هذا القطر أن تفحص المسألة ، حتى إذا تبينت صدق أقوالنا هذه اتخذت ما يلزم من الإجراءات لإرغام السيدة إستر على أداء المبلغ السالف الذكر »[١] .

لم يكن فى أخلاق محمد على ولا فى أخلاق إبراهيم شىء من الضعة والصغار ، بل كانا من الصنف الذى يسميه الفرنسيون «السادة العظماء» Grands Seigneurs . لكن هذا المعروض هو من نوع المعروضات التى يلذ للمرابين السوريين أن يتقدموا بها إلى كل حكومة تلى الأمر ، يرجون بها أن ينالوا الحظوة لديها . ولسنا نعرف ما انتهى إليــه أمره ، ولكننا نعلم علم اليقين أن دائرة المعارف البريطانية تقول إن السيدة هستر استانهوپ كانت ذات مواهب عظيمة تمكنها من حسن

(١) صور سجلات الوثائق الدبلوماسية الخاصة بشؤون مصر فى سنة ١٨٣٤ بدار الكتب المصرية بالقاهرة وثيقة رقم ٧٩ .

القيام على الأعمال ؛ وإنها أصبحت كاتمة أسرار پت Pitt الخصوصية بعد أن اعتزل منصبه ، وإن البرلمان قرر لها معاشاً قدره ١٫٢٠٠ جنيه فى العام مدى الحياة . ومن هذا يرى أنها كان لديها ما يكفيها ؛ وإذا كانت لها فوق ذلك « مواهب عظيمة تمكنها من حسن القيام على الأعمال » ، فإنها لم تكن فى حاجة إلى الاقتراض .

ولنترك هذه المسألة الآن لنقول إن ددول Dodwell ، مؤلف كتاب « منشئ مصر الحديثة » يقص علينا أن جماعة من عمال الأتراك استطاعوا أن يستفزوا السوريين المسلمين لمقاومة إبراهيم . ولسنا نعجب لقوله هذا ، فإن فى كل دين طائفة من المتحمسين المتعصبين يحيون حياة بريئة من الذام ، قلوبهم عامرة بالإخلاص لدينهم ، ولا يفرطون فى شىء من عقائدهم ؛ ولكن عقولهم أضيق من أن تتسع لآراء غيرهم . لقد كان سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) أوسع الناس عقلاً ، ولكن بين أتباعه أناساً ، هم مثال الطهارة والصلاح ، غير أنهم لا يرون الخير إلا فيما يعتقدون ، ويغفلون عما فى آراء جيرانهم من صواب . وكان فى الشام نفر من هؤلاء ، قام واحد منهم وصعد إلى مأذنة فى مسجد نابلس ظهر يوم من أيام الجمعة من عام ١٨٣٤ ميلادية ، وصاح بأعلى صوته قائلاً : « لقد درست معالم الإسلام ومحى من الوجود ، ألا يجرى فى عروقنا الدم التركى ؟ ليقم كل رجل يحب النبى إلى سلاحه فيتقلده ، وليذهب لقتال هذا الرجل الذى لا إيمان له ، هذا الجاور[1] إبراهيم باشا ، هذا السكير الذى يدمن شرب الخمر والنبيذ ، والذى يأكل لحم الخنزير وكل مايخرجه البحر من أقذار كما يفعل المسيحيون (يشير إلى ما اعتاده إبراهيم من أكل الحيوانات البحرية) ، والذى يسكن الأديرة مع القسس ،

(١) كلمة تركية معناها « الكافر » . (المعرب)

ويصلى معهم ولا يذهب إلى المساجد قط »[١] .

لم نجد قط دليلاً يثبت أن إبراهيم كان يأكل لحم الخنزير ، ولهذا نشك فى أنه كان يأكل أى نوع من أنواعه أو أنه كان يوضع على مائدته ؛ وأما التهمة الأخرى تهمة إدمان الخمر فهى أيضاً تهمة لم يقم عليها الدليل .

فلما وقف المسيحيون فى وجه إبراهيم لأسباب تتعلق بهم وحدهم ، وعاداه أيضاً المسلمون ، تحرجت الأمور وتهيأت أسباب الحرب العوان . ولم يكن إبراهيم ليعجزه أن يقطع دابر الفتنة فى المدن الكبرى ، ولكنه أوتى من أصالة الرأى وحسن السياسة ما جعله يعمل أولاً لاتقاء الخطر المحدق به بسبب وجود مرسى لدعائم الاضطراب فى حلب على مقربة من جبال طوروس . ولذلك اتفق مع أحد رؤساء العشائر على أن يقوم بمهمة حفظ النظام فى ذلك الإقليم ، ثم عقد محالفات أخرى مع غيره من الرؤساء . وأخيرا نجح ، بعد أن لاقى قليلاً من الصعاب ، فى نشر لواء القانون فى البلاد . لكن السلطان كان لا ينفك يعمل على إثارة الفتن ، ولذلك لم يلبث القلق الذى كان سائدا فى الداخل أن تحول إلى حرب خارجية شغلت بال إبراهيم وملكت عليه جميع تفكيره .

وحاول محمود فى مايو سنة ١٨٣٤ أن يستعين بثورة الشام على استعادة ما فقده من الأملاك[٢] . وكان رشيد باشا الصدر الأعظم ، وهو القائد التركى الذى أسره إبراهيم فى موقعة قونية ، مقيما وقتئذ فى سيواس عند الحدود التركية المصرية الجديدة ، بحجة أن القلق الذى كان سائدا فى بلاد الأكراد منذ زمن بعيد يستلزم وجوده هناك . وظن السلطان أن اضطراب الأمور فى الشام يهيئ له أحسن

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١٥٦ .
(٢) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ١٣٠ .

الفرص للزحف بذلك الجيش على البلاد التى تخلى عنها لمحمد على . لكن بنسنبى وروسن كان لا يعزب عنهما أنه إذا أقدم السلطان على هذا الأمر ، فإن إبراهيم لن يكتفى بالقضاء على الجيش العثمانى بل سيزحف أيضاً على الآستانة ، ولذلك استخدما نفوذهما لدى الباب العالى ليحتفظا لتركيا بمدينة القياصرة . ولم يكن سبب هذا التدخل بغضهما إبراهيم بل رغبتهما فى بقاء الآستانة فى يد الأتراك .

وقد أهاج هائج محمد على موقف محمود العدائى ، وانتصار الدول له ؛ فشرح الأمر لإبراهيم فى خطاب كتبه إليه بتاريخ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٣٤ ، بسط فيه الموقف كله ، وأشار إلى سعى السلطان المعجل لإيقاد نار حرب جديدة ، وختمه بقوله : « ونرجو أن نتمكن من إقناع أوربا بغدر الباب العالى وتحرشه ، فنستطيع بذلك أن نحطم أغلال الذل التى تطوق أعناقنا »(١) .

وقد كتب محمد على خطابه بهذه اللهجة ، لأن بطانته اشتد عداؤها لشروط معاهدة كوتاهية . نعم إن أحدا لم يجرؤ على انتقاد الباشا ، لأن حاشية الملوك فى تلك الأيام لم تكن ترى أن الجهر أمام الأمير الشرقى بأنه ارتكب خطأ ظاهرا مما يطيل أعمار رجالها ؛ ولكن الناس لا يعدمون مئات من الوسائل لإبلاغ رسائلهم إلى من يريدون إبلاغها إليه ، من غير أن يكتبوها على القرطاس . ولذلك أخذ من حوله يمتدحون نبله ومروءته ، ويعظمون الشهامة التى أظهرها حين تخلى عن ثمار نصره ؛ وقالوا له مرارا إن محمودا يجب عليه أن يحمد لمصر نزولها باختيارها عن استقلالها الذى كان منها قاب قوسين أو أدنى(٢) .

وإذا كان لا بد من الاستعانة بهذه الخطط وغباوة محمود لحمل محمد على باشا

(١) المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين القسم التركى .

(٢) دون فى كتابه حرب الشام الأولى طبعته الجمعية الجغرافية الملكية المصرية بالقاهرة الجزء الثانى ص ٢٨٩ .

على كتابة خطاب ٢٤ أغسطس سنة ١٨٣٤ ، فإن رد إبراهيم لم تمله عليه مثلى هذه الضرورة ، وقد جاء فى هذا الرد المؤرخ ٣ من سبتمبر سنة ١٨٣٤ :

« كتبت إلىّ تقول إنه يجب علينا الآن أن نحطم أغلال الذل التى تطوق أعناقنا ، وإن الأجدر بنا أن نضع هذه الأغلال فى رقاب من فى الآستانة . فهل تسمحون لى أن أذكركم بأنى لما عرضت عليكم فى أثناء الحرب الأخيرة أن نصمم على إلقاء ذلك النير عن عاتقنا ، أجبتم بأنكم لا تريدون إلا أن تكونوا محمداً عليًا فحسب ؟ فإذا كنتم ترون الآن أن الموقف قد حان لتحطيم هذه الأغلال ، فاسمحوا لى أن أقول إنى لا أرى هذا الرأى ، لأن الإقدام عليه ليس الآن بالأمر الهين ، بل إننا سنلاقى فى سبيله صعابا جمة ؛ وذلك لأن لدى الأتراك جنودا لا يقلون عن جنودنا بأساً وشهامة ، وإذا تحرك أسطولهم لقتالنا ، وهاجموا به شواطئنا ، حاق بك من الضرر أكثر مما يحيق بى » (١) .

نرى روح الاحترام تسرى فى هذه اللغة رغم وضوحها وصراحتها ؛ وقد نقلنا هذه الفقرة عن رسالة طويلة ، إذا قرأت أصلها التركى لم يبق لديك شىء من الشك فى وفاء إبراهيم وإخلاصه لأبيه . لكنه كان يناقشه فى مسألة سياسية قد تترتب عليها نتائج هامة ، وكان حبه المظيم لأبيه لا يسمح له بأن يترك فى آرائه شيئاً ولو قليلا من الغموض . ولم نعثر على ما أجاب به محمد على ، وإن كان بين يدينا خطاب آخر من إبراهيم مؤرخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٣٤ ، نستطيع أن نعرف منه هذا الرد المفقود . لكننا سنقتصر على نقل بعض ما جاء فى هذا الخطاب . قال إبراهيم :

« كتبتم إلى تقولون إننى قد أخطأت فى فهم المقصود من خطابكم ، وإنكم

(١) القسم التركى من المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين .

قلتم إننا يجب علينا أن نحطم الأغلال التي تطوق أعناقنا ، ولكنكم لم تقولوا بعد ذلك إننا يجب أن نضع هـذه الأغلال في رقاب الأتراك . لقد فهمت ما قلتموه حق الفهم . إنكم لم تقولوا إننا يجب أن نحاول وضع هـذه الأغلال في رقاب الأتراك ، بل تقولت ذلك عليكم ، فهل تسمحون لى أن أخبركم عن السبب ؟ .

« يدعى رجال الدولة العثمانية أنها مركز الخلافة ؛ وحجتهم في ذلك أنها تمتلك المدينتين الإسلاميتين المقدستين مقر الحرمين الشريفين . والحقيقة أن مصر هى مالكة الحرمين ، لأنها هى التي تحكم الحجاز . فإذا أعلنا استقلالنا سقطت حجة الباب العالى ، إذ لا يستطيع الأئمة عندئذ أن يعلنوا من فوق المنابر أن السلطان هو خادم الحرمين الشريفين ؛ لأن الناس كلهم يعرفون أن مصر هى المسيطرة على الحجاز وعلى الأماكن المقدسة . وهـذا هو ما أقصده بقولى إن الأغلال ستوضع في أعناق الأتراك »[1] .

وتبادل الوالد والولد الرسائل بعد ذلك الخطاب ؛ وظل إبراهيم مصرا على قوله إن الوقت لم يبق ملائماً لمهاجمة السلطان . وتدل خطاباته على أنه أصبح شديد الحيطة وأن بأسه الشديد قد تبدل بالدهاء الذى كان يبدو ظاهراً فى طباع أبيه . فلما أصبح محمد على يفضل المقاتلة على المخاتلة ، أضحى هو من دعاة اليقظة والحذر ، وخشى أن يستاء أبوه من تمسكه بآرائه التي أبداها في خطابه فقال :

« وكل الذى يحملنى على أن أعيد ذكر ما مضى على مسامعكم ، هو حرصى على أن لا نبرم أمراً إلا بعد أن نتبين أثره ، ونزن بعقولنا ما يترتب على أعمالنا من العواقب »[2] .

(١) القسم التركى من المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين .
(٢) القسم التركى من المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين .

وكان إبراهيم قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره حينما تبدلت أخلاقه هذا التبدل الظاهر . ولا عجب فى ذلك فإن من أكبر ما امتاز به إبراهيم أن أفقه العقلى كان دائم الاتساع .

بدأ إبراهيم حياته دفتردارا لا يرحم ولا يلين ؛ فلما ولى أمر الشام جعل شعاره فى حكمه المساواة فى الضرائب . كذلك لما طبقت شهرته الخافقين بعد حرب الحجاز ، كان لا يعرف شيئاً من الخطط الحربية الحديثة ؛ فلما كبر عرف أن العالم لم تعد تصلح له تلك الخطط التى أنالته النصر على الوهابيين ، ولذلك شرع يدرس الفنون الحربية الأوربية ؛ ولم يدخر جهداً فى سبيل إتقانها ومعرفة كل صغيرة وكبيرة فيها . وهو الذى كان يشير باتباع منهج الحزم والشدة فى معاملة الأتراك ، واستمسك جهده بهذه الخطة التى كان يدعو إليها ؛ لكنه الآن قد أوتى من الشجاعة الأدبية ما جعله يرى أن الظروف قد تبدلت ، فأصبح فرضاً عليه أن يبدل تبعاً لها موقفه ، سواء كان مخطئاً أو مصيباً فيما كان يراه أيام كوتاهية .

لقد قلنا إن بطانة محمد على كانت لا تفتأ تذكر له كرمه فى معاملة عدوه المنهزم ؛ ولكنه لم يستبدل بموقفه الأول ، موقف السياسى الحذر ، موقفه الجديد أى موقف القائد الشديد البطش ، لهذا السبب وحده ؛ بل كان للسياسة الأوربية يد فى ذلك . إن لهذه السياسة فى جميع أدوارها دخائلها وخفاياها . لقد كان اللورد بلمرستون Palmerstone ينظر إلى محمد على فيرى فيه الحاكم المحتل لطريق الهند[1] ؛ فكان لذلك يبغضه من صميم قلبه . وهذا السبب عينه وهو كراهية وزير الخارجية البريطانية لمحمد على ، هو الذى بث فى قلب الملك الشعبى لوى فليب العطف عليه ، وإن كان هو الذى اخترع لفظ « الاتفاق

(١) بلمرستون تأليف فليب جودلا طبعة إرنست بن بلندن ص ١٧٥ .

الودى » ليصف به الصداقة التى توثقت عراها بعد ذلك بقليل بين باريس ولندن ؛ ولما كانت العداوة مستحكمة [(١)] بين قيصر الروسيا وإمبراطور النمسا ، فإن معاونة نقولا إلى السلطان جعلت مترنيخ يلاطف محمداً عليا .

ولم يسلك لوى فيليب ومترنيخ مسلكا واحداً فى مصانعة محمد على والثناء عليه ، فقد وكل مترنيخ الأمر إلى الكونت بروكش أوستن Count Prokesch Osten وأفهمه أن يضرب على نغمة الإمبراطورية العربية الجديدة . وأما ملك فرنسا فقد أفهم ميمو أن يستهوى محمداً عليا بالضرب على نغمة الاستقلال الساحرة . وقد لا يكون فى عمله هـذا شىء من عدم الإخلاص ، وذلك لأن الاحتفاظ بكيان الدولة العثمانية لم يكن من المبادئ الأساسية لسياسة فرنسا الخارجية . والدليل على ذلك أن حكومة آل بوربون هاجمت الجزائر ، وأن حكومة لوى فيليب كانت تحبذ تقسيم الدولة العثمانية ، وأن فرنسا أمدت محمداً عليا بما يلزم لجيشه وأسطوله من الجند والبحارة ، وأن الخبراء الذين كانوا يشرفون على الأعمال فى أحواض السفن ومصانعها بالإسكندرية كانوا من الفرنسيين . وكان من رأى باريس أن استقلال مصر قد أصبح حقيقة واقعة لا ينقصه إلا الاعتراف به اعترافاً قانونيا ، لكى يمسى أمراً غير قابل للنزاع . ولذلك وجهت جميع جهودها لإقناع السلطان بالموافقة على هذا الرأى . وقد وصف ميمو سياسته بقوله : « إن الواجب الملقى على عاتق فرنسا هو أن تضم نصفى الدولة أحدهما إلى الآخر » .

وفى خلال هذه الشهور التى كان فيها محمد على يُهْدَى إلى أنواع جديدة من النشاط العقلى ، كان إبراهيم ينظم حكومة الشام المدنية ، ويستعد لمقاتلة تركيا . وتحقيقاً لهذه الأغراض نقل مقر القيادة العامة إلى انطاكية . ولما اختار إبراهيم

(١) فى الأصل الإنجليزى « الصداقة متينة » وهو ما لا يؤيده الواقع ولا يحتمله المعنى ، وهو إما تهكم أو سهو من المؤلف . (المعرب)

مقر كرسي القديس بطرس ليكون قاعدة لأعماله العسكرية ، كانت هـذه المدينة محاطة بأسوار عظيمة الأهمية ؛ وكانت قلعتها جزءاً من الصخر الأحمر ؛ أسوارها تشهد للمهندسين القدماء بالبراعة والإتقان . ولـكن هذه الكنوز الأثرية لم يكن لها معنى لديه لأن جنوده كانوا فى حاجة إلى ثكنات يأوون إليها ، فإذا شاء أن يستورد ما يحتاجه من مواد البناء لإقامتها كلفه ذلك أموالا طائلة ؛ فاتخذ الأسوار القديمة مقالع لأحجار البناء .

ومرت الشهور يتلو بعضها بعضاً من غير أن يتصادم الأتراك والمصريون . وأتى على الاثنين حين من الزمان بدا فيه أن المخافر الأمامية للقوتين لن يقع بينهما قتال . فلما كان اليوم الثالث والعشرون من شهر إبريل سنة ١٨٣٩ ، وقع ما كان لا بد من وقوعه ، إذ تخطى القائد العثمانى العام ومعه أركان حربه البروسيون الحدود الفاصلة بين البلدين ، واقترب من إحدى الفرق المصرية . وكان مع الفصيلة التركية هلموث ڤون ملتكه Helmuth Von Moltke ، الذى خلَّد ذكراه فى موقعة سيدان Sedan . ولم يخف على إبراهيم ما كان يقصده الأتراك بهذا التحدى ؛ ولـكنه جعل السياسة العليا تسيطر على خططه العسكرية ، لأنه كان يعرف أنه إذا استفزه هذا التحدى تطاير شرر الحرب مرة أخرى . وكان يرى أن هذه الخطوة الخطيرة لا يصح أن يخطوها هو ، بل يجب أن يترك أمر تقريرها لأبيه . ولذلك أرسل من فوره الرسل إلى الباشا ليخبروه بما وقع ؛ ولـكنه لم يقف مكتوف الأيدى حتى يرجع هؤلاء الرسل ، بل أمر قواد فيالقه أن يستعدوا للقتال فى الحال ؛ ثم استقدم إليـه أعيان البلاد المجاورة وأطلعهم على ما حدث ، وأخبرهم أنه فى حاجة إلى معاونتهم الودية .

ولما وصل رسل إبراهيم إلى محمد على أمر ناظر حربيته أحمد باشا أن يسافر على

الفور إلى ميدان القتال . فلما بلغ هذا النبأ مسامع القنصل الفرنسى احتج عليه ، وقال إن اتصال ناظر الحربية بإبراهيم لا بد أن يؤدى إلى نشوب القتال ، فلم يعبأ الباشا بهذا الاحتجاج ، بل أعاره أذناً صماء . وعندئذ واصل القنصل الفرنسى هجومه فقال : « ستتحملون سموكم تبعة الحرب إذا سمحتم لأحمد باشا بأن يتصل بإبراهيم ، وإنى أؤكد لكم أن السلطان يرغب فى السلم وأن فرنسا أيضاً راغبة فيه » . فرد عليه محمد على من فوره بقوله : « إذا ضمنتم لى عدم تقدم الأتراك فإننى لا أكتفى بإبقاء أحمد باشا بالقاهرة ، بل سأستدعى فى الحال إبراهيم وجيشه »

فانشرح صدر القنصل لما سمع هـذا القول ، وأبرز لساعته رسالة من روسن السفير الطائش يقول فيها إن السلطان أكد له أن الباب العالى يجنح للسلم . وختم السياسى البحار خطابه بقوله : « لقد قالت فرنسا كلمتها ، واتبعت نصيحتها ، فأذع رسالتى فى طول البلاد وعرضها » .

وكان لمحمد على ذاكرة قوية وبديهة حاضرة ؛ ولم يكن أمر روسن خافياً عليه ، ولم يشك قط فى صدق القنصل ولا فى إخلاص السفير الذى تلقى تجاربه الأولى على ظهر سفينة . وكل ما فعله أن التفت إلى قنصل النمسا الذى كان حاضراً هذا الحديث وقال له : « هل فى خطاباتك أنت أيضاً مثل هذه الضمانات السلمية ؟ وهل تستطيع أنت أيضاً أن تؤكد لى ما أكده زميلك ؟ » فكان الجواب سلباً . وعندئذ لم يتردد محمد على فى الرد بل قال : « سيدى إننى أعرف ما يجرى الآن فى الآستانة ؛ وإن أبسط مبادئ الحزم لتدفعنى إلى العمل دفعاً ؛ ولا بد من أن آمر أحمد باشا بالسفر فى الوقت والساعة » وصدرت هذه الأوامر قبل أن يقوم محمد على من مقامه (١) .

(١) سليمان باشا تأليف إجيه فنترنيه طبع فرمن — ديدو بباريس سنة ١٨٦٦ ص ٢٩٦ .

الفصل السادس عشر

نصيبين[1]

أسرع وزير الحربية إلى مقر القيادة العليا لجيش إبراهيم . وكان الطريق أمامه طويلاً ، ولا يستطيع هو السير فيه مسرعاً كما يسير الرسول . ولذلك سبقه مبعوث خاص يحمل إلى إبراهيم أوامر أبيه . ولم نستطع الاطلاع على نص هذه الأوامر ، ولكن فى مقدورنا أن نتكهن بمعناها لأن إبراهيم قد خول منذ يونيه سنة ١٨٣٩ الحق المطلق فى أن يفعل كل ما يراه صالحاً ، فيبدأ الحرب أو يحافظ على السلم حسبما تمليه عليه الظروف[2] .

ولما ترك محمد على لإبراهيم أن يتصرف فى الأمر بحكمته وحسن تدبيره ، كان يعرف أنه لن يهاجم العدو إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرارا ، على الرغم من أن تركيا ومصر كانتا فى حالة حرب فعلية فى البر والبحر منذ شهر مارس من عام ١٨٣٩ ، كما أنبأ القنصل الإغريقى العام بالقاهرة حكومته فى ٢٦ من ذلك الشهر[3] . ولطالما استفز الأتراك إبراهيم بموقفهم العدائى ؛ ولولا قدرته على كبح جماح نفسه لتكشف ستار السلم عن حقيقة الحرب العلنية . وقد كتب فى ذلك القنصل اليونانى العام فى الإسكندرية إلى وزارة خارجيته بتاريخ ١٨ يونية يقول : « تدل الأنباء الواردة من المنطقة التى يعسكر فيها الجيشان فى الوقت الحاضر

---

(١) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيره جك والإسكندرونه وهى غير نصيبين التى بالجزيرة ويسميها الإفرنج والترك نزيب . (المعرب)

(٢) پوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٦٣ .

(٣) المصدر عينه ص ٥٨ .

على أن جيوش السلطان تواصل الزحف ، وتشجع أهل البلاد على الثورة بتقديم الأسلحة وبذل الوعود لهم . وقد تقدم (سليمان باشا والى مرعش) فى جيش مكون من نحو ثمانمائة فارس ، حتى بلغ عينتاب واستولى على المدينة ، وإن كانت قلعتها لا تزال فى أيدى المصريين . ويقال إن حافظاً باشا القائد العام للجيوش التركية كان مع هذه القوة ، ولكنه تخلف عنها قبل أن تصل إلى عينتاب . ورأى جنود السلطان سكوت الجيش المصرى وامتناعه عن القتال إطاعة للأوامر الصادرة من الوالى إلى إبراهيم باشا ، بعد أن هددته الدول الأوربية وأنذرته أن لا يكون البادئ بفتح باب العدوان ، فاغتنموا هذه الفرصة السانحة وتوغلوا فى البلاد من غير أن يلاقوا مقاومة ، اللهم إلا مناوشة بين الفرسان السالفى الذكر وكتيبة صغيرة من البدو »[1] .

وقد أفصح هذا القنصل العام نفسه فى رسالة سابقة بعث بها إلى حكومته عن حقيقة تهديد الدول الأوربية . وقبل أن ننقل إلى القارئ شيئاً من هذه الرسالة ، نقول إن ميخائيل توسزا Michael Tossizza الذى بعث بهذه المعلومات إلى أثينا ، لم يكن من رجال الدبلوماسية الرسميين ، ولا من رجال البحرية ، بل كان تاجرا استوطن الإسكندرية قبل أن تستقل بلاد اليونان ، وكسب صداقة محمد على ، واحتفظ بهذه الصداقة . فلما أنشأت بلاد اليونان أول قنصلياتها فى القطر المصرى فى عام ١٨٣٣ ، عهدت بأمور القنصلية إليه . ولم يكن يرسل فى أول الأمر تقارير منتظمة إلى وزارة خارجيته ، كما أنه لم يبدأ الاشتغال بالمسائل السياسية إلا فى سنة ١٨٣٨[2] . ولم يكتسب قط فى حياته ذلك الأسلوب

(١) المصدر عينه ص ٦٣ .
(٢) المصدر عينه ص ٣ من المقدمة .

الخاص الذى تكتب به المراسيم والوثائق السياسية ، بل كانت معانيه على الدوام واضحة كل الوضوح . ويمتاز ما كتبه توسزا بميزة أخرى غاية فى الأهمية ، وهى ناشئة من الصداقة الوثيقة التى كانت بينه و بين محمد على . وقد كتب هذا القنصل إلى وزارة خارجيته فى ٢٣ يوليه سنة ١٨٣٨ يقول :

« لقد أبلغ المستر كامبل وكيل إنجلترا السياسى الوالى بصفة رسمية أن بريطانيا العظمى تعارض أشد المعارضة فيما يطلبه من الاستقلال ، وتصر على أن يبقى كما هو ؛ وإلا فإن الدول الأربع إنجلترا وفرنسا والروسيا والنمسا ستعمل مجتمعة لمنعه من نيل استقلاله ، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة . وهذه الدول متفقة على ذلك ، وقد قررت أن تزيد قوة الأسطولين البريطانى والفرنسى فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن ترسل الجنود النمساوية إلى بلاد الشام إذا استلزم الموقف ذلك . ويلوح أن سمو الوالى سيجيب بأنه إذا عجز عن نيل رغباته بالرضا والمسالمة ، فستلجئه الضرورة إلى أن يعمل لنيلها بوسائل أخرى ؛ ومهما كانت العاقبة فسيكون من أكبر دواعى الشرف له أن تهزمه الدول الأربع الكبرى »(1) .

وكتب توسزا رسالة أخرى فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٨ يضم فيها بروسيا إلى جماعة الدول المتفقة . ولهذا الأمر أهميته ، لأننا عرفنا من قبل أن هامث فون ملتكه كان وقتئذ مع الجيش العثمانى الذى كان يعمل بكل ما فى وسعه ليستثير غيظ إبراهيم . وليس يخفى علينا أن ملتكه كان فى ذلك الوقت رجلاً لا خطر له ، ولا يكاد يعرفه أحد ؛ ولكن انضمام النمسا والروسيا وبروسيا كان مقدمة لحلف القياصرة الثلاثة الذى تم فيما بعد ، ومضاعفاً للخطر الذى

(١) المصدر عينه ص ٤٠ .

كان يتعرض له جيش إبراهيم . وقد أبلغ قناصل هذه الدول الثلاث محمداً عليًّا أن دولهم لا تسمح بأن يطرأ على العلاقة القائمة بينه و بين الباب العالى تغيير ما ، وأنه إذا أقدم على عمل أيا كان نوعه فستنضم هذه الدول إلى تركيا لقتاله والتغلب عليه ؛ فأجابهم الباشا عن ذلك بقوله :

« إننى لا أرغب فى الحرب ، ولن أقدم على عمل عدائى ، ولـكننى راغب فى الاستقلال ، ولن أتخلى عن هذه الغاية »[١] .

على أن هذا التحذير كان له أثره فى نفس محمد على ؛ ورأى أن خير وسيلة لتجنب هذه الأحاديث البغيضة المنذرة بأسوإ العواقب ، أن يرحل إلى الجنوب . وكانت الإشاعات متواترة بأن مناجم من الذهب صالحة للاستغلال قد كشفت فى السودان . ورأى الباشا من مصلحته أن يتحقق من هذه الأنباء الهامة بنفسه ، حتى إذا ما اضطر إبراهيم إلى الزحف على الأتراك ، حلت بهذا الكشف مشكلة من أهم المشاكل . وزيادة على ذلك فإن غيابه يهيئ الظروف للمسألة التركية كلها أن تستقر على قرار ثابت مكين . لـكن هذا الغياب المؤقت لم يكن ليفت فى عضد الزمرة الدبلوماسية المتحدة ، التى ظلت تعارض محمداً عليًّا بعد رجوعه فى ١٥ مارس سنة ١٨٣٩ .

ولا شك فى أن إبراهيم كان يعرف كل هذه الحقائق و يعرف أيضاً كيف يتعظ بعبرها ؛ لأن أباه كان دائم الاتصال به لا يقطع عنه أخباره ؛ وكانت معرفته بهـا وتقديره خطر الموقف الذى كان يواجهه سبباً فى أنه لم يحرك ساكناً حينما استثار الأتراك غيظه ؛ وذلك لأنه أيقن أن الأتراك يلقون معونة أوربا السياسية ؛ وعرف الباب العالى ذلك فوقف من المصريين هـذا الموقف المغضب . وكان

(١) المصدر عينه ص ٤٤ .

ڤون ملتكه وڤون ملباخ Von Mulbach وغيرهم من الضباط البروسيين لا يفتأون يحرضون قواد الترك العسكريين ، ويستعينون بما طبع عليه الألمان من اعتداد بالنفس ومغالاة فى الاطمئنان إلى مقدرتهم ، فيغرون حافظاً باشا بالاستمرار على مناوأة إبراهيم .

وصادف تحريض الضباط البروسيين هوى فى نفس القائد التركى العام ، فلم يشك قط فى الظفر بأعدائه ، لأن له جيشاً جراراً ، وإدارة للمخابرات دقيقة النظام ، وهيئة طيبة من الضباط ، نواتها مساعدوه الألمان .

وشجعه على الاعتداد بنفسه أن إبراهيم لم يقابل هجومه فى ٢٣ إبريل بهجوم مثله . ولما سقطت عينتاب فى يده زاد اطمئنانه ، ولم يساوره قلق ما حتى جىء إليه بأحد الأسرى الذين وقعوا فى يد الأتراك عند استيلائهم على قرية تل باشر . وهذا الأسير هو فرجانى شيخ عرب المنادى . وكان رجلا سواه الله وعدله ووهبه من الكبرياء بقدر ما وهبه من قوة الجسم . وأخذ القائد العام يسأل أسيره ، لعله يعرف منه ما يفيده فى موقفه . لكن الرجل كان عنيداً لا يلين فأجابه بقوله : « عن أى شىء تسألنى ؟ دونك رأسى فليس ينجيه منك لسانى ، بل ربما أوقعنى فى الهلاك ، وكان منطقى سبباً فى إراقة دمى » . فأجابه حافظ بقوله : « لن أمس شعرة من لحيتك إذا صدقتنى القول » . فقال له الأسير : « أقسم بالقرآن أنى سأبرح هذا المكان حيا سليما من الأذى أخبرك بما تريد » .

فلما أقسم ضحك فرجانى ملء شدقيه وقال :

« أتريد أن أخبرك بالحق وأطلعك على رأيى فى معسكرك ومعسكر إبراهيم ؟ أتريد أن تعرف ما سيقع فى المستقبل ؟ ألا هل يستطيع أحد أن يتنبأ بما فى عالم الغيب ؟ لكنك إذا أصررت على معرفة الحقيقة فإنى مبلغك إياها . إن معسكر

إبراهيم معسكر جنود ، أما معسكركم فمعسكر حجاج » .

فقال له القائد التركى غاضبا : « وماذا تقصد بهذا القول ؟ » فرد عليه بقوله : « رأيت فى معسكر إبراهيم أكداساً من الأسلحة وإلى جوارها كتائب من الجند المشاة مدججين بالسلاح ؛ ورأيت المدافع وإلى جانبها رجال المدفعية ؛ ورأيت الاصطبلات وبقربهـا الفرسان ؛ ورأيت كل إنسان فى موضعه متأهبا لأداء واجبه ؛ ولم أر شيئاً من ذلك فى معسكركم ، بل رأيت فيه يهودا وتجارا وأئمة ؛ رأيت فيه رجالاً يقرضون المال ، ورجالاً يبيعون وآخرين يصلون ، ولذلك قلت إن معسكركم أشبه شىء بمعسكر الحجاج . وتسألنى لمن سيكون النصر ؟ فأقول إن هذا مالا أعرفه ، لأن علمه عند الله ، وستعلمن نبأه بعد حين »[1] .

إن للأتراك أغلاطاً ولكنهم قوم كرام . ومع أن حافظا قد تألم وكاد يصعق مما قاله العربى الصريح ، فقد فك أسره وخلى سبيله ، وقبل أن يعود إليه صوابه جاءه رسول ومعه خطاب من إبراهيم ؛ ولم يكن هـذا الرسول يحمل راية الهدنة لأن الحرب لم تكن أعلنت رسميا بين الدولتين . وكان تاريخ الخطاب ٨ يونيه سنة ١٨٣٩ وقد جاء فيه :

« إن التعليمات التى أرسلتها الدول العظمى إلى قناصلها المقيمين فى الإسكندرية قد أقنعتنى بأنهن غير راضيات عن الحرب ؛ وإنى لأعرف أيضاً أن سمو مولاى المعظم غير راض عنها ، ولكن على الرغم من هذا :

(١) فإن سليمان باشا المرعشلى أرسل فصيلة من جنوده هاجمت جيوشنا فى بولانق .

(٢) وأرسلتم فرقة إلى باياس[2] لتحريض أهلها على الانتقاض علينا .

---

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ١٨٨ .

(٢) ميناء صغير فى خليج الإسكندرونة . (المعرب)

(٣) و بعثتم بالحاج عمر أوغلو إلى كرد داغ[1] للفرض نفسه .
(٤) وغزوتم أرضنا وهاجمتم عرب الهنادى التابعين لنا .
(٥) ووزعتم الأسلحة على أهل ولاية عينتاب ، ودخل سليمان باشا المرعشلى هذه المدينة ولا يزال باقيا فيها إلى الآن . وبالأمس هاجمت قوة من الفرسان تحت قيادة سعادتكم صفوفنا وأمرتم مدفعيتكم أن تصوب نيرانها على فرساننا الهنادى فى مخافرنا الأمامية » .

و بعد أن ذكر إبراهيم هذه الأسباب قال :

« ولقد صبرت إلى الآن على هذا كله ولم أقابله بمثله ، لأننى كنت أحاول أن أقنع نفسى بأن هـذه الأعمال العدائية تغضب السلطان مولانا المعظم . فإذا كنتم سعادتكم تعزون سكوتى عنها إلى الخوف فإنكم مخطئون فى ظنكم ، إذ ليس لسكوتى إلا سبب واحد هو حرصى على احترام رغبات سمو والدى وسيدى المعظم . وإذا كنتم سعادتكم قد تلقيتم الأمر باستئناف القتال ، فما بالكم تنهجون هـذا النهج وتدسون الدسائس . هلموا إلى ميدان القتال ، ولكن هلموا إليه بصراحة ، وخوضوا غمرات الحرب كما يجب أن تخاض . ولا إخالكم قد نسيتم ماحدث منذ بضع سنين ، وستلقون رجالاً لا يعرف الخوف طريقه إلى قلوبهم ؛ أما الدسائس فإننا لا نطيق احتمالها إلى الأبد . فهل أحظى منكم بجواب صريح ؟ فإن فعلتم فسينقل ردكم إلىّ إذا رغبتم حامل هـذا الخطاب الأمير ألاى محمود بك[2] » .

واستقبل حافظ باشا الأميرالاى والبكباشى الذى كان يصحبه أحسن

---

(١) جبل الأكراد (المعرب)
(٢) كدلفين وبرو جزء ١ ص ١٩٣

استقبال ، وأتحفهم بالهدايا وأخبرهم أنه سيرسل رده فى اليوم التالى . وكانت الروح السارية فى هذا الرد من أوله إلى آخره هى أن الخضوع لا يكون بالأقوال بل بالأفعال . ثم انتقل حافظ باشا من هذا المبدإ إلى قوله إنه لا يعترف بأن التهم التى يوجهها إليه إبراهيم قائمة على أساس صحيح ؛ وحاول أن يثبت أن الجنود المصرية لا الجنود الشاهانية هى المعتدية ، وجاء فى ختام هذا الخطاب ما يأتى :

« لقد أعطيت لنفسى الحرية فى كتابة هذه الرسالة الودية ، لتكون دليلاً على حسن نيتى ؛ وقد أرسلتها مع الأميرالاى حاذق بك ، وبصحبته الأميرالاى أحمد بك من ضباط الجيش الشاهانى المظفر . وعند ما تصلكم هذه الرسالة إن شاء الله سيتوقف العمل بما فيها على حكمتكم السامية »[1] .

وبينما كان القائدان يتبادلان الرسائل على هذا النحو ، كان رسول يستحث الخطى إلى إبراهيم ، يحمل إليه رسالة من أبيه مؤرخة ٩ يونيه سنة ١٨٣٩ يقول فيها :

« تسلمت رسالتك التى تقول فيها إن العدو يواصل زحفه ، وإنه احتل الآن ستين قرية وراء عينتاب ، وإنه وزع السلاح على الأهالى وحرض العصاة على مهاجمة عَكّار[2] وسلب أموال حاكمها وقتله . وقد قلت بعد ذلك إنه ليس من الحكمة أن يسمح للأتراك بالسير على هذه الخطة ، وطلبت إلىّ أن أخبرك بما تفعل .

« إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول ، وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نقفه ، لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال ؛

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٩٧

(٢) بلد صغير واقع على بعد ٣٢ كيلو مترا من شرق طرابلس والذين هجموا عليه فى ذلك الوقت هم المتاولة . (المعرب)

وكلما صبرنا عليه رغبة منا فى عدم معارضة رغبات الدول الكبرى ، زاد عدونا إيغالا فى بلادنا وزادت الأمور حرجا . وتلك حال ترغمنا على العمل ؛ فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله . ولما كان العدو هو المعتدى فإن الدول لن تلقى التبعة علينا .

« فنصيحتى إليك أن تبادر عند وصول رسالتى إلى يديك بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا فى أرضنا ، وأن لا تكتفى بإخراجهم منها ، بل عليك أن ترحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله »(١) .

ووصلت هذه الأوامر إلى إبراهيم فى غسق الليل ؛ فأراد أن يهاجم العدو عند مطلع فجر اليوم التالى . ورأى سليمان باشا (الكولونل سيف ساعد إبراهيم الأيمن ، الذى طالما أشرنا إليه فى هذا الكتاب) غير هذا الرأى ، وأصر على أن وجود الضباط البروسيين فى جيش حافظ باشا يحمله على الظن بأن مواقع العدو قوية محصنة ؛ وطلب الضابط الفرنسى أن يستكشفا بنفسهما تلك المواقع قبل الهجوم عليه . ولما كان من شيمة إبراهيم أن ينصاع دائماً إلى حكم العقل ، فقد قبل هذا الرأى عن رضا وطيب خاطر .

وفى صباح اليوم التالى اضطلع القائدان نفسهما بتلك المهمة الخطيرة ، مهمة استطلاع مواقع الجيش التركى . ومازالا يقتربان من خط النار حتى أصاب الرصاص حصان أحد جنودهما فقتله . وكانت نتيجة هذا الاستطلاع أن عرفا أن نصيبين التى اعتصم بها حافظ باشا أمنع من عقاب الجو ، وأن ليس فى مقدورهما أن يستوليا عليها عنوة(٢) ، لأن ڤون ملتكه وڤون ملباخ نصبا معسكر الأتراك

(١) ڤنترنيه فى كتابه السالف الذكر ص ٣٠٩ .
(٢) المصدر عينه ص ٣١٢ .

عند سفح التل الذى يجرى عنده نهر كرزين[١] ، وجملا هذا النهر حائلا بين المصريين والجيش التركى . ولذلك اضطر المصريون أن ينسحبوا من مواقعهم ويهاجموا العدو من جهة أخرى . وأيقن إبراهيم وسليمان باشا أن الفضل فى اختيار هذا الموقع المنيع الذى اتخذه الجيش التركى لنفسه يرجع إلى مهارة الضباط البروسيين وخبرتهم الفنية ، ولكنهما قدرا أن الألمان لن يستطيعوا أن يتنبأوا بالحركة الجريئة التى سوف يقدمان عليها .

والحق أنهما لم يخطئا التقدير ، لكنهما حين أقدما على ما أقدما عليه عرضا أنفسهما لأشد الأخطار رغم أنهما بنيا خطتهما على نفسية البروسيين وعقلية الأتراك . وقد وصف تلك الخطة إيميه ڤنترنييه Aimé Vingtrinier صاحب سيرة سليمان باشا بقوله :

« وكانت فكرة سليمان وميضاً من العبقرية إذا أفلحت وأوهاماً من عقل مخبول إذا أخفقت . ولكنه كان مؤمناً بصوابها ، واستطاع أن يبث هذا الإيمان فى الجيش كله لا فرق بين قائده الأعلى وأصغر جندى فيه »[٢] .

وكانت الخطة التى نفذت بإشراف إبراهيم وعلى مسئوليته هى أن يترك الجيش المصرى المعسكر الذى كان يحتله وقتئذ ، ويسير مخترقاً قرية مزار[٣] ، وأن يتم ذلك بين طلوع الفجر وغسق الليل ؛ ثم يلتف حول جبل بيازار ويعود بعدئذ فيتجه نحو العدو موليا وجهه شطر الجنوب فى اتجاه قرية كرد قلعة[٤] ،

(١) هو نهير يصب فى الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى . وقد كتبه المؤلف وڤنترنييه كرسيم وكتبه فريد بك قرصيم ، ولكن الخرائط التى اطلعنا عليها وكذلك كداڤين وزميله والرافعى بك يكتبونه كرزين . (المعرب)

(٢) المصدر عينه ص ٣١٤ .

(٣) تقع هذه القرية جنوبى نصيبين بقرب . (المعرب)

(٤) فى الجزء الأول من كتاب كداڤين وبرو وفى كتاب الرافعى بك رسم واضح =

وكانت الفكرة التى بنيت عليها هذه الحركة كلها هى : أولا أن ڤون ملتكه عند ما يرى أن الجيش المصرى قد رفع معسكره لا يشك مطلقاً فى أن قواد هـذا الجيش لن يفعلوا ما كانوا ينوون أن يفعلوه ، وهو تعريض جناحهم للخطر ، وأنه سيمكنهم بذلك من أن ينفذوا الشطر الأول من خطتهم قبل أن يدرك حقيقتها . وثانياً أن ڤون ملتكه إذا ما أدرك حقيقة الموقف وأراد الانسحاب إلى مواقع خير من مواقعه الأولى ليهاجم منها المصريين قبـل أن يصلوا إلى أماكن آمنة ، لن يتمكن من التغلب على كبرياء القائد التركى ، بل إن هذا القائد سيتغلب على المنطق الألمانى الضعيف .

ويقال إنه لما فرض حافظ باشا رأيه على الضباط الألمان غضبوا أشد الغضب ورفعوا إليه استقالتهم ؛ فلما فعلوا ذلك قال لهم السرعسكر « إن الجندى لا يستقيل قبيل الموقعة » . وكان هـذا الالتجاء إلى المبادئ الخلقية العسكرية كافيا لحل المشكلة ، فلم ينسحب ڤون ملتكه بل أفرغ وسعه فى معالجة هذه الحال الطارئة ، فعدل خططه ونقل مدافعه التى أصبحت عديمة الفائدة ، لأن المصريين أبوا أن يقدموا أجسامهم طعاما لنيرانهـا ، ووضعها حيث يمكنه الاستفادة منها . وأيقن أن الموقعة الحاسمة ستبدأ عند مطلع فجر اليوم التالى ؛ وكان يخشى أن تكون نتيجتهـا وبالاً على الجيش العثمانى ، لأن إبراهيم خرج على القوانين الحربية ، فأبى أن يتبع البديهيات الأولى فى فن الحروب ، وخرق مبادئها الأولية . ولشد ما تألم

=لموقعة نصيبين ومواقف الجيوش المحاربة والأماكن الواردة هنا فليطلع عليه من شاء . ولم نعثر فى جميع المصادر التى اطلعنا عليها على اسم القرية التى يسميها ڤنترنيبه والمؤلف Kardikala ويسميها كدلڤين وزميله Cordikala ، وقد راجعنا من أجل ذلك من المصادر التركية قاموس الأعلام لشمس الدين سامى بك ومعجم التاريخ والجغرافيا لعلى جواد بك والـكتاب السـنوى لولاية حلب وبعض الأطالس التركية عدا المصادر العربية الـكثيرة ، واستعنا بمن نعرفهم من أفاضل الأتراك والسوريين . وأكبر ظننا أن الاسم الذى أثبتناه هنا هو الاسم الصحيح (المعرب)

ذلك العالم الخبير بفنون الحرب حين رأى أن عدوه قد أبى أن يعمل ما يجب عليه أن يعمله . ولا شك فى أنه كان يعتقد أن أمثال ماكماهون Mac Mahon وبازين Bazaine [١] ممن يتمسكون بالقواعد والأصول ، خير من رجال كإبراهيم أو سليمان باشا يضعون قواعدهم لأنفسهم .

وما أسفر صبح اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيه حتى بدأت المعركة بهجوم المصريين . وكان جل اعتماد الأتراك على فرسانهم لأنهم ظنوا أن طبيعة الأرض تحتم عليهم اتباع هـذه الخطة الحربية . وقد يكونون مصيبين فى ظنهم لأننا لا ندعى لأنفسنا تلك الخبرة بالفنون العسكرية التى تمكننا من أن نبدى رأيا فى هذا الموضوع . وكل الذى يعنينا هنا هو أن مشاة المصريين صدوا هجوم الفرسان العثمانيين ، فولى هؤلاء الفرسان الأدبار لا يلوى آخرهم على أولهم . وعندئذ وقع الاضطراب فى صفوف الجيش العثمانى كله ، فتضعضعت أركانه ولم تأت الساعة التاسعة حتى كان إبراهيم سيد الميدان غير المنازع .

وأقبل إبرهيم على خيمة حافظ باشا . وقد وصفها فنترنيه وصفاً لا نعتقد أنه كان جادا فيه ؛ لأنه قال « إنها كانت واسعة الأرجاء كأنها قصر مشيد ، مزخرفة كأنها حجرة استقبال لأحد الأباطرة العظام ، يبهر الرائى جلالها وعظمتها » [٢] . يبدو على هذا القول كثير من المبالغة ، ولـكن الذى لا شك فيه أنه كان فى هذه الخيمة المزخرفة أريكة من الأرائك التركية المطعمة بالصدف ، البعيدة عن الذوق والجمال الفنى بعدها عن النفع ، ثمنها عظيم ولـكن الجالس عليها فى عناء ممن . وقد ترك بعضهم على هذه الأريكة أوسمة حافظ باشا ورسائله .

(١) قائدان من قواد الحرب الفرنسية الألمانية (١٨٧٠ — ١٨٧١) هزمهما الجيش الألمانى فى هذه الحرب . (المعرب)

(٢) فنترنيه فى كتابه السالف الذكر ص ٣٣٠ .

فلما دخل إبراهيم هذا المسكن المؤقت المترف ، الذى لا نشك فى أن ثون ملتكه كان يعده مخالفا للسطرين الثالث والرابع من الفقرة التاسعة من القسم الرابع عشر من المادة الثانية عشرة بعد المائتين من القواعد الخاصة بنظام الجيوش فى الميدان ، كان يكسوه العثير ويتصبب من جبينه العرق . ولما رأى هذه الأبهة الكاذبة تبسم ابتسامة ملؤها السخرية والازدراء ، ومشى من فوره إلى الأريكة غير حافل بالأوسمة التى لم تكن لها قيمة فى نظره ، لأنه أكبر من أن يهتم بهذه الصغائر . ولكن الوثائق المتروكة وما قد يكون فيها من أمور ذات بال استرعت نظره ، فوقف يفحصها ؛ وإذا به يجد فيها فرمانا يعين حافظا باشا واليا على مصر بدل والده[1] . فأمر أن يعنى بفحص الأوراق الباقية عساه أن يجد فيها من المعلومات ماله قيمة حربية . وبعد أن وكل هذه الأمور إلى من يعنى بها ، أرسل الفرسان المصريين لمطاردة الأتراك الفارين ، وأعد العدة لمواصلة الزحف على مرعش وملطيه وديار بكر .

ويقول لنا القنصل اليونانى العام فى تقريره المرسل إلى أثينا إن إبراهيم كتب إلى محمد على من خيمة حافظ باشا نفسه ينبئه بهزيمة الأتراك ، وأن الموقعة لم تدم أكثر من ساعتين ، وأن البشير وصل بهذا النبأ السار إلى القاهرة فى اليوم الثالث من شهر يوليه[2] ؛ ومنها أرسل بالبرق إلى الإسكندرية حيث كان الباشا مقيما فى ذلك الوقت[3] . وجاء فى تقرير قنصلى آخر أن مدافع الجيش

(١) مصر فى القرن التاسع عشر تأليف إدورد جون طبعه فى باريس بوازار ص ٤٥٤ ؛ والكتاب مترجم إلى العربية بقلم الأستاذ محمد مسعود . (المعرب)

(٢) فى الأصل الإنجليزى ٣ يونيه ولقد استنتجنا من أول الأمر أنه ٣ يوليه ثم رجعنا إلى المصدر الذى اعتمد عليه المؤلف وهو كتاب « النزاع بين تركيا ومصر » فوجدنا تسنزا يقول بصريح العبارة إن الأخبار وصلت إلى الاسكندرية من القاهرة بطريق البرق فى ٣ يوليه ثم تأيد النبأ فى المساء بخطاب جاء بالبريد . (المعرب)

(٣) پوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٧٠ .

لم تطلق أكثر من ساعة ونصف ساعة ، وأن الأتراك زلزلت أقدامهم فجأة ، فطارت قلوبهم وولوا مدبرين ، وأنهم خسروا خمسة آلاف قتيل ونحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف أسير ، أما عدد الجرحى فلم يرد له ذكر فى هذا التقرير[1] .

ولم يعش السلطان محمود حتى يعرف نتيجة مغامرته العظيمة ضد أعظم أتباعه وأشدهم بطشا ، بل وافته المنية بعد يومين من واقعة نصيبين ، وقبل أن يصل نبأ هذه الطامة التى حلت بالجيش التركى إلى الآستانة . ويقول الفيكونت پنسنبى فى موته : « لا شك فى أن العلة كانت قد نشرت جناحيها عليه منذ شهور ، وأنه لم يحس بوطأتها فظل يعمل كل ما من شأنه أن يعجل يوم حمامه » .

وماذا كانت علة السلطان يا ترى ؟ لقد اختلف الأطباء فى تشخيص مرض عليلهم الكبير ، فأما الطبيب الإنجليزى الدكتور ماچن Dr Milligen الذى عرض عليه فقال إن محمودا قضى نحبه بسبب اضطراب فى المخ ناتج من إدمان المسكرات ؛ وقال الدكتور نونر Dr Neuner الذى كان يعالجه إنه مات بذات الصــدر ، ووافق الحكيم باشى التركى كبير أطباء القصر على رأى الطبيب البريطانى »[2] .

ويذكرنا هذا الجدل بالجدل الذى ثار منذ أربعين عاما أو نحوها حول موت القيصر فردريك الثالث Kaiser Frederick III ؛ والفرق بين الحالين أنه لم يوجد وقتئذ لسوء الحظ إلى جانب السر مرل مكنزى Sir morell Mackenzie طبيب تركى يفصل بين الآراء المختلفة . والآن فلنعد إلى محمود لنقول إننا صورناه فى صورة رجل جبان متردد لا يثبت على حال . ولربما كنا قد ظلمناه حين صورناه بهذه الصورة ، وحين نقلنا رأى الدكتور ماچن فى مرضه ، ولذلك وجب علينا

(١) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٧٢ .
(٢) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٣٠٦ وما بعدها

أن نبادر إلى القول بأن السفير البريطانى فى بلاطه قد كتب فيه يقول :

« يدهش الإنسان من شدة الحزن عليه ومن كثرة من أسفوا لموته . ولما كان الناس لا يتملقون الرجل إذا مات وأصبحوا لا يرجون ثوابه أو يخافون عقابه ، فإننا لا نخطئ إذا اعتقدنا أن الرجل الذى حزن عليه الناس هذا الحزن بعد مماته ، كان فى حياته موضع إجلالهم »(١) .

وأراد الله أن لا يأسى لهزيمة الأتراك المنكرة قلب آخر هو قلب السيدة هستر لوسى استانهوب Hester Lucy Stanhope ، فقد وافاها القدر بينما كان الجيشان يتحفزان للهجوم . وأكبر ظننا أنها لو لم تعاجلها منيتها لأوقفت إنجلترا موقف العداء الشديد من أغراض محمد على . وإن كانت حكومات أوربا لم تكن فى حاجة إلى جرأة امرأة باسلة لتحفزهن للضغط على الباشا ، إلا فرنسا التى وقفت منه موقف الصديق ، حتى قال بعض المؤرخين إن باريس أرادت أن تستغل هذه الصداقة . وسواء أكان ذلك أم لم يكن ، فإن وزارة الخارجية الفرنسية ما كادت تسمع بأن موقعة نصيبين قد أبادت قوة الأتراك الحربية ، حتى أرسلت من فورها رسولا هو الكبتن كييه Captain Caillé إلى المعسكر المصرى . ولم يقف إبراهيم مكتوف اليدين بعد أن أباد جيش حافظ باشا ؛ وذلك أنه عثر على خطة العدو الحربيـة فوجدها مقسمة تسعة أقسام ، جاء فى القسم السابع منها بصريح العبارة أن الاستيلاء على مصر يجب أن يكون الفرض الثانى من أغراض الأتراك . فلما أيقن إبراهيم أن السلطان كان ينوى أن يجعل هذه الحرب ساحقة ماحقة ، زال ما عسى أن يكون لديه من أثر للتردد فى مواصلة

(١) تاريخ الثورة المصرية تأليف ا . ا . پيتن طبعة تربنر وشركائه بلندن سنة ١٨٦٣ ص ١٣٥ .

الزحف . وكان من أول أعماله أن استرد عينتاب ؛ وكان مفتى هـذه البلدة من أولئك الزعماء المسلمين الذين اتهموا إبراهيم بأنه رافضى ، وأذاعوا هـذه التهمة فى طول البلاد وعرضها ، وجاهر بانضمامه إلى الأتراك . فلما هزمت الجيوش الشاهانية أراد أن يتظاهر بالانتصار للمصريين ؛ ولكن عيون إبراهيم لم تكن تخفى عليهم خافية ، فلقيت هذه الخديعة ما تستحقه من العقاب . ولما حضر بين يديه قال له إبراهيم : « لقـد اتهمتنى بالزندقة ونسيت أنى أنا الذى فتحت الكعبة للمسلمين الصادقين ، حتى صار فى استطاعة أية امرأة أن تحج بيت الله بمفردها . ألا ترى أنك قد ظلمتنى ظلماً بيناً حين رميتنى بالزندقة مع علمك أنى أنا حامى الحرمين الشريفين ؟ إنك لخنزير تسعى إلى إيقاظ الفتنة والعمل على خراب بلاد الإسلام »[١] ، ولم يقل لنا بعـد ذلك كدلفين وبرو اللذان يقصان هذه القصة هل عوقب المفتى أو عفى عنه ؟

ولم تكن سرعة إبراهيم فى زحفه لتمنع الكپتن كيبه رسول الحكومة الفرنسية من أن يلحق به بعد زمن قصير . وكان هـذا الضابط قد وصل إلى الإسكندرية قبل أن تبلغها أخبار واقعة نصيبين ، ولكن بعد أن أيقن كل الناس أن التحام الجيشين أصبح لا مندوحة عنه . وكان يحمل معه رسائل من رئيس الوزارة الفرنسية المارشال سولت Marshal Soult ، نص فيها صراحة على أن الدول الخمس قد قررت أن تتـدخل فى النزاع ، وأن تقف الأعمال الحربية إذا كانت قد بدأت بالفعل[٢] . وقد حصل هذا الرسول على خطاب من محمد على لإبراهيم أسرع به إلى بلاد الشام ؛ فلحق القائد المظفر فى ٢٩ يونيـه وقت

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ٢٨١ .
(٢) پولتس فى كتابه السالف الذكر ص ٦٣ .

أن كان الجيش يحط رحاله ليقضى الليلة عند أنج صو .

ورحب إبراهيم بكييه وأكرم مثواه ، لأن الكرم غريزة متأصلة فى نفس كل شرقى . وضاعف من إكرام إبراهيم له وتحفيه به ، أن كييه أكد له أنه قد سافر ليلاً ونهارًا ، لكى يكون أول ممثل أجنبى يقدم إليه التهانى ؛ وبقى برهة من الزمن لا يقول فى خلالها لإبراهيم شيئاً يثبط من عزيمته ، ويقلل من حماسه ، حتى إذا ما انتقل الحديث إلى حركات الأساطيل الأوربية وسئل كييه عنها قال : « إنى أحمل إليك خطابا من أبيك » . وسر إبراهيم حين سمع بهذا النبأ ، ففض خاتم الرسالة من فوره . وما كان أشد أسفه إذ قرأ فيها أمرا من أبيه بوقف تقدم الجنود . فلما تبين ذلك له قال غاضباً : « هذا محال ؛ لقد كتب هذا الخطاب قبل أن ننال النصر فى نصيبين . إن هذه الواقعة وما سبقها من تحرش بنا يبطلان هذه الأوامر ؛ ولذلك لن أعمل بها وسأتحمل تبعة عصيانها » .

ويؤسفنا أننا لم نجد خطاب محمد على ؛ ولكننا نستطيع أن نتبين روح هذا الخطاب بوجه عام من جواب إبراهيم عنه ، فقد كتب هذا الرد فى صورة الغائب وبدأه بقوله :

« هذا ما يعرضه عليكم خادمكم الخاضع :

« لقد علم ما أصدره إليه ولىّ نعمته ، أى سموكم ، من الأوامر التى احتواها هذا الخطاب المؤرخ ١٦ يونيه . وقد حمل إليه هذا الخطاب المسيو كييه ياور رئيس مجلس الوزراء الفرنسى سعادة المارشال سوات المعظم » .

وبعد أن شرح بالتفصيل تحرش حافظ باشا به قال إن الجيش بعد موقعة نصيبين لا يسعه إلا أن يواصل الزحف أو يتقهقر ، لأنه لا يستطيع أن يجد المؤن حيث هو ثم قال :

« وهل سمع أحد من الناس أن جيشاً ظافرا يتقهقر ؟ أما إذا واصل الجيش الزحف فإنه يجد الأرزاق مكفولة . وما دام التقهقر أمراً لا يمكن التفكير فيه فقد أصبحت مرعش وبيره جك مقصد قوات سموكم ، لأننا نستطيع أن نجد فيهما حاجتنا ؛ ولهذه الأسباب فنحن مضطرون إلى الزحف على أورفه ومرعش ، وأرجو أن يترك للسلطة المختصة أن تقرر هى حركات الجيش المستقبلة »(١) .

ويقول ڤنترنييه إن إبراهيم لما قرأ رسالة محمد على غضب أشد الغضب « ولم يرع حرمة أبيه ولا حرمة فرنسا ولا حرمة الرسول »(٢) ، لكن مؤرخ سليمان باشا لم يستق معلوماته من أصولها ، بل أخذ معظم ما كتب عن كتاب كدلڤين وبرو المسمى « سنتان من تاريخ المشرق » والذى نشر فى عام ١٨٤٠ ونقلنا عنه كثيرا فى هـذا الكتاب . وهذان المؤلفان المعاصران لا يقولان إن إبراهيم « لم يرع حرمة أبيه ولا حرمة فرنسا ولا حرمة الرسول » بل كل ما يؤكدانه هو الفقرة التى نقلناها . على أننا لا نشك فى أنه قد تأثر غاية التأثر ، لأن خطابه إلى محمد على يوضح ذلك كل الوضوح . غير أن حبه لأبيه وإجلاله إياه ، كانا متأصلين فى طبعه ، متمكنين من نفسه ، بدرجة تجعلنا لا نصدق أنه حتى فى ساعة غضبه وألمه لم يحترم أباه .

قد نسلم بأنه سب فرنسا وكبتن كبيه ، بل نذهب إلى أبعـد من ذلك إذ نميل إلى الاعتقاد بأنه قد صب جام غضبه على فرنسا وأفرغ عليها كل ما فى

(١) العبارة فى الأصل الإنجليزى مضطربة وقد ذكرت فيها متش بدل مرعش ولذلك رجعنا إلى الأصل التركى وإلى الترجمة الفرنسية له فى كتاب كدلڤين وبرو وقد ذكرت فيه بيله جك بدل بيره جك مع أن الأولى قرب بروصة ولاشأن لها بهذه المواقع . أما الثانية التى تسمى أحيانا « البيرة » فواقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات وهى المقصودة هنا من غير شك .

(٢) ڤنترنييه فى كتابه السالف الذكر ص ٣١٠ .

نفسه من ألم . وحاول كيبه أن يجادل إبراهيم ليقنعه ، فأكد له معارضة أوربا في قيام الحرب ، وأشار إلى أوامر محمد على ، وإلى تدخل الدول العظمى الذى لا بد منه . ولكن القائد أبى أن يستمع إلى هذه الحجج ، وأجابه بقوله :

« لقد درستَ التاريخ أليس كذلك ؟ فهل سمعت مرة أن قائداً منتصراً وقف عن مواصلة زحفه ؟ إن كنت أنت قد سمعت بذلك فأنا لم أسمع به »

ولكن ذلك لم يفت فى عضد كيبه ، بل أصر على أن تُغَيِّر القوتان الزاحفتان على ملطية وقونية اتجاههما ، وأن لا تعبرا جبال طوروس . لكن إبراهيم رفض هذا الاقتراح ، بحجة أنه لابد له من أن يمنع الأتراك من إعداد جيش جديد لغزو الأملاك المصرية ، وأن يضمن لجنوده مؤونتهم . ولكن الفرنسى رغم هذا كله لم يتحول عن موقفه ؛ ولما ألح على إبراهيم قال له مغضباً :

« إنى على استعداد لأن أتخلى لك عن قيادة جيشى وأسلمك ما معى من النقود لأنى لست فى حاجة إلى الأراضى ؛ وإذا استطعت بعد ذلك أن تحتفظ بالشام وتمون جنودى فذلك ما أبغى . إنى لن أترك بلاد الشام ، ولابد لى من أن أطعم رجالى » .

ودامت هذه المقابلة خمس ساعات . وإذا كان إبراهيم قبل ختامها قد أغلظ فى القول لهذا الرسول الملحف ، فلا لوم عليه فى ذلك ؛ لأنك قل أن تجد من القواد من يضيع من وقته خمس ساعات يستمع فيها رسالة هو غير راض عنها . وبعد ذلك كله لم ييأس كيبه من بلوغ غرضه ، فاستأذن على إبراهيم فى مطلع فجر اليوم التالى بينما كان الجنود يقتلعون خيامهم . وكانت خيمة إبراهيم قد جردت مما فيها ، ووقف حرسه وحصانه فى انتظاره ؛ فقابل الرسول الفرنسى مقابلة فاترة . ومع أن الخيمة كانت خالية من الكراسى والمقاعد ، فقد وقف كيبه على

الأرض وأطلق للسانه العنان ، حتى قال له إبراهيم آخر الأمر « لست أريد أن أدعوك إلى الخروج ، ولكننى أقول لك إنك إذا ظللت تتحدث إلىّ عشر سنين طويلة فلن تستطيع أن تحولنى عن رأيى » . وهنا قدر إبراهيم فأخطأ التقدير ، لأنه بقوله هـذا كان يحكم على المستقبل . لقد كان صائب المنطق طالما كان يتكلم عن الماضى و يصرف أمور الزمن الحاضر ، لكنه عندما تخطى الحاضر إلى المستقبل لم يأمن الزلل . ولم يخف ذلك على كيبه بل عرفه ودبر فى ظلام الليل تدبيراً جديداً ، إذ اعتزم أن تكون رغبات محمد على هى المحور الذى يَدُور عليه كل حديثه ، وأن لا يذكر شيئاً عن الدول إلا النزر اليسير .

ولم يكن فى مقدور إبراهيم أن يتغلب على هذه الخطة ، لأن حبه لأبيه لم يكن حبًّا عاديا ؛ وإنما كان شغفاً بل تيماً بل ديناً ، ولم يكن يستطيع أن يسلك سبيلا قد لا يرضى عنها محمد على ، وما كان هذا خوفاً منه بل لحب فيه . ولهذا انحلت عرى مقاومته وهو واقف على قدميه وحصانه المحبوب يبحث الأرض برجله على قيد بضع خطوات منه . وعندئذ أجاب كيبه إلى ما طلب ، ورضى أن لا يعبر جبال طوروس ، وأن تقتصر أعماله الحربيـة على احتلال مرعش وأورفه ، وهما نقطتان لا غنى عنهما لضمان تموين جيشه . ولم يتحرك من مكانه حتى أمر أن يرسل رسول ليلحق طلائع جنوده ويقف زحفهم [1] . فعل ذلك إبراهيم وهو آسف كل الأسف على ما فعل . فعله فى ساعة نصره المبين لأنه لم يشأ أن يسبب المتاعب لأبيه .

---

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ٢٨٢ .

الفصل السابع عشر

السلطان الجديد

لما مات السلطان محمود تغير بموته مجرى حوادث المسألة المصرية . وقد خلفه على العرش عبد المجيد ابنه الحادى والعشرون ، وكان لا يزال شابا لم يكمل السابعة عشرة من عمره . وقد أشرفت على تعليمه وتربيته والدته ، وهى جارية كرجية تسمى بزم عالم (بهجة العالم) ، كانت أهديت إلى أبيه . ولما لم يكن لها ابن سواه فقد كانت شديدة التعلق به ؛ و بسبب ما كان لها من نفوذ اختير لمنصب الصدارة خسرو باشا عدو محمد على الألد ؛ واختار خسرو خليلا باشا ليكون سر عسكر الجيش التركى (١) .

وانتهزت الوزارة فرصة تولية السلطان الجديد فأمرت بوقف القتال . ولكن خسرو باشا لم يكن كيسا لبقا فى خطابه الذى كتبه بذلك إلى محمد على . لقد كان خليقاً بالصدر الأعظم أن يعرف أن العداوة مستحكمة بينه و بين محمد على ، وأن وجوده فى الباب العالى من شأنه أن يجعل عودة السلام بين البلدين من أصعب الأمور ؛ لأنك إذا طلبت إلى الرجل السياسى أن يمحو شخصيته و يضحى بها على مذبح الوطنية ، فقد طلبت إليه أمرا عسيرا . لكن خسرو لم يفكر فى ذلك بل بادر إلى إرسال خطاب إلى مصر جاء فيه ما يلى :

قلت فى خطابى الذى أرسلته إلى سموكم منذ بضعة أيام ، إن مولانا المعظم

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ٢ ص ١٤٨ .

السلطان عبد المجيد خان الأفخم لم يكد يجلس على عرش السلطنة ، الذى شاءت إرادة الله أن يخلو من الجالس عليه ، حتى تحركت فيه بواعث العدل والحكمة اللتين أنعم الله بهما عليه ، فقال منذ الساعة الأولى لتوليته :

« لقد غيرت بعض الأعمال التى أتاها محمد على باشا والى مصر قلب والدنا صاحب الذكرى المجيدة ؛ فوقعت على أثر ذلك أمور وحوادث عدة . ولكننى لشدة حرصى على خير الشعوب التى وضعتها العناية الإلهية تحت سيطرتى ورفاهيتها ، ولرغبتى فى حقن دماء المسلمين من أن يراق منها شىء بعد الآن ، فإنى على استعداد لأن أمحو من ذاكرتى أحداث الماضى ، وأعفو عن هذا الوالى بشرط أن يقدم لى خضوعه التام . وسأنعم عليه بوسام كسائر وزرائى ، وأمنحه حكم مصر ، وأجعل لابنه حق وراثته من بعده .

« ولقد اختارنى جلالة السلطان صدرا أعظم له مع حقارة شأنى »[(١)] .

ولم يكن فى هـذا الخطاب ما يتفق مع آراء محمد على إلا عبارته الأخيرة ، أما بقية ما جاء فيه فلم يلق منه إلا ازدراء . ولو أن خسرو باشا أجهد فكره لكى يجمع أكبر عدد يستطيعه من الأغلاط ، ويحشرها حشراً فى بضعة أسطر ، لما استطاع أن يخترع أكثر ولا أشنع مما زج به فى هذه العبارة القصيرة . ولم يشر خسرو فى خطابه إلى الاستقلال ، ولكنه قبل فيه مبدأ وراثة العرش . وكان محمد على قبيل الحروب الأخيرة ، أى فى ١٥ مايو سنة ١٨٣٩ ، قد أخبر المسيو كوشليه Cochelet القنصل الفرنسى العام أنه لم يعد يصر على الاستقلال ، وأنه يرضى بالصلح إذا اعترف بحق وراثة أبنائه له[(٢)] . ولو أن الصدر الأعظم لم يكن

(١) المصدر عينه جزء ٢ ص ١٣٢ .
(٢) پولينس فى كتابه السالف الذكر ص ٥٩ من المقدمة .

مفلاطاً بطبعه ، لاستطاع أن يكسب رضاء الباشا بهذا الاقتراح الذى عرضه عليه ، لكنه لم يكسبه ورد عليه محمد على فى ١٥ يوليه سنة ١٨٣٩ يقول :

« تشرفت بخطاب سعادتكم الذى تبلغوننى فيه أن صاحب الجلالة الشاهانية مولانا المعظم السلطان عبد المجيد قد جلس على سرير الملك الذى شاءت الإرادة الإلهية أن يخلو من صاحبه ، وأن جلالته قد عفا عنى وأنعم علىّ بالوسام الذى أنعم به على سائر الوزراء ، وأنه يعترف بحق أولادى فى وراثة عرش مصر ، وأن الأوامر قد صدرت إلى حافظ باشا بأن يقف زحفه ، وأن عاكف أفندى أرسل إلىّ ليقنعنى بأن الضرورة تقضى علينا بأن نحتفظ بالوحدة الإسلامية خالصة من كل الشوائب .

« فاسمحوا لى أن أؤكد لكم أن أول ما أعنى به هو أن أعبر عن رجائى فى أن يحقق الله آمال مولانا الأعظم وولى نعمتنا ورئيس دولتنا ، وأن يمد الله على الخافقين ظل رعايته . . . ولكن خطاب سعادتكم لا يذكر شيئاً غير مصر ، كما أن عاكف أفندى يقول إن التفويض الذى بيده مقصور عليها ، ولا يجيز له التحدث فى التخلى عن غيرها من الولايات لى ولأولادى من بعدى . ولذلك فإنى لا أستطيع قبول مقترحاتكم ، كما أنه لا فائدة ترجى من بقاء رسولكم هنا ، ولهذا يستحسن أن يغادر البلاد ، لأنه يرى من المصلحة أن يبلغ سعادتكم شفويا أموراً قد يكون من الخير أن يبلغكم إياها [1] »

ذلك هو رد محمد على الرسمى على جواب خسرو . لكنه أرسل فوق ذلك إلى الصدر الأعظم خطاباً خاصا قال فيه : « إما أن تغير عواطفك نحونا وإما أن تستقيل [2] » . ولما كان يعرف أن السلطانة الوالدة هى حاكمة تركيا الحقيقية ،

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ٢ ص ١٧٣ .
(٢) المصدر عينه جزء ٢ ص ١٧٥ .

كتب إليها رسالة يطلب إليها أن تعزل خسرو من منصبه . أما الصدر الأعظم فلربما كان من أولئك الذين لا يعرفون كيف يكتبون رسالة ، ولكنه كان من ذلك الصنف من الموظفين الذين قال فيهم تومس جفرسن Thomas Jefferson صاحب إعلان الاستقلال الأمريكي « قليل منهم من يموت وليس منهم من يستقيل » . وإنك لتجد كثيراً من الأتراك يعوزهم الذكاء[1] ولكنك لا تجد من بينهم الجبان الرعديد . ولذلك ثبت خسرو فى مكانه وأخذ يدس الدسائس بنفسه .

وبدأ عمله بزيارة أمير البحر روسن ، الدبلوماسى الفرنسى البحار ، الذى كان لا يزال سفيراً لفرنسا فى الآستانة ؛ وسأله هل يقبل منه فى الحقيبة السياسية الفرنسية المرسلة إلى مصر أربعة خطابات يبعث بها إلى أربعة من الضباط الأتراك فى الأسطول العثمانى الراسى فى الإسكندرية . ولما كان البحارة على استعداد دائم لأن يجاملوا أبناء مهنتهم ، فقد قبل روسن فى هذه المرة الخطابات المختومة دون أن يفطن إلى أن ما ينقل فى الحقيبة يجب أن يكون على الدوام غير مختوم ، وإن كانت الحقيبة يرسل فيها ما لا يحصى من الأشياء ، لا فرق بين أصباغ الشفاه وأدوات المائدة ، فضلا عن المراسلات السرية . ولم يفطن أيضاً إلى أنه قد تكون لدى خسرو أسباب خاصة هى التى جعلته يبعث إلى هؤلاء الرجال الأربعة برسائل سرية .

وكان الأسطول الذى يعمل فيـــه هؤلاء الضباط الأربعة قد أرسل إلى الإسكندرية ليدك هذا الثغر بمدافعه . فلما علم القبطان باشا قائد الحملة بوفاة السلطان محمود ، وجاءته أوامر جـديدة معدلة لأوامره الأولى ، ارتاب

(١) هكذا يقول المؤلف ولكن اعتقادنا أن الأتراك لا يقلون ذكاء عن غيرهم من الشعوب . (المعرب)

فى الأمر « فجمع ضباطه » كما يقول ددول « Dodwell » وأكد لهم أن خسرو يريد أن يسلم الأسطول إلى الروسيين ، وأن خيراً لهم والحالة هذه أن ينضموا إلى محمد على . فوافقوا على ذلك بالإجماع(١) .

وهكذا بقى القبطان باشا وضباطه فى الإسكندرية ليعاونوا بمدافعهم محمداً عليا ، لا ليضربوا بها هذا الثغر . وقد أرسل الصدر الأعظم خطاباته السرية لتحريض الضباط الذين خانوا تركيا على الغدر بقائدهم . ووصلت الرسائل الأربع المختومة إلى الإسكندرية فى الرابع والعشرين من شهر يوليه سنة ١٨٣٩ . ولما فتح القنصل الفرنسى الحقيبة السياسية وجد فيها الرسائل ، ولكنه لم يجد ما يدل على سبب إرسالها . واتفق أن كان على موعد فى السراى فى صباح ذلك اليوم ، ولكنه وصل إليها قبل الوقت المحدد ، فجلس ينتظر دوره ، وذكر عرضاً إلى أرتين بك أحد رجال الحاشية أن الخطابات الأربعة معه ، وأنه سيعطيها إلى أصحابها عقب خروجه من السراى مباشرة .

وكان أرتين رجلاً أرمنيًا يقظاً أميناً ، فترك القنصل فى حجرة الانتظار وأبلغ الباشا أمر الخطابات . فلما أذن للمسيو كوشليه بالمثول بين يدى الوالى بادره محمد على وعلى ثغره ابتسامته الساحرة قائلاً : « أين تلك الخطابات التى جاءتك من الآستانة ؟ هل تسمح لى بأن أراها ؟ لست أظنك ترفض » . وكان محمد على قد قال قوله عرضاً وبسلامة قلب ، فلم يتردد القنصل الفرنسى فى إبراز المظاريف الأربعة وقال :

« إن هؤلاء الرجال ليسوا فى الميناء الداخلى الآن ، وسأكون شاكراً لكم كل الشكر إذا مكنتمونى سموكم من أن أوصل هذه الخطابات إليهم » . فأجاب

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١٧٥ .

الباشا دون أن تفارقه بشاشته طوال هذا الحديث : « إذا كان هـذا يسركم فإنى لا شك فاعله ؛ وسأحمل الخطابات إليهم بنفسى إذا دعت الضرورة » . وما كان أشد دهشة المسيو كوشليه وذعره حين تناول الوالى منه المظاريف وفض أختامها الأربعة وهو يقول « ولـكنها مختومة » . وسرعان ما عاد إلى القنصل هدوءه فاحتج بشدة على ما فعله الوالى ؛ ولـكن محمداً عليًا قال له : « لا تغضب إن هذه الخطابات ستصل إلى أصحابها آمنة ، كما لو كنت أنت الذى أوصلتها ؛ فاتركها وخذ من كاتبى إيصالاً بها » . وبعد أن قال ذلك أمر بها فقرئت عليه ، ورأى فيها دعوة من خسرو إلى الضباط البحريين أن يتركوا القبطان باشا ويهاجموا محمداً عليًا . وعند ذلك خارت عزيمة القنصل فلم يستطع أن يفعل شيئاً ، وإن كان قد ظل مغيظاً مغضباً ؛ كما أنه عجز حتى عن إبلاغ الأمر إلى وزارة الخارجية الفرنسية ، لأنه لو فعل لألحت هـذه الوزارة باللائمة على السفير روسن لسماحه بنقل رسالة مختومة فى الحقيبة السياسية إلى أشخاص لا علاقة لهم بخدمة وزارة الخارجية ، ولربما نال القنصل أيضاً بعض اللوم على الدور الذى اضطلع به فى هذه المسألة[1] .

وسر محمد على مما حدث فكتب إلى خسرو ينبئه أن سعيه قد أخفق ، وقال الباشا فى سياق تعليقه عليه : « لقد وصلت الخطابات الأربعة المرسلة من لخامتكم إلى أصحابها الضباط سالمة »[2] .

وقهقه الباشا ضاحكا من عجز القنصل الفرنسى ، لأنه كان يعلم أن كوشليه سيبقى مغلول اليدين . وسره أيضاً أن تكون له الغلبة على خسرو بهذه الطريقة الخفية . ولم يكتف محمد على بأن يخبر الصدر الأعظم بأنه أخفق فى سعيه للاستفادة

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ٢ ص ١٧٧ .
(٢) المصدر عينه جزء ٢ ص ١٨٠ .

من الحصانة التى تمتع بها الحقيبة السياسية ؛ بل أرسل منشورا إلى جميع وزراء السلطنة يستعين بهم على إبعاد خسرو ، قال لهم فيه إن أعماله قد أوقعت الإسلام فى أشد صنوف البلاء ، وإنه كان سبب جميع المصائب التى توالت على الدولة العثمانية منذ سنين .

وكان أول ما فكر فيه خسرو بعد هذا الهجوم هو مصالحه الخاصة ، فلما رأى أن محمداً عليًّا يعمل بكل جهده لإخراجه من منصبه ، اعتزم أن يحتفظ بمنصب الصدارة وأن تؤدى السلطنة ثمن احتفاظه به ؛ ولذلك استقر رأيه على أن يجيب الباشا إلى جميع مطالبه . ولم يكن الاستقلال واحدا من هذه المطالب ، بل كانت كلها تدور حول منحه حق توريث أبنائه حكم مصر والشام وجميع البلاد التى تسيطر عليها القوات المصرية . وبينما الصدر الأعظم يهنئ نفسه بأنه قد وجد حلا يمكنه من البقاء فى منصبه العالى ، إذا بالسفير النمساوى فى الآستانة يتلقى تعليمات من مترنيخ تغير مجرى الحوادث تغييرا تاما .

ذلك أن الحكومات الأوربية أوجست فى نفسها خيفة من وفاة السلطان محمود ، وهزيمة الجيوش التركية فى نصيبين ، ومطالب محمد على . وارتاع الساسة الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور فى لندن وباريس وبطرسبرج وويانة أشد الارتياع ، لأنهم لم يكونوا يعلمون بما كان فى ذمة المستقبل . وكان أخوف ما يخافه بلمرستون وسولت ومترنيخ أن يعتمد القيصر على معاهدة خونكار اسكله سى فيغزو تركيا بجنوده ويحتل شواطئ البسفور ؛ ومحا خوف المشاكل الروسية شخصية محمد على من عقول الساسة إلى حين .

وكتب كدلقين وبرو فى ذلك يقولان : « وكانت الظروف وقتئذ تدعو إلى اتخاذ قرار عاجل فى الموضوع . وسبقهم مترنيخ إلى العمل لأن المعلومات

وصلت إليه قبل غيره من الساسة ، وتهيأت له بذلك فرصة طيبة نادرة جديرة بمقامه وشهرته ، فاستطاع بما أوتيه من شعور بالتبعة أن يتولى الأمر بالنيابة عن أوربا ، ولكنه التزم فى عمله منتهى الحزم والفطنة »[١] .

وعارض مترنيخ فى النزول عن شىء إلى محمد على ؛ لأن الوزير النمساوى كان نصير الرجعية فكان لهذا السبب يقاوم أشد المقاومة محمداً عليًّا الذى يمثل قضية الحرية . واندفع بلمرستون إلى صفوف الرجعية لشدة كراهيته للروسيا ، ولأن بونسنبى سفيره فى الآستانة كان كما يقول ددول « مملوء القلب حقدا على الروسيا ، حتى أنه كان يشتم رائحة الدسائس الروسية فى كل أمر من الأمور ؛ وكان موقنا بصفة خاصة أن الباشا تحركه أيدى الروسيا ؛ واستطاع أن يبث هذه العقيدة فى نفس بلمرستون »[٢] ؛ وأما سولت الذى تجلت شجاعته الحربية فى أسترلتز Austerlitz « فان هذه الشجاعة لم تكن تظهر إلا إذا وقف أمام العدو » كما قال فيه أحد عارفيه . فهو جندى باسل ولكنه سياسى دجال ؛ ظلم محمداً عليًّا كما ظلم نابليون ؛ وخدع عاهله وغرر به خارج ميدان الحرب ، ثم سار على نفس الطريقة فى علاقته مع الوالى ، وإن لم يقف معه فى يوم من الأيام جنباً إلى جنب فى صفوف القتال .

ولو سمح لباترك كامبل Patrick Campbell بالبقاء فى الإسكندرية ، حيث كان يمثل بريطانيا منذ عام ١٨٣٣ لخفف من « حقد بنسبنى الشديد » لسعة علم هذا القنصل بدقائق المسألة المصرية ، ولما كان يشعر به نحو محمد على من إجلال وإخلاص . ولو لم يستسلم بلمرستون لمترنيخ لما تحول خسرو عن

(١) المصدر عينه جزء ٢ ص ١٨٢ .
(٢) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١٧٨ .

مقصده ، ولسلم لمحمد على بحق الوراثة الذى كان يطلبه . وكان كامبل « قد جرؤ على أن يعلن جهرة أن الدولة العثمانية تستعيد تقدمها ورخاءها إذا عزل خسرو من منصبه ، ودعى محمد على باشا ليعاون على إصلاح شأنها[1] » . لكن هذا الدبلوماسى الجرىء عزل عن منصبه بطريقة لا تليق بمثله ، فى الوقت الذى تعقدت فيه المشكلة المصرية إلى أقصى حدود التعقيد .

ولم تكن إقالة هذا السياسى متفقة مع التقاليد البريطانية ؛ لأن لندن قلما تبعد الرجل المقيم فى مكان الحادثات إذا أحست بأن أموراً سياسية ذات بال على وشك الوقوع . وأكبر ظننا أنه لو استبقى كامبل فى الإسكندرية ، وسمح له بالدفاع عن آرائه ، لما صارت خريطة شرق البحر الأبيض المتوسط إلى ما صارت إليه الآن . وإنا لنظن أن « روح » السيدة هسترلوسى استانهوب كانت لها يد فى استدعاء هذا الرجل ، وإن كنا لا نستطيع أن نؤيد هذا الظن بالدليل . وكل ما نستطيع أن نقوله إن اللورد بلمرستون كان رجلا حاد المزاج ، مندفعاً فى بعض الأحيان ، لا يأبى عليه طبعه أن يتأثر بسهام الرسائل التى تصوبها إليه حفيدة نبيل من نبلاء الإنجليز .

وكان من واجبات المستر كامبل أن ينظر فى ملتمس تاجرى حمص السالف الذكر ، والذى يطلبان فيه المال من ابنة أخت پت . ولما كانت مصر ولا تزال[2] بلداً خاضعاً لنظام الامتيازات أى أن القانون فيه شخصى لا أرضى ، فقد كانت السيدة هستر خاضعة لقضاء القنصلية البريطانية العامة بالإسكندرية . وأكبر ظننا أن كامبل بحث مطالب التاجرين ، ولربما أغضب بعمله السيدة هستر النبيلة نصيرة الدروز وعدوة إبراهيم السياسية . وأنت إذا أسأت إلى امرأة أو ظنت

(١) المصدر عينه ص ١٨٠ .
(٢) كان ذلك فى عام ١٩٣٥ . (المعرب)

هى أنك أسأت إليها ، كظمت غيظها وصبرت على موجدتها ولم تنسها .
ويقيننا أن ثمة علاقة بين معروض تاجرى حمص الذى يطالبان فيه السيدة هستر لوسى استانهوب بمبلغ ٥٢٠٠ ريال ، و بين عزل المستر كامبل واندفاع بلمرستون إلى تأييد برنامج مترنيخ . نعتقد ذلك ولكننا قد نكون مخطئين فى هذا الاعتقاد ؛ وسواء أصبنا فيه أو أخطأنا ، فإنا نعرف أن القنصل البريطانى العام بُلِّغ فى شهر سبتمبر سنة ١٨٣٩ « بعبارة موجزة خالية من المجاملة أن فى نية بلمرستون أن يشير باستدعائه من منصبه ، وأنه كان يفكر فى ذلك منذ عام(١) » .

وكأن الأقدار كانت تعمل على تعقيد المسألة المصرية و إقامة الصعاب فى وجه محمد على ؛ فخلف كامبل فى منصبه الكولونل هدچس Colonel Hodges الذى وصل إلى الإسكندرية فى ديسمبر سنة ١٨٣٩ . ولو كان هذا القنصل قد اتصف بما طبع عليه موظفو وزارة الخارجية البريطانية من النظر إلى الأمور نظرة شيئية غير شخصية ، وأوتى ما أوتى أبناء جنسه من اتساع الفكر ونفاذ البصيرة ، لتأثر بعدالة مطالب الباشا الأولى ، ولحمله هذا التأثر فى ظننا على الدفاع عن قضية التقدم والحرية ضد الرجعية . لكن القنصل الجديد كان كما قال ددول قولا أكيداً « حاد الطبع صخابا خصيما . وكانت فاتحة أعماله أن تنازع مع وكيل شركة النقل فى الإسكندرية لأنه فرض أجراً على رسائله إطاعة لأوامر مدير البريد العام ؛ وثنى بعد ذلك بأن اتخذ موضعاً لثقته نائب القنصلية ؛ وكان رجلا مفرطاً فى شهواته تماما ، جعل همه نقل الأحاديث التى من شأنها أن تثير غضب القنصل العام وناظر الخارجية . ثم أغضب بأعماله هيئة القناصل بأجمعها ؛ ولذلك رؤى من الحكمة إبعاده من الإسكندرية قبل أن يعاد فتح القنصلية العامة فى

(١) المصدر عينه فى نفس الصفحة .

سنة ١٨٤١ ، لكى تهدأ أعصابه فى جو هامبرج الهادئ المريح . ويلوح أن ما قام به من الخدمات فى أزمة عام ١٨٤٠ قد جوزى أحسن جزاء ، إذ سمح له بأن يحمل رتبة الفريق التركية[١] » .

وتم الاتفاق بين الدول على العهد الذى أراح بال خسرو ورفع عن عاتقه عبثه الثقيل فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٣٩ وقد جاء فيه :

« إن السفراء الخمسة[٢] الموقعين على هذا يهنئون أنفسهم ، إذ يعلنون إلى الباب العالى بناء على التعليمات التى تلقاها كل منهم من حكومته أن الاتفاق قد تم بين الدول الخمس على الأمور الخاصة بالمسألة الشرقية . وهم لذلك يرجون الباب العالى أن لا يتخذ فى المسألة قراراً حاسماً من غير موافقتهم[٣] » .

ومع أن هذه المذكرة قاطعة مؤكدة ، ومع أن ما جاء فيها من التأكيدات كان صريحاً لا يتطرق إليه الشك ، فإن ما كان لمحمد على فى نفس خسرو من احترام هو به خليق ، جعله يقول له فى رده على خطابه المؤرخ ١٥ يوليه ، والذى يرفض فيه رفضاً باتاً الاقتراحات المعروضة عليه من قبل الباب العالى :

« يحتوى رد سموكم على بعض عبارات اللوم ، كما أنكم تقولون فيه إن الخطاب الذى يحمله عاكف أفندى يشير إلى قصر مبدإ الوراثة على مصر وحدها ؟ وجوابى عن ذلك أنه إذا لم يكن هذا الخطاب أكثر صراحة مما هو ، فلأن هذه هى أول مرة تثار فيها هذه المسألة . ولقد بحثت الأمر مع الوزارة ، ثم عرضتها من جميع نواحيها على جلالة السلطان ، وكنت على وشك أن أبعث إليكم برسول ليفاوض سموكم فيها ، وإذا بسفراء الدول الخمس الكبرى يقدمون المذكرة

(١) المصدر عينه فى نفس الصفحة .
(٢) أضاف سفير بروسيا توقيعه إلى توقيعات ممثلى إنجلترا وفرنسا والروسيا والنمسا .
(٣) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ٢ ص ١٨٨ .

المشتركة المرسلة إليكم صورتها مع هذا . وسترون فى هذه المذكرة أن الدول تعد الآن مشروعا تسوى به المسألة تسوية نهائية . وإنى وإن كنت لا أقبل ، ولا أستطيع أن أقبل ، مبدأ تخويل هذه الدول حق التدخل فى العلاقات القائمة بين التابع ومتبوعه ، فقد بدا لى أن من الحكمة أن لا أخطو خطوة أخرى ما دامت الدول تتباحث الآن فى المسألة [1] » .

وعرف محمد على لساعته معنى هذا التدخل ؛ وهدته سعة حيلته التى لا تفارقه أبداً إلى وجوب الالتجاء بنفسه إلى السلطان ، فكتب فى اليوم الثانى من أغسطس سنة ١٨٣٩ خطاباً يدل على منتهى المهارة فى التعبير وصياغة الألفاظ . ولكن المسألة كانت قد خرجت عن دائرة الألفاظ والتعابير ، لأن عبد المجيد لم يكن أكثر من غلام يافع ؛ وحتى لو كان رجلا لما استطاع أن يكون له شىء من النفوذ ، لأن السياسة العليا قد نزلت إلى ميدان العمل ، وأبعدت من طريقها تلك الدمية التى وضعت على رأس الدولة العثمانية .

وأجاب محمد على القناصل الخمسة الذين ناصروا خسرو بقوله :

« إنى أعتقد أن الدول ستعاملنى بالعدل والإنصاف ، فإذا ما فعلت ذلك فلن أجد صعوبة ما فى قبول قرارهن . والحق أنى ليس لدى ما أقوله سوى كلمتين . إن الذى أريده هو « أن يعترف بحقوقى الوراثية فى سوريا ، (٢) وأن يعزل خسرو من منصبه [2] » .

ووثق الباشا أن أوربا ستنيله ما طلب ؛ وأخذت الصحافة الفرنسية تشد إزره ، لأن باريس لم تكن راضية كل الرضا عن الاتفاق الذى تم فى ٢٨ يوليه

(١) المصدر عينه جزء ٢ ص ٢٠٥ .
(٢) بولیتس فى كتابه السالف الذكر ص ٧١ من المقدمة .

سنة ١٨٣٩ ، وكانت تعتقد أن هذا الاتفاق شر من معاهدة خونكار اسكله سى لأن الثانية قد وضعت تركيا تحت إشراف روسيا ، أما هـذا الاتفاق الجديد فقد جعل السيادة على الدولة العثمانية لأوربا مجتمعة ؛ واعتقد الرأى العام الفرنسى أن وزارة الخارجية الفرنسية كانت قصيرة النظر . وقد أشار دبدور Debidour فى كتابه القيم الدقيق فى تاريخ أوربا السياسى إلى سبب موافقة إنجلترا وروسيا وبروسيا على مقترحات مترنيخ ، ثم قال بعد ذلك : « ولكن يحق لنا أن نسأل أنفسنا عن السبب الذى جعل فرنسا تبادر من غير تردد إلى الاشتراك مع أعدائها فى الضغط على أصدقائها » .

وقد يكون جواب هذا السؤال أن سولت كان صاحب السلطة فى ذلك الوقت ، وأنه كان ممن ينتهزون الفرص . ومهما تكن الأسباب التى دعت المارشال إلى توقيع الاتفاق المشترك ، فإنه لم يمض على توقيعه إلا القليل حتى اختلف فى الرأى مع بلمرستون ؛ وذلك لأنه هو كان لا يمانع فى أن تكون بلاد الشام من أملاك محمد على الوراثية ، وأما وزير الخارجية البريطانية فكان من رأيه إعادة هذه الولاية إلى تركيا . وبلغ القيصر نبأ هـذا الخلاف فرأى فيه وسيلة لبذر بذور الشقاق بين ملكة إنجلترا الشابة وملك فرنسا الكهل ؛ وأرسل لهذا الغرض رجلا سياسيا محنكا خبيراً بشؤون الشرق الأدنى هو البارون برونوف Brunow وزوده بالتعليمات اللازمة للعمل على كسب صداقة بلمرستون .

ولم يخف على مترنيخ ما عسى أن تتمخض عنه تلك الساعة من أمور جسام ؛ لكنه كان شديد الخوف من إحكام الصلات الودية بين إنجلترا الحرة وروسيا القيصرية ؛ لأنه كان يشعر أنه إذا نجح برونوف فى توثيق الصداقة بين الدولتين ، أضر ذلك بقضية الرجعية . ولذلك عزم على أن ينقض ما أجمعوا

عليه من قبل ، فاقترح أن يلغى اتفاق ٢٨ يوليه سنة ١٨٣٩ ، وأن يستبدل به اتفاق جـديد . فعرض على الدول مشروعا جديداً فى يوم ٢٠ نوفمبر سـنة ١٨٣٩ جاء فيه :

تبلغ مصر وتركيا :

(١) أن الدول لا تمانع فى أن يتم الاتفاق مباشرة بين الباب العالى ومحمد على .

(٢) أن الدول كلها تقف فى وجه إبراهيم إذا حاول الزحف[1] .

ولم يكد مترنيخ يلقى هذه القنبلة حتى قامت الصعاب فى وجه وزارة سولت . وتفصيل ذلك أن محمداً عليًا كان قد منح فرنسا كثيرا من المزايا التجارية ، وأصبح له فيها كثير من الأنصار . وساعد أدلف تيير Adolphe Thiers على تمكين حب محمد على فى قلوب الشعب ، وزيادة عدد أصدقائه ، إذ خيل إليه أن محمداً عليًا ونابليون قد شقا من نبعة واحدة . وكان يرى فى المسألة المصرية فرصة سنحت لفرنسا لتستعيد بها ما كان لها من المهابة والكلمة النافذة فى شؤون أوربا الغربية[2] . فأخذ يهاجم وزارة سولت بكل ما أوتى من قوة حتى أسقطها فى ١٣ يناير سنة ١٨٤٠ ، حينما قدمت حكومة ذلك الوقت مشروعا بتخصيص معاش للدوق ده نمور Duc de Nemours وهو الأمير الذى ورد ذكره من قبل ، والذى قلنا إنه رُشح لعرش بلاد اليونان قبل أن يخلق . وقبل أن يفوض لوى فليب الأمر إلى تيير بحث مع رئيس وزارته الجديد المسألة المصرية بحذافيرها ؛ وأيقنا بعد هذا البحث أنهما قد احتاطا لكل ما عساه أن ينشأ من المشاكل . وكان كلاهما راغبا فى أن يحتفظ بكيان الدولة العثمانية ، ولكنهما كانا فى الوقت نفسه

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) تيير والملكية الفرنسية تأليف جون م . س . أليسن طبعة كنستابل وشركائه ص ٢٦٧ .

يشعران بكثير من العطف على محمد على ، ويريان أن هذا العطف يتفق مع مصالح فرنسا ، وذلك لاعتقادها أن الإسكندرية أنسب مكان لإنشاء دائرة نفوذ فرنسية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط . وقد احتفاظا من التقرب الذى بدا بين إنجلترا وروسيا ، فاعتزما أن يمنعا الدولتين من التنكيل بالباشا (١) .

وكانت نتيجة كل هذه المماحكة والمناقرة ، وكل هذه المناورات الدبلوماسية ، أن ازداد محمد على استمسا كا بموقفه ؛ لأنه رأى أن الخلاف قد دب بين الدول الأوربية ، فأيقن أنه إذا لم تلن قناته وثبت فى موقفه فإن الدول لن تتفق على إخضاعه لما تريد قوة واقتدارا . ولكنه فاته أن بلمرستون قد اعتزم أن يبقيه مقيدا بأغلال التبعية التركية ، ولو أدى ذلك إلى انفراد إنجلترا بالعمل . ويقول فى ذلك جودلا Guedalla : « دع باريس تبدى ما تشاء من العطف على محمد على ، ودع نابليون السلام يجهر كما يشاء بإعجابه بإسكندر مصر الجديد (٢) » ثم ينقل عن بلمرستون قوله :

« ولكن هل يخاطران من أجل ذلك بحرب بحرية ؟ وأين يجدان السفن التى تضارع الأسطول البريطانى ، والتى يقفان بها فى وجهه وحده ، دع عنك الأسطول الروسى الذى لا بد أن ينضم إلينا إذا جد الجد ؟ وماذا يكون مصير الجزائر إذا اشتبكا فى حرب مع دولة تفوق فرنسا فى القوة البحرية ؟ وهل توقدان من أجل محمد على نار حرب أوربية عامة ؟ وماذا يرجوان من ذلك كله ؟ هل يستطيعان مساعدة محمد على بالزحف على نهر الرين ؟ وإذا ما فعلا ألا يرتدان مسرعين على أعقابهما ويعودان يضربان أصدريهما ؟ إنك لتسمع من الفرنسيين ألفاظاً ضخمة ولكنك . . . » (٣) .

(١) المصدر عينه ص ٢٧٩ .
(٢) لوى فليب ومحمد على .
(٣) بلمرستون تأليف جودلا ص ٢٢٤ .

وبينما كانت الصحافة الفرنسية تملأ أنهارها « بأضخم الألفاظ » كما قال بلمرستون ، كانت وزارة الخارجية الفرنسية ملتزمة غاية الحذر . وخير ما يدل على خطتها رسالتها إلى كوشليه التي تقول فيها :

« وحاذر حتى أن تشير على الوالى بصفة رسمية أن يسوى علاقته مع الباب العالى مباشرة ؛ لأن هـذه النصيحة ستثير فى إنجلترا معارضة ليس من المصلحة إثارتها ؛ وحسبنا أن نفهم محمداً عليًّا مبلغ ما يستفيده إذا مهد السبيل للجهود التى يبذلها أولئك الذين يعملون لكسب عطف الباب العالى عليه » .

وأتت فترة من الزمن لاح فيها أن هذه الخطة ستثمر الثمرة المرجوة . وذلك أن خسرو باشا أرغم على الاستقالة فى شهر يونيه ؛ ولكن تبين بعد ذلك أن بلمرستون ليس بالرجل الذى يتضعضع أمام هذه الخطط . ولقد رأى هذا السياسى أن معنى هذه الاستقالة رجحان كفة فرنسا ، فقابل هـذه الحركة بالاتفاق مع الروسيا والنمسا وبروسيا على معاهدة سميت بمعاهدة لندن ، وقعتها هـذه الدول فى ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ ، ونص فيها على أن تكون باشوية مصر وراثية فى ذرية محمد على ، وأن تبقى الشام له مدى الحياة ؛ فإذا لم يقبل ذلك فى خلال عشرة أيام ، أعطى مصر وحدها ؛ وإذا رفض بعد ذلك ضربت الدول الأربع الحصار عليه ؛ فإذا زحف على الآستانة اشتركت الدول فى مساعدة السلطان على الدفاع عنها .

الفصل الثامن عشر

الخاتمـــة

ثار تيير عند ما سمع بهذا الاتفاق لأنه رآه ماسا بكرامته . لقد كان هـذا الرجل الصغير الجسم الكبير الرأس وضيع الأصل كبير المطامع فى الهيئة الاجتماعية ؛ و بعبارة أخرى كان هذا الرجل يدفع بنفسه إلى الأمام على الدوام ، وكان فى الوقت عينه شديد الحساسية . لـكن الوطنية كانت أهم صفاته ؛ وكان هو السياسى الذى تملأه فعلة بالمرستون غيظاً وحقداً . كيف لا وقد أهملت فرنسا فى هـذا الاتفاق الإهمال كله ، وعوملت كأنها لا وجود لهـا بين الدول ؟ ورأى فيه تيير سعيا تقصد به أوربا إخراج بلاده من حلبة السياسة الدولية ، ومكيدة يبغى بهـا بالمرستون الوقيعة بينه و بين مليكه .

أما بالمرستون فلم يقصر جهوده على هذه المكيدة الدبلوماسية ؛ لأنه لم يكن ممن يتقنون فن المخاتلة والموار بة ، بل كان يتزعم أولئك الذين يعالجون الأمور بالبطش والصديد . وقد يكون أكثر انطباقا عليه قول الأمريكيين : « إنه يحمل المطرقة على كتفه » . وسواء صدق عليه هذا القول أو لم يصدق ، فإنه كان رجل كفاح وجلاد . ويحسن بنا أن نشير إلى أن لقب أسرته مشتق من إمارة إرلاندية . ولربما كانت أكبر صلات أسرته بتلك الجزيرة « لا تتعدى تفضلها بتزيين ثَبْت نبلائها والتمتع بإيرادها »[1] ، ولـكنه كان ميالاً بغريزته إلى

(١) جودلا فى كتابه السالف الذكر ص ٢١ .

ما طبع عليه الإرلنديون من حب الحرب للحرب . وما كاد يوقن أن تيير قد سلك فى رأيه مسلك الأنانية ، حتى أصدر أوامره إلى بنسنبى السفير البريطانى فى الآستانة أن يثير نقع الفتنة على محمد على . ومعنى هذا أن كل ما عمله إبراهيم لخير الشام يجب أن تنهار دعائمه ، وأن توقد نار الفتنة فى البلاد التى أخذت تسلك سبيل الرخاء ، لأن فرنسا وإنجلترا عالنت كلتاها الأخرى بعدائها السياسى .

وأرسل أسطول بريطانى إلى شواطئ الشام لتحريض أهلها على الثورة ، وإمدادهم بالسلاح وتوزيع المال على زعمائهم . وقد كشف القناع عن هذه الحقيقة المؤرخ الإنجليزى ددول ، الذى طالما ذكرنا اسمه فى هذا الكتاب ، فقال بعبارة صريحة موجزة : « وفى ١١ سبتمبر سنة ١٨٤٠ أنزلت قوة من البحارة البريطانيين والجنود الأتراك إلى شاطئ بلاد الشام بقرب بيروت بعد أن ظلت تلك البلاد عدة شهور مسرحا للقلق والاضطراب ، يثير فيها نقع الفتنة رسل الأتراك »[1] .

وهنا يجدر بنا أن نقول إن التاريخ الذى ذكره ددول مضلل بعض التضليل ؛ فقد يخيل إلى من يطلع عليه أن نحو شهرين قد انقضيا بين اتفاق لندن (١٥ يوليه) وهذا العمل العدائى الذى قام به الإنجليز (١١ سبتمبر) ، فيظن أن بلمرستون وقف لا يبدى حراكا خمسة وخمسين يوماً كاملة ، مع أن له لقباً إرلنديا ومزاجا إرلنديا ، ومع أن الدسائس الفرنسية ودعاوى تيير وصخبه قد تكون دفعته إلى العمل دفعاً . لكننا نرى فيما نشر من سجلات القنصلية اليونانية بالإسكندرية أن عدداً من البوارج الحربية البريطانية ظهرت أمام شاطئ الشام قبل اليوم السادس عشر من شهر يوليه[2] . نعم إن وجودها لا يفهم منه بالضرورة أن

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١٨٩

(٢) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ١١٢ .

مقاصدها كانت عدائية ، ولكن انظر إلى هذه الرسالة الأخرى المؤرخة ٢٦ يوليه تر فيها ما يأتي :

« لا تزال الأنباء ترد إلى الحكومة (حكومة محمد على) مبشرة بالنجاح فى قمع الثورة السورية ، وإن كانت الأخبار الخاصة تدل على أن الثوار لا يزالون يقاومون فى بعض الجهات حيث يشجعهم على المقاومة مرأى البوارج الحربية البريطانية (١) » .

وفى اليوم السادس عشر من سبتمبر أرسل القنصل اليونانى العام إلى أثينا تقريراً بهذا المعنى :

« وصلتنى فى العشرة الأيام الماضية أنباء عن الحصار الشديد المضروب على شواطئ الشام من غير إعلان سابق . وقد تلقت الحكومة أخباراً بطريق البر خلاصتها أن الإنجليز شرعوا يقومون بأعمال عدائية أخرى ؛ منها أنهم أنزلوا إلى البر بجوار بيروت نحو ثلاثة آلاف من الألبانيين بعد أن وصل إليها الأسطول العثمانى ؛ ثم أطلقوا المدافع على المعسكر وعلى حانوت خال قريب من الشاطئ . وقد أنزل هؤلاء الجنود فى موضع يستطيع أن ينزل فيه غيرهم إذا دعت الضرورة . والإنجليز والأتراك يستخدمون كل الوسائل التى توصلهم إلى غايتهم ، فقد وعدوا سليمان باشا بأن تكون حكومة قبرص له ولذريته من بعده ، كما وعدوا محموداً بك بباشوية طرابلس ، وبتعيينه حاكما على بيروت إلى غير ذلك من الوعود . أما إبراهيم باشا فهو الآن فى بيروت ، وقد جاء إليها على رأس جنوده تاركا ابنه البالغ من العمر اثنى عشر ربيعاً فى رعاية أربعة من أشهر قواده » .

وأضيفت إلى هذا التقرير حاشية تقول :

(١) المصدر عينه ص ١١٣ .

« قد بلغتنا الآن أنباء أكيدة بأن سوريا لم تنزل فيها جنود ، وأن كل ما حدث هو ضربها بالمدافع[1] » .

ويلوح بعد ذلك أن القنصل العام تسزا Tossizza ترك شهرا كاملاً يمر من غير أن يبعث إلى وزارة الخارجية برسائل أخرى ؛ ثم استيقظ من سباته فى السادس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٨٤٠ وكتب إلى حكومته يقول :

« ستجدون مع هذا صورا من ثلاث وثائق خاصة بحصر شواطئ مصر والشام . ويجدر بى أن أضيف من عندى أن المذكرة المحتوية على إعلان الحصار أرسلت فى قوارب صغيرة من قوارب الأسطول المحاصر . وتاريخ هذه المذكرة مكتوب على الظاريف المعنونة إلى الحكومة والقنصليات ؛ ولكن الوالى لم يكن فى الإسكندرية عند وصول هذه المذكرات ، فلم يسلمها الرؤساء المحليون إلى أربابها ، ولذلك لم تصل إلى القنصليات إلا فى اليوم العاشر من شهر اكتوبر »[2] .

وبعد فقد كان محمد على سابقاً للعصر الذى يعيش فيه بقرن من الزمان . والدليل على ذلك أن الرئيس ولسن — أو لعله لويد جورج Lloyd George أو لورد نورثكلف Lord Northcliffe — اخترع فى عام ١٩١٨ تلك العبارة الخادعة ، وهى أن الحلفاء لا يحاربون ألمانيا بل يحاربون العسكرية ، ولا يقاتلون الشعب الألمانى وإنما يقاتلون آل هوهنزلرن Hohenzollerns . وهذه العبارة قد اختلسها قائلها من شكوى محمد على الصاخبة . فبينا كانت الجنود البريطانية تضرب مدن الشام بمدافعها ، والبنادق البريطانية توزع على العصاة الثائرين من أهل الشام ، والأموال البريطانية تؤجج نار الوطنية فى قلوب الزعماء السوريين ،

(١) المصدر عينه ص ١١٥ .
(٢) المصدر عينه فى نفس الموضع .

فى هذا الوقت قال محمد على : « أنا لا أحارب إنجلترا بل أحارب اللورد بلمرستون » ويؤكد الألمان أن الرئيس ولسن — أو لعله لويد چورچ أو اللورد نورثكلف — لم يكن جادا حينما دوت فى المشرقين صرخته الشهيرة « الصلح مع الألمان والحرب مع القيصر » ، ولكن محمداً عليًا كان من غير شك صادقا فى قوله لأنه « لم يكفه أن يسمح للبريد البريطانى بالمرور فى بلاده ، بل اتخذ وسائل خاصة لحماية المسافرين (البريطانيين) أثناء اجتيازهم طريق السويس »(١) .

وبينا كان محمد على يبرهن على كرمه وتسامحه ، كان ولده إبراهيم يقاسى الشدائد والأهوال . ويقول ددول فى ذلك إن « جيشه قد تبدد وضعف ، ونفدت أرزاقه وذخيرته ؛ وما وافى شهر اكتوبر حتى ثار عليـــه الدروز . وفى العاشر من ذلك الشهر التقى الكومودور نابيير بإبراهيم نفسه على رأس قوة صغيرة من رجاله عند بيت حنس(٢) ، وهزمه وأخذ منه رايته . وفى الرابع من نوفمبر سلمت عكا التى صدت هجمات إبراهيم ستة شهور كاملة ، ولم تطلق عليها نيران المدافع إلا يوما واحدا . وهكذا تضعضع ركن القوات المصرية فى بلاد الشام وفُت فى عضدها »(٣) .

تلك صورة صادقة لما وصلت إليه الحال فى ذلك الوقت . وماذا يفعل إبراهيم والأتراك يكيدون له لأن حكمه هو حكم الحضارة والرقى ؛ والمسيحيون الأرثوذكس يحاربونه لأن حكمه ينذر بالقضاء على حقوقهم التقليدية المكتسبة ، فيحرمهم من الأرباح الطائلة التى يجنونها فى الحروب ؛ والمسلمون يقاومونه لأنه يؤمن بالحرية

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١٨٩ .

(٢) أكبر ظننا أنه يقصد خان بحنس وهو المكان الذى تلاقيا فيه ولم نعثر على مكان باسم بيت حَنّس فى جميع المصادر العربية أو التركية التى راجعناها ولا فى كتاب نابيير نفسه .

(٣) المصدر عينه فى نفس الموضع .

الدينية والمساواة أمام القانون ؛ والدروز قائمون عليه لأن المارونيين الكاثوليك انضووا تحت لوائه فى أول الأمر ؛ وإنجلترا تصلت سيف الفتنة وتمد العصاة بالمال ، وتشجع الفوضى بضرب الحصار على شواطئ الشام ، وإطلاق القنابل على إحدى نقط البلاد الحربية ؟ ولو أن إبراهيم لم يكترث بذلك كله وأراق دم جنوده من غير جدوى لكان عمله هو الخرق بعينه .

كذلك لم يكن إبراهيم جباناً — لقد كان له كما كان لربرت . ا . لى القرجينى Robert E. Lee of Virginia سجلاً حافلاً بالأعمال المجيدة يدفع به عن نفسه هذه التهمة . لقد استسلم لى Lee لجرانت Grant[1] فى أبوماتكس Appomattox حين أيقن أنه وإن استطاع أن يواصل القتال ليس فى مقدوره أن يمحو ما خط له فى لوح القضاء ؛ وأبى أن يتولى قيادة حرب العصابات ، وفضل أن يخضع حين رأى أن لا بد من الخضوع ، وتجرع الغصة بصبر وجلد يشرفه ويرفع من قدره . وكذلك فعل إبراهيم فى هذا الموقف .

لقد كانت إنجلترا وفرنسا تتحاربان وإن كانت لندن وباريس لا تنتضيان السلاح . وكان بلمرستون يعتقد خطأً أن تيير لا يزيد على أنه صحفى من الطراز الثانى بين الصحفيين ، مغتر بنفسه مخاتل خداع ، قد استحال سياسيا وتزيا بزى رجال الحكم . فأجمع رأيه على أن يضرب هذا القزم ضربة تطأطئ من إشرافه ، فصب جام غضبه على أعمال مصر فى الشام .

وكان إبراهيم رجلا قوى الإيمان بقضاء الله وقدره ، ورأى أن لا مفر مما قضى الله به ؛ ولكنه مع ذلك لم يتخل عن أمانته ، بل وقف شاكياً سلاحه

(١) جرانت من قواد جيوش الولايات الشمالية ، ولى من قواد الجيوش الجنوبية فى الحرب الأهلية الأمريكية . (المعرب)

حتى استدعاه فى التاسع والعشرين من نوفبر سنة ١٨٤٠ أبوه الذى يحبه حبا لا يشعر به إلا من كان فى مثل قوته . و بينما كان النبيل الإرلندى يستعد للكفاح و يوجه ضرباته إلى تيير فى شخص إبراهيم ، كان رئيس الوزارة الفرنسية يقود سفينة الدولة فى برلمان مضطرب صاخب . وكان من أحب الأشياء إلى لوى فليب أن يوسع نطاق مصالح فرنسا فى مصر ؛ ولكنه كان قد عقد النية على أن لا ينساق إلى الحرب . وقد قال ألسن Allison فى هذا : « لقد سمح لتيير أن يواصل استعداداته الحربية ، ولكنه أسر إلى سانت أولير Saint Aulaire حين أتاه بعد حديث طويل مع رئيس الوزراء « إن معلوماتك هذه صحيحة يا سفيرى العزيز ، وإن حديثك الرسمى ليس كمثله حديث ؛ ولكننى أحب أن أقول لك بصفة خاصة إننى لن أسمح لنفسى بأن أندفع وراء وزيرى الضئيل ، إلا إلى حد محدود . وثمة أمر واحد على الأقل لا أتفق معه عليه ، ذلك أنه يريد الحرب وأنا لا أريدها ؛ وإذا سدت أمامى كل السبل فضلت أن أقطع ما بينى وبينه ، على أن أقطع ما بينى و بينك »[1] .

لقد كان موقف تيير محفوفاً بأشد المخاطر . كيف لا ومليكه يكيد له ، والوزارات الفرنسية على الدوام مزعزعة غير مستقرة ، و بلمرستون لم يترك له إلا واحدة من ثلاث : فإما أن يحارب و إما أن يستقيل وإما أن يخرج مرغماً ؟ وكان هو لا يرغب فى الحرب ، و إنما كان يخادع و يخاتل . و بينما هو يسعى ليخدع الناس ولا يخدع إلا نفسه ، كان بلمرستون جادا غير هازل فيما يفعل . وأيقن بذلك البرلمان الفرنسى والملك ؛ فلما انقضى شهر أكتوبر من عام ١٨٤٠ وأخذ إبراهيم يجنى ثمار ما زرعه تيير ، سقطت الوزارة الفرنسية التى كان

(١) ألسن فى كتابه السالف الذكر ص ٢٨٥ .

خطؤها وضجيجها سبباً فى خروج الشام من يد المصريين .

وإذا كان إبراهيم قد دفعته إلى الحرب شقشقة لسان رجل فرنسى ، فإن شذوذ رجل إنجليزى قد عبث بشروط الصلح عبثاً مقطوع النظير . وكان الأسطول البريطانى المحاصر لسواحل الشام تحت قيادة أمير البحر استيفورد Admiral Stopford ؛ وكان نائب القائد الكومودور نابيير Commodore Napier (السير تشارلس فيما بعد) ، الذى أظهر براعته فى قيادة الفرقة الهاجمة على صيدا فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٤٠ . وقد تلقى نابيير فى ١٥ نوفمبر أمراً بأن يقود عمارة قوية ويظهر بها تجاه الإسكندرية . ووصفته دائرة المعارف البريطانية بأنه « كان رجلاً جم النشاط ، جرىء الصدر ، كثير الشذوذ والكبرياء » . ولكن الهجوم على الإسكندرية لم يكن يحتاج إلى شىء من نشاطه أو جرأته ، لأن محمداً عليًّا قد أوتى من العقل وبعد النظر ما يمنعه عن الوقوف فى وجه الأسطول البريطانى . غير أن المهمة التى كلف بها نابيير كانت تحتاج إلى ضابط ليس من صفاته الشذوذ أو الكبرياء . وبذلك كان عمله فى ميناء الإسكندرية فى غير حاجة إلى فضائله ، وكانت عيوبه هى العيوب التى لا بد منها لزيادة المسألة تعقيدا فوق تعقيدها . وقد أفسدت هذه العيوب ما كان يرجى منه من خير ، حتى قالت فيه دائرة المعارف البريطانية : « إنه أغضب كثيرا من زملائه الضباط بمسلكه مع رئيسه أمير البحر استيفورد فى حروب الشام ، وتورط طوال حياته فى نزاع مع وزارة البحرية »[1] .

ووصل نابيير إلى الإسكندرية فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٤٠ . ولسنا ندرى

---

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الثالثة عشرة الجزء التاسع عشر ص ١٦٩ تحت عنوان نابيير ، السير تشارلس .

سبب تأخره فى الوصول إليها هذا الزمن الطويل ؛ ولكنه بمجرد وصوله أشعر الحكومة المصرية أن الإسكندرية لا تستطيع رد عاديته ، وأن من السهل أن يصيبها ما أصاب عكا من قبل . ولم يكتف بهذا بل أبلغ تلك الحكومة أنه إذا كان محمد على يفكر فى أن يجعل من نفسه رأس أسرة حاكمة ؛ فما أجدره أن يعد نفسه سعيد الحظ إذا لم يصبح كغيره من الباشوات[1] .

ولما كان الملاحون لا تؤثر عنهم زلاقة اللسان و إتقان اللغة الدبلوماسية ، فإن هذه اللغة الجافة لم تكن لها قيمة ، وكان أثرها الوحيد أن فتح الطريق أمام نابيير للقيام بعمل جديد ، وذلك أنه قبل أن ينتهى من مراسلاته ادعى لنفسه حق التفاوض مع محمد على ، وشرع فى هذه المفاوضة . ومع أنه لم يعط سلطة دبلوماسية تجيز له ذلك ، بل فعل ما فعل بتأثير شذوذه أو كبريائه أو هما معاً ، فقد وقع فى السابع والعشرين من نوفمبر اتفاقاً مع الباشا ، تعهد فيه ثانيهما أن يخلى الشام و يرد الأسطول العثمانى بشرط أن تكون مصر له ولذريته من بعده[2] ، و بناء على هذا الاتفاق استدعى إبراهيم من الشام .

ولم يخالج محمد على أدنى شك فى أن وزارة الخارجية البريطانية قد خولت نابيير حق التفاوض معه ؛ ولذلك لم يطالب إليه أن يقدم له أوراق اعتماده ، معتقداً أن فى لباسه الرسمى أكبر ضمان لصدقه وأمانته ، وأن كلمة الرجل الإنجليزى ليست فى حاجة إلى أن تؤيد بالدليل . و يجوز أن نابيير قال إنه يعمل من تلقاء نفسه ، غير مستند إلى تعليمات من لندن ؛ فإذا كان قد فعل فإن محمداً عليا قد فهم أن قوله هذا مكر دبلوماسى ودهاء ، لأنه لا يستطيع أن يتصور

(١) صبرى فى كتابه السالف الذكر ص ٥٢٣ .
(٢) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١٩٠ .

ضابطاً بحريا إنجليزيا ، يقود عمارة بحرية محاصرة ، ثم يفاوض فى شروط الصلح دون تفويض من إنجلترا . ولما كان نابيير رجلا « شاذا متكبراً » ، فقد كان شذوذه مانعاً له من إدراك خطورة الغلطة التى ارتكبها .

وكان محمد على صادقاً مخلصاً فى عمله ، وقد بعث فيه هذا الإخلاص احترامه لحلة الإنجليزى الرسمية ، التى جعلتها التقاليد فى نظره خير شهادة لصاحبها فى العمل الرسمى الذى يقوم به . ولو أنه خالجه شك فى مهمة نابيير لما بقى لهذا الشك أدنى أثر حين رأى القنصل البريطانى العام المستر لاركنج Mr. Larking يضطلع بدور الوسيط بينه وبين الكومودور .

نقول هـذا وحجتنا فيا نقول المحفوظات القنصلية اليونانية[1] ، فإن هذه المحفوظات لا تترك مجالاً للشك فى التناقض الذى يبدو فى ذلك الموقف كله . فإذا صدقنا ما يقوله التقرير الرسمى المرسل إلى أثينا ، فإن أسطولاً بريطانيًا قد ضرب السواحل السورية دون أن يسبق هذا الضرب إعلان من أى نوع كان[2] ، ولم يلم الباشا بريطانيا العظمى على هذه المظاهرة العدائيـة بل ألقى اللوم كله على بلمرستون ، وأبى أن يسلم بأنه فى حرب مع حكومة الملكة فكتوريا ، ولذلك سمح لقنصل حكومة جلالة ملكة بريطانيا بالبقاء فى الإسكندرية . وقد اشترك ممثل وزارة الخارجية البريطانية — ونقول ممثل وزارة الخارجية لأن القنصـل لم يكن يمثل وزارة التجارة فحسب ، بل كانت له أيضاً صفات دبلوماسية — مع القائد المحاصر للإسكندرية فى القيام بمفاوضات من غير تفويض رسمى لإعادة مياه السلم إلى مجاريها ، مع أنه لم يحدث قط من الوجهة الرسمية ما يعكر صفاءها .

(١) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ١٢٠ .

(٢) لا شك أن بلمرستون قد رأى أن الذكرة التى بعثت بها الدول فى ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ كافية .

وهـذه الرسالة القنصلية اليونانية ، التى تؤكد لنا أن لاركنج القنصل البريطانى العام كان هو الوسيط بين نابيير ومحمد على ، تضيف إلى ما سبق أن الكومودور عرض على محمد على أنه إذا قبل المقترحات التى أبلغتها إليـه الدول فى ١٥ يوليه ، والتى لا يشك فى أنها لا تزال معروضة عليه ، فإنه يستطيع بانتهاز هذه الفرصة السانحة له أن يقضى على ويلات الحرب وأهوالها .

وفى اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر أرسل القنصل العام توسزا إلى حكومة أثينا رسالة يقول فيها إن قائد العمارة البريطانية أبلغ هيئة القناصل أن حصار الإسكندرية قد أجل رسميا إلى اليوم العشرين من شهر نوفمبر [١] . وفى العاشر من ديسمبر وصلت الأنباء إلى الإسكندرية بأن الباب العالى أبلغ القنصليات فى ٢ ديسمبر أن حصار الموانى السورية قد رفع عنها [٢] . ويظهر أن هـذه الخطوات لم تقنع محمداً عليا وحده ، بل أقنعت معه القنصل اليونانى العام ، بأن السلم قد أصبح قاب قوسين منـه ، وأن نابيير هو الروح المسير لهذه الحركات . ولـكن الأمور تغيرت فجأة فى اليوم السادس عشر من ديسمبر ، إذ يلوح أن الإسكندرية — ونعنى بالإسكندرية محمداً عليا وهيئة القناصل — علمت لأول مرة أن أمير البحر استيفورد « ألغى اتفاق نابيير . . . . وكتب إلى الباشا فى ٦ ديسمبر يشير عليه بأن يقبل المقترحات التى ستبلغها إليه الدول المتحالفة بصفة رسمية ، عملاً بالقواعد الواردة فى الخطاب المرسل من اللورد بلمرستون إلى وزارة البحرية فى ١٤ نوفمبر » [٣] .

---

(١) پولينس فى كتابه السالف الذكر ص ١٢١ .
(٢) المصدر عينه ص ١٢٣ .
(٣) المصدر عينه ص ١٢٤ .

وتوضح السطور الأخيرة من هـذا التقرير مقدار الصعاب التي أوجدها هذا التحول الفجائي في سير الأمور . ثم بقي تسمزا ثلاثة أسابيع لا يشير فيها إلى نابيير ولا إلى استيفورد ، حتى إذا كان اليوم الثامن عشر من يناير سـنة ١٨٤١ أبلغ وزارة خارجيته أن :

« سفينة وصلت من مرمرس[١] أو مرمرا تقـل نابيير ، وتحمل خطابات من استيفورد إلى محمد علي ، تؤكد أن حكم مصر سيكون له ولذريته من بعده ، ولـكن دون أن تضمن إنجلترا ذلك . وليس ثمة شك في أن بعثة نابيير لم يكن يقصد منها إلا أن تحمل الوالي على الخضوع إلى السلطان ، وأن تنفذ ما تم عليه الاتفاق . فما كان جواب محمد علي إلا أن قبل كل شيء دون تردد ؛ وأرسـل من فوره إحدى بواخره إلى الشام تحمل الأوامر بالجلاء عن تلك البلاد[٢] »

ويقول لنا هذا المصدر عينه إن إبراهيم وصل إلى القاهرة قبل اليوم السادس من مارس سنة ١٨٤١ ببضعة أيام ، وإن الخط الشريف الرسمي الذي يعلن انتهاء الحرب أذيع في اليوم العاشر من شهر يونيه[٣] . وقد أبدى القنصل العام عندما نقل هذا الخبر الأخير الملاحظة الآتية :

« والآن نستطيع أن نؤكد تأكيدا لا أثر للشك فيـه أن المشاكل التركية المصرية قد أسدل عليها الستار نهائيا[٤] » . لـكن هذه المشكلة المعقدة لم تختتم هذه الخاتمة السعيدة بالسرعة التي قد يستنتجها الإنسان من هذه الوثائق الرسمية . فددول مثلا يقول إن العالم الدبلوماسي في الآسـتانة ذهل حين عرف أن محمداً عليا

(١) اسم هذا الثغر مرمريس وهو ثغر صغير في جنوب الأناضول تجاه جزيرة رودس . (المعرب)
(٢) المصدر عينه ص ١٣٠ .
(٣) المصدر عينه ص ١٣٣ .
(٤) المصدر عينه ص ١٣٤ .

أصدر أمره إلى إبراهيم فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٤٠ بالجلاء عن الشام ؛ وذلك لأن السفراء لم يكونوا يعلمون شيئاً مما فعله نابيير ، فلم يستطيعوا أن يدركوا سبب إقدام الباشا على اتخاذ هذا القرار الخطير غير المفهوم فى الظاهر .

وقد قال هدجس Hodges فى ذلك قولاً أطرح فيه وقاره القنصلى : « لقد أثار نابيير زوبعة هوجاء بين أعضاء الهيئة الدبلوماسية »[1] .

ولكن يلوح أن جنون الكومودور الذى تقول عنه دائرة المعارف البريطانية إنه كان « شاذا متكبرا » كان جنوناً منظما . ذلك أنه علم أن بلمرستون والوزارة البريطانية قد تراجعا فى العاشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٤٠ عن الموقف المتطرف الذى وقفاه فى ١٥ يولية سنة ١٨٤٠ ، والذى أشرنا إليه فى آخر الفصل السابق ، واختطا خطة أخرى راعيا فيها شعور الفرنسيين . وربما أرادا بها أيضاً أن يسهلا على لوى فليب إسقاط تيير . ومن أجل هذا اتفقا على أن يشيرا بإعطاء محمد على باشوية مصر له ولأولاده ، على شريطة أن يبادر إلى سحب جنوده من الولايات العثمانية الأخرى ، وأن يرد الأسطول العثمانى[2] .

ولما كان من واجبات البحار أن يدرس التيارات البحرية والمد والجزر وحركات الماء فى البحار ، وأن يراقب البارومتر ويعرف مهاب الرياح فقد طبق الكومودور نابيير هذه المبادئ على تجاربه فى السياسة العليا ، فهداه ذلك إلى أن بلمرستون والوزارة البريطانية كانا يعملان لاسترضاء محمد على ؛ ولذلك حول اتجاهه إلى هذه الناحية . أما الدبلوماسيون الرسميون فإنهم يعيشون فى جو أرق من الجو الذى يعيش فيه الملاحون ، ويرون أنهم لا يستطيعون أن يدرسوا

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١٩٠ .

(٢) تعليقات وزارة الخارجية لپنسنبى فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٧٨ — ٣٩٠) منقولة عن ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١٩٠ .

سير التيارات والمد والجزر وحركات الماء فى البحار ، إلا إذا نزلوا من سماء عليائهم ونكسوا أبصارهم ؛ ويرون أن دراسة البارومتر أمر لا يفعله إلا عامة الناس ، فهو إذاً يحط من منزلتهم الرفيعة ؛ وأن مراقبة اتجاه الريح لا تحتاج إلا إلى شيء من العقل العادى والذوق العام ، وهو ما يمقتونه أشد المقت . ومن أجل هذا حدث أنه بينا كان نابيير يعرف ما يدبره بلمرستون ومجلس الوزراء الإنجليزى ، ويسعى للوصول إلى النتيجة المطلوبة بطريق ملتو غير سليم ، كان پنسنبى السفير البريطانى فى الآستانة يفضل الخطط المنتظمة على النتائج ، ويهتم بالتقاليد والمراسيم أكثر مما يهتم بالسلم ، ومن أجل هذا تقرأ عنه فى كتاب « منشئ مصر الحديثة » ما يأتى :

« وما كاد نص الاتفاق الذى عقده نابيير يصل إلى لندن حتى أقرته على الفور ، وإن كانت مخاوف پنسنبى ظلت تخترع العقبات لتقيمها فى سبيل التسوية التامة . من ذلك أنه حمل الباب العالى على أن يصدر فرمانا — هو الخط الشريف الهمايونى المؤرخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ — يحتوى على عدة قيود شديدة الوطأة رفضها محمد على عملا بنصيحة نابيير . ثم أخذ بلمرستون ومترنيخ يلحان فى تعديل الاتفاق حتى تم لهما ذلك ، وصدر بالتعديل فرمان جديد فى أول يونيه يعترف فيه بحق وراثة عرش مصر للأكبر فالأكبر من سلالة محمد على الذكور . ثم حدد هـذا الفرمان جزية الباب العالى بثمانين ألف كيس سنويا (٤٠٠٠٠٠ جنيه) ، وحدد عدد الجيش المصرى بثمانية عشر ألف جندى إلا إذا وقعت الحرب أو صدر بزيادته تصريح خاص ، وحرّم على مصر أن تنشئ سفناً حربية »[1] .

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١٩٠ .

وبذلك كسبت مصر بفضل حكمة محمد على وسيف إبراهيم ما يعده كثير من المؤرخين استقلالا حقيقيا . فقد أصبح لها حق التصرف فى كثير من شؤونها ، واعترف لها بمبدإ وراثة عرشها ؛ لكنها لم تحصل على الأملاك الواسعة التى لاح فى وقت من الأوقات أن رايتها سوف تخفق عليها ؛ وذلك لأن أوربا حرمتها ما كانت تركيا سترغم على التسليم به لها .

وبعد أن استقر السلم فى نصابه عاد إبراهيم كما عاد سنسناتس إلى محراثه[١] . وقد أبلغ تسزا ذلك إلى حكومته فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٤٢[٢] . وكان قد أبلغ أثينا فى رسائله السابقة أن « الحالة هادئة ، وأن الشخصيات البارزة من رجال مصر العسكريين والسياسيين جميعهم ، إلا قليلا منهم ، قد حولوا جهودهم إلى مزارعهم »[٣] ، وظل الهدوء شاملا والأمور سائرة على أذلالها ، حتى وافى اليوم السابع والعشرون من شهر يوليه سنة ١٨٤٤ ، وإذا بالقنصل اليونانى العام يشعر بالحاجة إلى إرسال التقرير الآتى إلى وزارة خارجيته :

« لما كانت باخرة البريد لم تستطع أن تسافر لأن حادثاً غريباً حدث للوالى ، فإن الواجب يقضى على أن أضيف إلى ما كتبت من قبل أن سموه غادر هذا البلد (الإسكندرية) فى هذا الصباح ، وأعلن أنه ذاهب إلى مكة . ولم يكن أحد من خاصته أو موظفيه على رصيف الميناء ، لأنه أعلن أنه لا يحب أن يرى أو يسمع أحداً . ولم يستصحب معه إلا صيدليه وعدداً قليلا من خدمه .

(١) سنسناتس قائد رومانى عظيم اشتهر بالبساطة والتقشف . اختير مرتين حاكما مطلقا لرومة ولما جاءه الرسل بشارات منصبه وجدوه فى حقله سائراً وراء محراثه . وبعد أن تم له النصر على أعداء رومة تخلى عن سلطنه وعاد مرة أخرى إلى حقله قانعاً بحياة الزارع المتقشف . (المعرب)

(٢) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ١٤٢ .

(٣) المصدر عينه ص ١٤٤ .

ونزل المركب دون أن يسلم على أحد ، ولكنه عاد فسلم بعد أن تحركت السفينة . وقد كتب السفير الفرنسى إلى نظارة الخارجية بالأمس يستفسر عن حقيقة الحال ، فبعث الناظر بالخطاب إلى الوالى يسأل عما يجيب به . فقال له سموه : « اكتب أى جواب شئت ، لأن الأمور مضطربة » . ويعزو معظم الناس هذه الحال إلى نوع من الخبل أصاب الوالى ؛ والبلد كله فى هرج ومرج »[1] .

ويدل التقرير الثانى الذى أرسله بعد ستة أيام من هذا التاريخ على أن الواجب على الإنسان ألا يهتاج إذا نشرت الصحف اليومية أخباراً مثيرة . نقول هذا لأن تسزا بعد أن أرسل إلى وزيره هذه الرسالة المزعجة ، كتب إليه يقول إن محمداً عليا سافر إلى القاهرة بعد أن عدل عن رحلته إلى مكة ، « وإننا تلقينا أخباراً موثوقاً بصحتها تنبئ بأن سموه يتمتع بأحسن صحة ، وأن مرضه قد زال ، وأنه الآن فى غاية الهدوء ويظهر منتهى اللطف والبشاشة »[2] .

وإذا كان القنصل اليونانى العام قد تسرع فى إخبار أثينا أن محمداً عليًّا اضطربت قواه العقلية ، فإنه كان شديد الحذر من الوقوع فى غلطة أخرى من نوعها ؛ ولذلك خلت المحفوظات اليونانية من كل ما يشير إلى أنه أبلغ وزارة خارجيته أن إبراهيم قد حل به المرض . على أننا نجد فى كتاب « سليمان باشا » لڤنترنييه Vingtrinier أن القائد أصيب فى سبتمبر سنة ١٨٤٥ بنزلة معوية حادة ، اضطرته إلى أن يسافر إلى سان جيتانو San Guitano بجوار بيزا Pisa ليستطب فيها . ولما لم تفده مياهها سافر منها إلى ڤرنيه Vernet فى جبال البرانس[3] .

(١) المصدر عينه ص ١٤٨ .

(٢) المصدر عينه ص ١٤٩ .

(٣) ڤنترنييه فى كتابه السالف الذكر ص ٤٥٧ .

ويلوح أن هذه المدينة قد أفادته أكثر مما أفادته سابقتها ، لأنه هو وسليمان باشا زارا فيما بعد باريس ولندن وتمتعا فيهما كثيراً ، ثم عاد الباشا إلى الإسكندرية فى ٨ أغسطس سنة ١٨٤٦ فى أحسن صحة »[١] .

ثم مرت الشهور حتى حل اليوم الخامس من فبراير سنة ١٨٤٨ ، فأبلغ القنصل اليونانى العام حكومته « أن الوالى لا تزال حالته خطرة ، وأن اللجنة الطبية لهذا السبب قد أشارت بوجوب سفره إلى أوربا مراعاة لصحته[٢] » . وكان تسزا فى هذه المرة حريصاً كل الحرص على أن لا يبدى رأياً من عنده فى ماهية المرض ولا فى أعراضه . ونرى هذا الحرص ظاهراً أجلى ظهور فى رسالة موجزة مرسلة من الإسكندرية فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٤٨ ، أى بعد سبعة أشهر من الرسالة السابقة ولم يرد فيها إلا قوله : « عاد إبراهيم باشا إلى هنا فى يوم السبت الماضى العاشر من هذا الشهر على نفس السفينة ذات السطحين التى سافر عليها من قبل . وفى اليوم الثانى غادر هذه المدينة إلى القاهرة ليتسلم زمام الحكم ، لأن الأوامر السلطانية العليا أحلته فى مكان أبيه . ومصر هادئة كل الهدوء ، والأمور سائرة سيرها العادى ، يسودها النظام والأمن اللذين لا تشوبهما شائبة قط »[٣] . وفى اليوم السادس والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٤٨ كتب تسزا يقول إنه قد أذيع فرمان رسمى فى الثانى والعشرين من سبتمبر بعان تولية إبراهيم على مصر . ولم يشر هذا التقرير إلى سبب تولية إبراهيم بدل محمد على ، ولكنه يقول بعد العبارة السابقة « لا نستطيع أن نقول إن صحة إبراهيم جيدة »[٤] .

(١) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ١٦١ .
(٢) المصدر عينه ص ١٦٧ .
(٣) المصدر عينه ص ١٧٢ .
(٤) المصدر عينه ص ١٧٣ .

ثم أكدت رسالة أخرى مؤرخة ٣٠ سبتمبر نبأ تولية إبراهيم ، ولم تذكر سبب إحلاله محل أبيه ، وقالت إن صحة الوالى الجديد تتحسن يوماً وتسوء يوماً آخر ؛ وذلك لأنه يشكو « من مرض حاد مزمن »(١) .

وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٤٨ أبلغت أثينا أن صحة إبراهيم فى خطر شديد(٢) . وفى اليوم السابع من نوفمبر أبلغت أن حالته تحسنت نوعاً ما ، ولكنه لم يتعد دائرة الخطر(٣) . وانتقل إبراهيم إلى الدار الآخرة فى اليوم العاشر من نوفمبر سنة ١٨٤٨ فى الساعة الواحدة صباحاً وهو فى التاسعة والخمسين من عمره ، وخلفه على عرش مصر عباس باشا ابن طوسن وحفيد محمد على(٤) . ومن أغرب ما كتب عن إبراهيم ما قاله ديسى فى كتابه « قصة الخديوية » :

« لقد كان إبراهيم أقدر الناس على تنفيذ سياسة محمد على ؛ ولكنه قبل موته كانت تنتابه اضطرابات عقلية ؛ وقد أصيب بالأرق حتى أصبح لا يستطيع النوم كما أخبر هو عن نفسه ، لأنه كان يرى فى أحلامه أشباح القتلى الذين أزهق أرواحهم »(٥) .

على أننا لم نعثر على ما يثبت أن إبراهيم قد اختلت قواه العقلية . وتقول السجلات الروسية بصريح العبارة إنه مات بعلة صدرية ، ولا تشير أية إشارة إلى اضطرابات عقلية(٦) . وفوق ذلك فإنا نعلم أنه لما تقدم محمد على فى السن خارت

(١) المصدر عينه ص ١٧٤ .
(٢) المصدر عينه ص ١٧٥ .
(٣) المصدر عينه ص ١٧٦ .
(٤) المصدر عينه فى صفحة ١٧٦ .
(٥) قصة الخديوية تأليف إدورد ديسى طبعة رفنجتن بلندن سنة ١٩٠٢ ص ١٣ .
(٦) لقد تفضل رنيه قطاوى بك فأذن لنا بأن ننقل هذا من تقرير لم ينشر بعد مؤرخ ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ .

قواه العقلية ، وجلس إبراهيم على العرش مكانه ؛ و بعيد جدا أن يختار الباب العالى رجلا مختل القوى العقلية ليخلف آخر مثـله . ولهذا فأ كبر ظننا أن ديـبى قد اختلط عليه أمر الوالد والولد . وليس ثمة ما يدعو إبراهيم إلى الخوف من أشباح الموتى ، لأنه فى كل ما فعل كان يؤدى واجبه كما يعتقده هو . وفوق هذا فإن ضمائر المجرمين الذين تحجرت قلوبهم قلما تنغص عليهم منامهم . ولدينا من التقارير ما يدل على أن شر أنواع المجرمين ينامون نوماً هادئاً مطمئنا أثناء مقامهم فى غياهب السجون ، بل وقبيل تنفيذ حكم الإعدام فيهم .

وفى اليوم السابع من أغسطس سنة ١٨٤٩ أبلغت القنصلية اليونانية العامة أثينا نبأ وفاة « محمد على البشوش الـكدود » فى منتصف الساعة الثانية عشرة من صباح اليوم الثانى من شهر أغسطس سـنة ١٨٤٩[١] . وكان عند وفاته فى التاسعة والسبعين من عمره أى أكبر من ابنه العظيم بعشرين عاما .

وتوفى إبراهيم ومحمد على بعد أن بلغا الذروة ؛ و بعد أن ترك محمد على أثره فى تاريخ العالم . لقد عمر طويلاً وحفل حكمه بالحوادث الجسام ، ونقض الدهر مرته ، وناءت قواه العقلية بالعبء الشـديد الذى ألقى عليها . وقد ولد له ثمانية وثلاثون طفلاً لم يعش بعده منهم إلا خمسة أولاد و بنتان على الأرجح[٢] . ومات ولم يتحقق كل ما كانت تنطوى عليه نفسه فى أواسط حكمه من واسع الأمل وعظيم الرجاء . ولم يكن إبراهيم باشا وهو أشد أبنائه إخلاصاً وأكثرهم إجلالاً له ، محاربا فحسب ، بل كانت له شجاعة الجنـدى ونظرة الحاكم السياسى ؛ عرف فى شبابه بالإقدام والعنف ، فلما كملت قواه لم يستنكف

(١) يوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ١٨٦ .
(٢) بريس دافن وآرمن فى كتابهما السالف الذكر ص ٣٦

أن يكون رجلاً محافظاً ، وإن بقى متصفاً بالتسامح فى كل ما له علاقة بالحرية الدينية . ويقيننا أنه لو مد الله فى عمره ، لأخذ بيد بلاده وسار بها فى طريق الرخاء . لكن قضى الله أن يسبق أباه إلى الدار الآخرة ، وأن يجلس على العرش وهو معتل الصحة . والآن لا يكاد أحد يعرف عنه شيئاً ، لأنه بلغ من حبه وإخلاصه لوالده أن كان يسره لو محى اسمه من صحف التاريخ ، ولم يبق فيها إلا اسم أبيه .

فهرس الأعلام

(ت)

(ج)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)



محمد علي باشا